

المرحوم عثمان امين

مات عثمان أمين
فيلسوف الجوانية ومفند « الخواجات » !

مولود قاسم نايت بلقاسم
الوزير لدى رئاسة الجمهورية
المكلف بالشؤون الدينية



منذ بضعة أسابيع نعت الينا مجلة المصور المصرية وفاة الاستاذ الدكتور الفيلسوف المجمعى عثمان امين ، رحمه الله !

زلت به القدم فى الحمام ، فوقع مغشيا عليه ، وبقى اياما فى حال الغيبوبة ... اسبوعا واحدا ، وغادر فيها هذا العالم فى العام الثالث والسبعين من حياته المليئة بالجهد والجهاد ، والعناء والمعاناة !

هذا نصيب الانسان الضعيف الذى كثيرا ما يجنح الى التكبر ، ويميل الى التجبر ، عوض التواضع والتدبر ...

ومن المفارقات العجيبة المؤكدة لضعف الانسان أن يموت فيلسوف الوعى والجوانية وهو غير واع ، ويغادر هذا العالم فى حال غيبوبة وغير شاعر باللحظات الاخيرة له فى هذه الحياة ... الدنيا اسما على مسمى ، ولكل شىء أجل مسمى !

ولقد ظل منذ شبابه ، كما كان يذكر لنا ذلك باستمرار وكما سجله فى أبيات من قصيدة طويلة نظمها فى مقهى مونبارناس ، فى باريس ، وهو طالب بالسربون ، واعيا حاد الوعى بوضع الامة الاسلامية المسكينة ، وساعيا جاد السعى للمساهمة فى إخراجها من تلك الحالة المستكينة، متألما شديد التألم لحالها ، وغير ممتلىء أملا بمستقبلها ، ناقدا مرير النقد لتهاونها فى مهام الأمور وسبهللتها ، وغفلتها عن مدى الهوة التى تردت اليها، وعدم شعورها بما يجرى فى العالم حواليها ، ناسية ماضيها ، وجاعلة من الخصم قاضيها، غير مدركة لواقع حاضرها ، وان اصبحت مكشوفة لناظرها ، ولا عابئة بمصيرها فى غدها ، جاهلة ان هناك من يرمى الى وأدها !

كان رحمه الله يلخص هذا كله ، وما يصاحبه من مجاملات فارغة ، ونفاق شنيع ، وعدم اكتراث ولا مبالاة ، وغفلة وضياع باستمرار وموالاة ، بتلك الأبيات التى يقول إنه نظمها على سطح مقهى فى الحى المذكور ، وهو يشاهد أفواجا من شباب المسلمين يغدون ويروحون فى زهو ولهو ، وكأن أمتهم فى عصر هارون الرشيد ، معبرا عن تأففه ، ومرارته بل ويأسه ، ومسجلا وضع الأمة ــ الغمة ، قائلا :

اذا كنت فى دولة النفاق ... فمل بساق واعدل بساق
ولا تخاصم ولا تصادق ... وقابل الكل بالعناق
ولا تحقق ولا تدقق ... وانسب شآما الى عراق
فأى شىء كأى شىء ... بلا اختلاف ولا اتفاق!

كان رحمه الله يدرس لنا فى بداية الخمسينات (1953 ــ 1954) فى السنتين الثالثة والرابعة ليسانس من قسم الفلسفة فى كلية آداب جامعة القاهرة ، التى كانت تسمى اذ ذاك جامعة فؤاد الاول ... يدرس لنا الفلسفة الحديثة : ديكارت وكنط، وكان باستمرار يبرز لنا السبق عند الفارابى أو ابن سينا ، عند إخوان الصفا أو المعتزلة، عند الغزالى أو ابن رشد، على ديكارت وكنط وغيرهما من فلاسفة أوروبا، ويذكى فينا الحماس، ويحثنا على التنقيب والبحث «بلاسبهللة»، ويقرن جميع ملاحظاته، وهو فى صميم التعمق فى كتاب «المبادئ» لديكارت ، أو نقد العقل الخالص لكنط ، بالوضع

فى أمه الاسلام اليوم ، ويطبق عليه هذه الاشارة أو تلك ، « وكأن ابن سينا وضع عنوان مؤلفه الكبير «الاشارات والتنبيهات» لهذه الامة المسكينة ، ولكن عبثا وسدى ! »

وكم كان يسرنى أن أسمع اسم الجزائر فى أكثر من مرة فى محاضراته تلك ، فى وقت كان فيه ذلك الاسم مجهولا فى مصر وغير مصر من المشرق العربى ، حتى من كثير من الخاصة · ولم يكن يذكر اسم الجزائر ، إذ ذاك ، الا شخصيات تعد عـلى أطراف الاصابع : مثل المرحوم عبد الرحمن عزام ، والدكتور محمد صلاح الدين ، أماالباقى ممن كنا نتصل بهم أو يتصلون بنا فكثيرا مـا كانوا يسألوننا عما اذا كانت الجـزائر فى أندونيسيا ، أو واق واق ، وعما اذا كان فيها نهر النيل ، والا فكيف نزرع ونحيـا ؟

أما اذا ذكرت الاستعمار الفرنسى ـ أو الاستخراب، كما كان يفضل د· عثمان أمين أن يقول ، أو الاستدمار ، كما يفضل كاتب هذه السطور تسميته ـ فكانوا يستغربون ويقولون : كيف ؟ فرنسا ؟ وأحدهم تمنى أن لو كان له جوز سفري الفرنسى ! (1)

وقد كان رحمه الله يقدر الرجال من أى بلد كانوا ، وخاصة اذا ما كانوا فلاسفة ومفكرين « وعاة » ، كما كان يحب أ نيقول ، ويعنى بذلك المهتمين سياسيا وثقافيا بالوضع فى العالم ، مثل الفيلسوف الالمانى كنط الذى كان يعجب به كل الاعجاب ، لتأكيده على أن النظام الجمهورى هو النظام الصالح الوحيد للامم والجدير بكرامتها ، ـ وهذا فى عهد فاروق ! ـ ، ولحرصه على حرية الشعوب ، وتنديده بالاستعمار الاوروبى عموما (2)،ولذا حرص على الاحتفالبالذكرى المائة والخمسين لوفاة الفيلسوف العظيم ، سنة 1954 ، والقى فى تلك الحفلة التذكارية كلمة لخص فيها فلسفة الحريـة عند كنط وأهميتها لجميع الشعوب المضطهدة ، وخاصة منها الشعوب العربية ·

وكان حرصه على ابراز فضل الفلاسفة المسلمين ، فى العهود الزاهرة للاسلام ، على أوروبا لا يعادله الا إلحاحه على أن يغرس فينا مزايا اللغة العربية على اللغات ، وضرورة ارجاعها الى مكانتها فى جميع ميادين حياة الامة الاسلامية ، وهو الذى درس فى أوروبا ،

---

1) أنظر هذه النكتة المرة فى هامش ص 241 ـ 242 من الجزء الاول من كتاب إنية وأصالة لصاحب هذه الكلمة .

2) أنظر : « مشروع السلام الدائم » لايمانويل كنط .

والمتزوج بفرنسية ثم بانجليزية ، والعارف بعدة لغات أجنبية . والمؤكد كل التأكيد على ضرورة اللحاق بأوروبا فى جميع الميادين الايجابية .

وكان فى صميم محاضراته عن ديكارت وكنط ينعى على كثير من زملائه ومن الشخصيات السياسية البارزة فى مصر والعالم العربى تقليدهم الاعمى لسلبيات الحضارة الحديثة ، وتعبيتهم الفكرية لأوروبا ، ويسميهم «الخواجات»، أى «المطورنيين» (أى المتجنسين) . كما نسميهم نحن ، ولكن المتجنسين بدون أن يكونوا قد تجنسوا فعلا على الورق ، وانما بسلوكهم . وعقليتهم ، وتصرفاتهم ، ومنطقهم ، وسحنتهم ، بل ومجرد وجودهم ... حيوانات تمشى على الارض ، « مشيا سبهللا » !

ونفس الروح تتخلل جميع محاضراته ، فى جامعة القاهرة ، أو فى ملتقيات الفكر الاسلامى فى الجزائر التى ظل يحضرها ويشارك فيها منذ الرابع سنة 1390 هـ (1970) حتى العاشر سنة 1396 هـ (1976 م) . وتسود سائر مؤلفاته العديدة روح الوعى ، ورغبة التوعية ، روح « الجوانية » ، كما كان يسميها ، ويدافع عن اسمها ، ويجهد نفسه فى التماس الاصول للفظها ، فى كتب اللغة وفى الحديث الشريف ، وان كان البعض يشك فى صحة ذلك الحديث الذى يرويه ويشتمل على لفظتى « الجوانى والبرانى » .

ونسيت ، سامحنى الله ، أن أضيف له سندا فى نظرى ذا قيمة ، وهو بقاء اللفظين فى اللغة المالطية الرسمية اليوم ... اذ يسمون وزارة الداخلية « وزارة الافاريات الجوانية » . ووزارة الخارجية « وزارة الافاريات البرانية » ... وهى بقية من بقايا الوجود الاسلامى الغابر فى الجزيرة ، التى لا تزال فيها حتى اليوم متنوعة غزيرة ، ولا تستطيع أن تزيلها اية ملكة ولا وزيرة !

وقد تعددت مؤلفات الفقيد ، كتعبير عن اهتماماته المتنوعة ، الدائرة كلها حول محور واحد : **هذه الجوانية التى يمكن أن تلخص فى الإنية ، او المطابقة التامة لجذور الأنا ، والمحافظة على جميع عناصر الذاتية ، والمتمسكة بسائر مكونات الشخصية ، مع الاستفادة ، بعد ذلك ، وبعد ذلك فقط ، مما يتلاءم مع تلك الإنية لدى الغير ، ومع التعبير عن ذلك كله من عميق النفس ومن وحي الذات الواعية ، « الجوانية » !**

وهذه الفكرة تقريبا هي التى حاولنا تلخيصها فى كلمة واحدة هي الأصالية، وسبق لنا تحديدها بالصيغة الآتية : « **أن يكون الانسان ابن عصره ، مع البقاء على اديم مصره ، ودون أن يصبح نسخة غيره** » · (1)

وانا لندين لأستاذنا الكبير باهتمامنا بمفهوم الإنية ، بمبناها ومعناها ، وهى الواردة فى الاشارات والتنبيهات لابى على بن سينا ، وقد كان أستاذنا رحمه الله ـ وهو الذى كتب ما كتب عن ديكارت وفلسفته ـ لا يفتأ يذكرنا بأن ديكارت لم يأخذ ذلك المبدأ الذى جعله محور فلسفته ، الكوجيتو : « أفكر فانا اذن موجود ! » · الا من إنية ابن سينا المذكورة ، التى شبه لها بذلك الانسان المعلق فى الهواء ، بين السماء والارض ، والذى يعتبر وجوده الجسمى معدوما ، ولم يبق له فى تلك اللحظات الحرجة من وجود الا شعوره بذاته · وهو ما يسميه ابن سينا بالإنية ، وما عبر عنه ديكارت بالكوجيتو !

وما دمنا قد ذكرنا عثمان والكوجيتو وأصله السينى ، فلنذكر القارىء الكريم هنا بعثمان آخر، الفقيد الآخر : عثمان الكعاك، الذى قال لنا من منصة الملتقى العاشر للفكر الاسلامى فى عنابة ، قبيل وفاته بيوم واحد، ان ديكارت أخذ فعلا فكرته عن ابن سينا ، ولقد قرأه ودرسه، اذ اطلع هو بنفسه ـ عثمان الكعاك ـ فى مكتبة العطارين بتونس ـ التى كان المحافظ لها ـ على تعليق بخط ديكارت على هامش ترجمة لاتينية للإشارات والتنبيهات يقول فيها الفيلسوف الفرنسى : « وهذا رأينا أيضا !» معززا رأي ابن سينا بعدة قرون بعد وفاته !

ولقد كنا اذ ذاك فى صميم حركتنا الوطنية ، المنادية بضرورة ابراز شخصيتنا ، والتذكير بأمجادنا ، وفصل ذاتيتنا عن « الوجود الفرنسى » ، وانكار « جزئيتنا التى لا تتجزء » من الوطن الام ··· فرنسا ـ ولم يقولوا لنا من الاب ؟ ـ ، ولذا اهتممنا طبعا كل الاهتمام بهذا الاساس الفلسفى لفكرة الوجود المستقل ، ـ بل هو وحده الوجود للامم والا فلا وجود ! ـ ، وتحمسنا لها تحمسا لا فلسفيا فحسب ، أو ـ ان شئنا استعمال لفظة عصرية لاكتها الالسن وخربشتها الاقلام ، أكثر من اللازم ـ كنا نستمد اذ ذاك من تلك الفلسفة « الملتزمة » بحق ، ولم يبرحنا من ذلك الوقت الاهتمام بهذه الفكرة ، وظللنا نشتغل بها ، ونركزها فى نفسنا ، حتى بعد استرجاع الاستقلال .

1) الجزء الثانى من « إنية وأصالة » تحت الطبع .

بل ونرى انها ضرورية لنا ـ ولكل من فى وضعنا ـ اليوم أكثر من أى وقت مضى ، ويظن البعض ـ خطأ ـ انه انقضى !

ويكفى أن نقول ان نشازا يستفحل اليوم ، تحت صور مختلفة ، وبتأثيرات متعددة، بفعل عوامل متنوعة ، وبدوافع متباينة · وكم نرى ونسمع اليوم من كل قدور وماريز ، من داكار الى باريز ! وكم من بومة ذات دميغة من المحيط الى الجدار تظن نفسها ماهرة، وتعتقد أن لها آراء باهرة ، وهى فى الواقع دمى لتأثيرات قاهرة ، ظلت ترعاها بعيون ساهرة ، مسرة ذلك أو به جاهرة ، صانعة منها « نجوما زاهرة » ، بعد أن كانت وضعتها فى بواتق صاهرة ، وأصبحت تبرزها اليوم بطرق ظاهرة ، بنوايا كالامس غير طاهرة، بل خبيثة لعينة عاهرة ، ولكل من يخالفها مكشرة ناهرة ، وعليه سلاح دعاياتها شاهرة !

انهم الخواجات ، كما كان يسميهم فقيدنا ، موضوع هذه الكلمة ، فقيدنا الدكتور عثمان أمين ! كان صديقنا المشترك الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، أمين عام مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، طلب منا فى السنة الماضية أن نكتب كلمة لكتاب خاص يصدر تكريما لاستاذنا الفقيد (العضو فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة) · وقد قصرنا ··· لا بروح تلك السبهللة ، التى كان يندد بها فقيدنا ، ولكن ـ كما أصبحنا نقول اليوم ، وليس بعذر ! ـ بسبب كثرة العمل ، والتزامات سابقة ···! ، وكم آسف اليوم على عدم خربشة هذه الحروف فى وقتها ، وان كانت ، على كل ، كلها اعترافا ببعض فضله على ما بقى من أمة الاسلام اليوم ، وعلينا شخصيا وبالذات !

فى النسخة التى أهدانا اياها من كتابه : « الجوانية » اثناء الملتقى الخامس للفكر الاسلامى فى وهران سنة 1391 (1971) ، كتب ، رحمه اللـه ، « الى فيلسوف الإنية والأصالة الـخ » ·

نظن اننا توضيحا لما كتب فى ذلك الاهداء ، وان كنا نعتز بذلك التشجيع ، وردا للحق الى نصابه ، واستجابة لطلب الدكتور مدكور ، ولو ··· بعد فوات الوقت ، قد أدينا بعض الواجب بخربشة هذه الصفحات فى حق فقيدنا ، فقيد الفكر الاسلامى ، فقيد الفكر العالمى ، فقيد الإنسانية ، أستاذنا الدكتور عثمان أمين ، رحمه الله !

أوراس محطـــم الاستعمـــار الرومانى(1)

احمـد توفيـق المـدنى
وزير مفوض

سادتى الفضلاء الجالة · ابنائى الاحرار الميامين :



ان أول كلمة ينشرح لها صدرى ، ويعبر عنها لسانى ، هى كلمة اجلال واحترام وتقدير ، لشهداء هـذا الصقع الغالى العزيز ، أوراس الاشم · اولئك الشهداء الكرام البررة ، الذين تعاقبت وتسلسلت مواكبـهم الرهيبة ، خلال آلاف السنين ، يدفعون للحـــرية الحمراء دماءهم الطاهرة النقية ؛ ويرصعون باجسادهم طريق الاستقلال الغـالى ، ويعبـــدون بارواحهم العلوية ، ارض الوطن المفـــدى ·

فطوبى لهم وحسن مآب ·

اننا لا نزال نرى آثارهم الطيبة فوق اديم الارض ؛ ولا نزال نشـــاهد آثار جهادهم العنيف بين أودية هذا البلد الخصبة ، وبين ثنايا جباله الشـــاهقة . إننا نكاد نشـــعر بارواحهم ، ونحن فى هذا الجمع الحافل ، وهى ترفرف حوالينا ، بين روح وريحان ، فى

1) محاضرة القاها بمدينة باتنة ·

سرابيل مطهرة من رضـــوان الله ، تنادينا الى خوض غمرات الجهاد الاكبر ، تدعونا الى القيام بجلائل الاعمال . لتعمير هذا الوطن الغالى العزيز ، الذى دفعوا ثمن حريته أرواحهم ودماءهم ، لقد طهروه من الارجاس الادناس · وابعدوا عنـــه والى الابد جماعة الخناس ، فلنجعله ، ونحن خلفاؤهم الابرار ، درة لامعة فى أعين كل الناس ·

ثم كلمة ثانية ،اتوجه بها من قلب مؤمن سليم ، لهذه الهيأة البلدية الصـالحة ، التى اوليتموها ثقتكم . وهم لها أهل ، والتى وضعتم على عاقتها امانة القيـــام بكل ما يحقق السعادة والرفاهية والعزة . لهذه الناحية التى شهد التاريخ الحق ، انها كانت ومنذ اقدم العصور ، تضحى فى سبيل السعادة ، وتبذل الجهود الغالية فى سبيل العزة والكرامة · فلبلديتكم الفاضلة ، ايها الأعزة الأكرمون تحياتى المخلصة مس اجل ما حققته من أعمال ؛ وخاصة من أجل اقامتها هذا المهرجان الثقافى الحافل ، الذى غمرنى بالسعـادة ، ومكننى من مواجهة هذه الوجوه المجاهدة النيرة ؛ ومن الاندماج مع هذه القلوب الطاهرة النقية . وقد طال شوقى اليها ، ولم تنمح ولن تنمحى صورتها الوضاءة من فكرى ومن قلبى ومن كل مشاعرى ·

انكم تفتخرون ايها الامجاد . ونحن نفتخر بكم ، ومعكم ، بجهادكم العنيف ، القاسى ، الشديد ، أثناء حرب التحرير العارمة ، التى يحق للجزائر ان تفتخـــر بها على العالمين ، لكننى اسالكم : هل كان هذا هو جهادكم الاول ؟ وأجيب عنكم ، لا ! ما جهاد اوراس أثناء حرب التحرير وما ضحاياها الابطال الذين قدمتهم فداء الحرية والاستقلال الا حلقة من سلسلة نورانية سرمدية، تعاقبت فيها الاجيال تتلوا الاجيال، وتوالت فيها جحافل الفداء والتضحية يتلو بعضها بعضا ، منذ ما عرف التاريخ هذه الناحية من الوطن العزيز · ولنعم ما عرف . وانـىلأتساءل عن عظمة جبالكم الشاهقة الرفيعة ؛ ألم تكن عظمتها نتيجة من ضمتهم بين ثناياها من شهداء الحرية والاستقلال والكرامة . منذ نحو الالفى سنة ؟

لقد اخترت لحديثى معكم الساعة ؛ موضوع تقويضـكم لذلك الاســـتعمار الرومانى الشرس ، ومشاركتكم الفعالة فى انقاذ كامل الوطن من ذلك الداء الوبيل الذى حكم على الشعب بالمهانة والمذلة ، وحكم على الوطن بالرضوخ والاستسلام ، الى ان صاح صايحكم

من قمة اوراس : كلا ! لن نموت ، لن نضمحل ـ لن نستسلم ـ لاعــدائنا الموت • ولنا طول البقاء ، ولوطننا الخلود ما دامت الدنيا •

هذه صرخة احراركم ورجالكم وأبطالكم ، منذ ما يزيد عن الالف والثمانمائة سنة • وانه لحديث عجب ، سأحاول اختصاره ضمن ساعة • واســأل الله ان يوفقنى فى هذا الاختصـــار •

كان الوطن حرا مستقلا ؛ وكان أهل البلاد عاملون دائبون ، قبل ثلاثة آلاف سنة من التاريخ ؛ عندما جاء رجال ونساء من بنى عمومتكم من الشرق العـربى ، هم بنو كنعان ، الذين يدعوهم اليونانيون بالفنيقيين ، جاءوا يؤسسون لانفسهم ، ولانفس أهل البلاد ، مراكز تجارية مسالمة ، لم تكن مراكز حرب ولا تدمير ، بل كانت مراكز حضارة ومدنية ، ومقايضات تجارية تنفع الجانبين معا • هكذا وجدت : عتيقة ، وجيجل ، وبجاية ، وتنس وغيرها • واختلط الشعبان وتعارفا وتآلفا • كان ذلك منذ ثلاثة آلاف عام •

وفى سنة 480 قبل المسيح • أسس الفنيقيون بنو كنعان مدينة « قرطة حدثت » أى القرية الحديثة ، وهي التى عرفها التاريخ باســم قرطاجنة • ونمـت وانتشرت ، وعظم سلطانها بعد حين ، فكانت دولتها تشمل كامل البلاد التونسية اليوم ، والجزء الشمالى الغربى من طرابلس الغرب • اما كامـل بلاد المغرب العـــربى ، فقـــد كان تحت النفوذ القرطاجنى ، مدنية ، وتجارة ، وعمرانا • انما لم يكن احتلالا ، ولم يكن استعمارا • وكان أهل المغرب الكبير كافة ، احرارا فى بلادهم ، مالكين زمام أرضهم ، لا ينافسهم فيها طيلة تلك الفترة الصالحة منافس •

لكن • وأى صفاء لا ينكده الدهر •

فهنالك ، على الضفة الاخرى من البحر المتوسط ، نشـــأت دولة أخرى ، هى دولة روما • واتسعت رقعتها حربيا وسياسيا الى ان شملت كل ايطاليا ، ووجهت أعين الطمع والجشع الى جزيرة صقلية الكنعانية ، فحدثت هنالك المصادمات الاولى بين الدولتين ، وبين الحضارتين ، وبين النظامين : بين روما وقرطاجنة ، بين حضارة التجـارة والتبادل الحر ، وحضارة السلاح والقوة والجبروت • بين نظام حرية الشعوب ، ونظام الاستعمار واستعباد الشعوب •

دامت تلك الحرب ، بصورة شرسة بشعة ، فوق أديم الارض وفوق عباب البحر ، قرنا كاملا ، من سنة 264 الى سنة 146 قبل ولادة السيد المسيح عليه السلام ٠ وهى التى تعرف فى التاريخ باسم الحروب البونيقية ٠

لقد سجل رجال قرطاجنة وأبطالها ، خلال تلك الحروب المنهكة صحائف فخار لا تستطيع محوها الايام ٠ ناهيك بحملة (حنبعل » الشهير ، واتخاذه اسبانيا مركزا عاما لاعماله الحربية ضد روما ، ثم اقتحامه لجبال البيرينى الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا ؛ ثم اجتيازه الصعب لجبال الالب ، الرهيبة ، والانحدار منها على رومة ، فى موجة قاسية دافقة ، ودحرهم فى مدينة « كان » فكان انهيارهم عظيما وكانت خسارتهم فادحة : نحو الخمسين الفا من القتلى ، بينهم عدد عظيم من الاشراف ٠ وانهزم الجيش الرومانى لا يلوى على شىء ، الى ان احتمى بجدران المدينة الكبرى ، صائحا فى لوعة وارتياع : « حنبعل على الابواب » ٠

لكن حنبعل لم يستثمر هذا النصر العظيم ، الذى شارك فى احرازه عدد كبير من المتطوعين الافارقة ، اجدادكم ٠ ونزل الى جنوب ايطاليا ، كى يستريح جنده ، ويستعد ٠ لكن ذلك الجند قد انغمس الى الاعماق فى « ملذات كابو les delices de capou حيث كانت الخمرة الطيبة ، وحيث كان النساء الحسان ٠

فى تلك الاثناء ، جمع الرومانيون قوتهم ، وحزموا أمرهم ، وبدل ان يجابهوا حنبعل فى ايطاليا ، هاجموا جيشه فى اسبانيا فقضوا عليه ؛ثم تجرأ القائد الرومانى « شيبو الافريقى » على مهاجمة الدولة القرطاجنية فى عقر دارها ، فنزل ببلدة افليبية ، على نحو 100 كم ، من قرطاجنة ، ومعه 30 ألف من المقاتلين ٠

هنا تغيرت الوضعية بالنسبة للقرطاجنيين ، واكثر من ذلك ، بالنسبة لاهل مملكة نوميديا ، ومنها الاوراس ، التى لم تعرف حربا اجنبية قبل ذلك ، فاذا بها ترى نفسها تجاه المطامع الرومانية وجها لوجه ؛ وترى رجالها وملوكها يختلفون : هذا يؤيد قرطاجنة ، وذلك يؤيد روما ٠ وانقسم اجدادكم وكل أهل نوميديا : هذا يؤيد الملك سيفاكس حليف قرطاجنة ، وذلك يؤيد الملك ماسنيسا الذى كان من أكبر أنصار قرطاجنة ، وشارك

حنبعل فى حملة ايطاليا · ثم رأى ان قرطاجنة خاسرة ، فذهب الى شـــيبو وعرض عليه اعانته ، وكان معه على رأس رجاله عندما وقف على أبواب قرطاجنة ·

عاد لكي يجابه معركة «زاما» الشهيرة ، قرب مدينة الكاف ، وليخسر امام شبيو وامام وخسر نهائيا ما كسبه خلال 36 عاما ،

عاد لكى يجابه معركة « زلما » الشهيرة ، قرب مدينة الكاف ، وليخسر امام شبيو وامام ماسنيسا جنده وسلاحه ، سنة 202 وما تمكن من النجـاة الا بجهد جهيـــد · ورضيت قرطاجنة صلحا يائسا ، مزريا ، نزع عنها كل شيء ، ولم يبق بها الا الجســد البالى دون الروح ·

كانت النتيجة ـ أولا : زوال سلطان قرطاجنة ، وتقلص نفوذها ·

ثانيا : استقرار « ماسنيسا » ملكـــا على نوميديا ، ومنها بلد أوراس ، وعاصمتها « قرطة » تحت رعاية ونفوذ روما ·

ثالثا : امتداد النفوذ الرومانى العنيف شيئا فشيئا ، فى كامل بلاد المغرب الكبير ·

وما عتم الملك «ماسنيسا» حتى هاجم قرطاجنة ، واحتل القسم الاكبـر من بلادها · وكان يهاجم اعداءه وسنه 88 سنة ! ربما كان يفكر وهو يهاجم قرطاجنة ، فى توســـيع ملكه ، لكنه لم يخطر على باله ـ ساعتئذ ـ انه كان يحفر قبر المغرب الكبير ، وانـــه كان يهيىء استقرار قدم الرومان بالبـلاد ، ليمحقوا اســـتقلالها ، وليســـتعبدوا أهلها ، وليستعمروا شر الاستعمار ارضها ·

هكذا كانت النتيجة ، ويا للاسف ! لكن ، هل يصبر الاوراسيون الاحرار على هـــذه الحالة المزرية ؛ وهل تستكين بقيةأهل نوميديا المكافحون لهذا الاستعمار الذى أخذ يبدى مخالبه فى البلاد ؟

كلا ! لقد جاء دور يوغورطة العظيم ، يوغورطة المجاهد ، يوغورطا الزعيم العملاق ·

كان النفوذ الرومانى عظيما بالبلاد ، وكان يزداد قوة وانتشارا بعد خراب قرطاجنة ، وبعد استقرار روما الطاغية حاكمة بامرها ·

جاء يوغورطا النوميدى ، وكانت عزيمته الصلبة تساوى فى ضخامتها عظمة اوراس العظيم ، فابتدأ جهاده بتوحيد نوميديا كاملة ، واحتل قرطة عنـــوة ونصب بها قاعدة ملكه ، واخذ يوالى الجهود حتى وحد هذا القسم ، ومنه بلادكم أيها السادة ، وجعل منـه مملكة قوية ، رفيعة العماد ؛ ووقف عملاقا ، مخاصما لروما ، لا يأبه لسلطانها ، ولا يخاف عقابها ، بل اكتشف مفاتيـح سرها وهو الذهب ، فما بعثت رومة من رجـــال بحث عن اعماله ، الا وابتاع شرفها بذهب جزيل ، فترجع الى رومة شاكرة اعماله ، محبذة سلوكه ؛ بل انه وقف يوما امام مجلس رومة ، متهما ، وابتاع ذمة اغلب الاعضاء ، وكانت الرشوة داء رومة الفتاك ، فاذا بالمجلس يبرئه ، ويشكره ، ثم ينظـــر الى رومة وهو راجع لوطنه فيقول : آه ايتها المدينة المعرضة للبيع ، ليت لى من المال ما يكفى لشرائك ؟

واخذ سلطان روما يشتد الى ان أصبح غير مطاق ، مثله تماما مثـل الاســـــتعمار الفرنسى الفتاك الذى انحط علينا بكلاكله طيلة قرن وثلث قرن ، بل كان سلطان رومة من الناحية الاقتصادية افظع واقسى كما سترون الآن ، واخذت تلك الكلابة الرهيبة تطوق جسم البلاد بغل من حديد ، فاخذ يوغورطة العظيم ، ينظم البلاد فيحسن تنظيمها : يختط المدن ، وينشط الحركة الزراعية ، وينشىء طرق المواصلات ، وقد اسر فى نفسه ان ينقذ وطنه وان ينقذ قومه من تلك الســـــلطة الرومانية الرهيبة التى انحطت عليه كابوسا فظيعا ، فاخذ يجهز جيشا عظيما ، قويا من فتيان قومه البواسل الاشداء ، اجدادكم أيها الاحرار ، واستعد الشعب لليوم العظيم ، فما جاءت سنة 110 حتى ارسلت روما جيشــا قويا لمحاربته والقضاء عليه ، لكن رجال نوميديا البواسل الاشداء ، تصدوا لذلك الجيش الرومانى ، وامعنوا فى قتل رجاله ، والاستيلاء على ســلاحه ، وكسب يوغورطة وقومه الاحرار المعركة الاولى ، وباءوا بالنصر المبين .

لكن رومة الطاغية الجبارة لم تصـبر على تلك الاهانة التى اصـــابتها فى الصميم ، فصممت على القضاء نهائيا ، مهما كلفها الثمن ، على هذا الاســـتقلال البربرى الامازيغى الذى يريد ان يتخلص من سلطتها القاهرة . فجهزت جيشا عظيما ، ووضعت على رأسه القائد القاسى ميتيلوس ، فهاجم الاحـــرار اليوغورطيين من الجنـــوب ، من بلادكم أيها السادة ، وعلم انه اذا قطع اوراس عن يوغورطه ، فان أمره لا محالة الى زوال . واخـذ

الرومانيون يسلكون السياسة الفظيعة التى سلكها من بعدهم الغزاة الفرنسيون : قتل السكان ، اتلاف المدن والقرى ، احراق المزارع . وهكذا تقدم الطاغية ، ويوغورطة البطل يقاوم المقاومة العنيفة ، ويجهز الرجال البواسل ، يبعث بهم الى ميادين القتال . ويباشر الحرب التى حذقها اجدادكم ، ان لم يكونوا هم الذين اخترعوها . حـــرب الكمين ، التى كبدت الرومانيين الخسائر الفادحة العظيمة . لكن رومـة كانت قد اتخـــذت قرارها . وصممت على استعمار البلاد ، مهما كلفهـا ذلك ، فارســـلت على يوغورطا ، مـدى اربع سنوات (106 ـ 110) أغلب فرق جيشها، وأخذت تتبع خطى البطل العظيم الى أن تمكنت من احتلال كامل نوميديا ، بين شرقية وغربية . وآوى يوغورطة الى موريطانيــا (المغرب الاقصى) حيث صهره الملك بوكوس ؛ فأمنه غدرا ، ثم سلمه للرومانيين القساة ، الذين عرضوه على شعبهم ، وقد فقد عقله من هول الصدمة ، ثم ارجع الى سجنه . فمات فيــه جوعا وظمأ . وهكذا انتهت ، بين الحديد والنار ، والتضحية والاستشهاد ، مملكة نوميديا الابية . التى أعطت العالم يومئذ مثالا حيا للجهاد الفاضل فى سبيل الحرية والاستقلال والكرامــة .

أخذت روما تتعامل فى البلاد التى امتلكتها ، مع حثالات من العبيد الذين يدعونهم ملوكا ، وما كانوا فى الحقيقة الا خداما لركاب الاستعمار ، وأعوانا لرجال الســـلطة الطاغيـــة ، الى ان انقضى دور اولئك الملوك المائعـين ، فضمت رومة كامل البلاد اليها . واخذت تنفذ منهاجها الاستعمارى الرهيب .

لكن ، هل رضخ الاحرار حقا لرومة . وهل رضوا حكمها الاستعمارى المطلق ؟ كلا . ان أوراس الشاهقة العملاقة . تقول لكم كلا .

لقد قام حر من احرارها ، تاكفاريناس ، يوقد نار الثورة فى وجه الغاصبين ، وانضم له رجال اوراس وابطالها ، وجاءه الفتية الاحرار من كل ناحية . واشتعلت نار الثورة الموقدة فى أغلب جهات القطر . وبعد حرب سجال غير متكافئة اندحر الثائرون ابــاة الضيم سنة 22 ق.م . وخيم الظلام الاسود على الوطن وانتصب الاســـتعمار الرومانى القتال حاكما بأمره ، بعد ذلك ، الا أن الجهات الجبلية المنيعة ، كجهــة أوراس ، بقيت محافظة بعض الشيء على اصالتها وعلى الكثير من ارضها .

ثم اخذت جموع المستعمرين تفد على البلاد المفتوحة ليلا ونهارا ، كانوا يقدمون شبه حفاة وعراة ، كانوا يفدون جياعا على هذه الارض ، أرض الخير والبركة ، فيستاثرون ـ كخلفائهم الفرنسيين ـ بالارض الخصبة ، وحتى الارض الغير الخصبة ، يبعدون عنها أهلها ، تقتيلا او تشريدا ، ويكتسبون منها الثروة والغنى ، تحت امرة حكام من الرومان لا يراعون فى مواطن الا ولا ذمة ·

يقول عنهم المؤرخ م· اوغستان تيارى : « ان الظلم الذى لا يعرف له حد ، كان ينزل من هؤلاء الولاة على رؤوس القرويين ، فيصيبهم فى أموالهم وفى ابدانهم » ·

وكانت الثورات العنيفة تقوم احيانا ، انما كانت تخمد دائما فى بركة من الدماء ·

وهكذا ، أخذ المستعمرون الرومانيون ، يبتنون لانفسهم المدن الجميلة ، المنسقة احسن تنسيق (كتيمقاد ـ وجميلة ـ وغيرها) · وينشئون لانفسهم الملاعب الفخمة ، والمسارح الفارهة ، والحدائق الغناء ، ويعيشون عيش الرفاهية والبذخ الجارم · وابن البلد المسكين ، يرى ، ويسمع ، ويغتاظ ، انما هو كاظم غيضه ، ينتظر الفرج ، سواء كان قريبا او بعيدا ·

لقد كانت سياسة الاستعمار الرومانى اسوأ سياسة استعمارية عرفت مدى الزمن فى أى قطر من الاقطار · فالارض الزراعية فى كامل بلاد المغرب الكبير ، الخاضع لرومة ، كانت ملكا للرومانيين اغتصبوها من أهلها ، الذين كانوا منذ اقدم العصور قيمين عليها ، وجعلوها من أملاك الدولة 000 000 30 هكتار ! يملك الامبراطور الرومانى نصفها ، بينما يملك ستة أشخاص من كبار الرومانيين نصفها الآخر ، فكل من أراد من أهل البلاد مباشرة اعمال زراعة فى جهة ما ، كان عليه ان يتوجه لممثلى هؤلاء المالكين ، ليستاجر منهم قطعة الارض المطلوبة ، على ان يدفع بعد ذلك ضريبة الدولة ، العشر من محصوله

وكانت الدولة الرومانية تملك الى جانب كامل الاراضى الزراعية جميع المناجم والمعادن ، ومقاطع الحجر والرخام ، وغيرها ·

بهذه الطريقة ، أصبح البربر المازيغون الاحرار ، فى بلادهم وبلاد اجدادهم منذ فجر التاريخ ، عبيدا ، من نوع « السيرف » الشهير فى نظام الاقطاع الفرنسى والاوروبى ،

لا يستطيعون اطلاقا مغادرة الارض التى يعملون بها · وكان المستـــعمرون الرومانيون يبعثون سنويا الى ايطاليا مقدار مليون وثمانماية الف هكتو ليتر من الحبوب ، أى ثلث ما تستهلكه ايطاليا ، ترسل من المراسى الافريقية الى مراسى ايطاليا ، فوق اسطـــول خاص ، بنى لذلك الغرض ؛ هـــذا زيـادة عن كميات عظيمة من زيت الزيتون ، والعنب والتين ، وما الى ذلك من خضر ، وفواكه متنوعة ·

أيها الســـادة والابناء :

لقد وصل عدد المســـتعمرين الرومان بالمغرب الكبير ، الى ثلاثة ملايين من البشر ، انتشروا فى كل الربوع والاصقاع كالجراد المنتشر ، ملكوا كل الارض ؛ وســـكنوا كل المدن ، واستحوذوا على الحكم وعلى الادارة وعلى البلديات · والامازيغى مبعد عن كل ذلك بعدا يزداد يوما بعد يوم ، ويبشر بالويل الوبيل ·

فهل يعقل ان شـــعبا كاملا ، يمتد من حدود ليبيا ، ويصـــل الى ســـواحل المحيط الاطلسى ، يبقى طيلة قرون عدة ، بعيدا عن أرضه ، بعيدا عن خيرات بلاده ، بعيـدا عن حكم موطنه ، بعيدا عن مجتمع مستأثر بكل الخيرات ، لا يخالطه ولا يختلط فيه ؟ ابدا · هـــذا محـــال ·

لقد أكد لنا التاريخ ان البربر الامازيغيين ، قد بقوا كامل امد الاحتلال الرومانى ، محافظين كل المحافظة على لغتهم، على تقاليدهم، على ثقافتهم البونيقية القرطاجنية التى ما رأوا ثقافة سواها . واندمجت فى الامازيغية اندماجا تاما ، حتى قال المؤرخ الفرنسى الكبير ، بواسيار : انه لم يبق فى افكار أهل شمال افريقيا ، ولا فى عوائدهم ، ولا فى اخلاقهم ، ولا فى طرق حيـــاتهم ، أى تاثير قرطاجنى او رومانى ، انما لم يبق بها الا البربرى الصرف ·

جاء الدين المسيحى بلاد المغرب ، منجرا اليها من ايطاليا ؛ جاء دينا طاهـرا ، نقيا ، يحمل كلمة الله الحق الى الشعوب ، داعيا الى العدل والفضيلة ، مناديا باخوة البشر · اى انه جاء مناقضا على خط مستقيم سياسة الاستعمار الرومانى · فاعتنقه مؤمنا مخلصا، ضعاف القوم، وجماعة كثيرة من رجال البربر · وما كان جزاء المؤمنين منهم، الا التقتيل،

والتعذيب ؛ او تقديمهم رجالا ونساء وصبيانا الى الاسود الكاسرة ، الجائعة . فى موسم علنى يقام من أجل ذلك ، لتتخذ منهم الاسود طعاما شهيا ٠

وما زادهم التعذيب والتنكيل الا قوة فى الايمان ، وصلابة فى العقيدة ٠ وقد خال البربر انهم يستطيعون بواسطة هذا الدين القويم ان ينزعوا من اعناقهم اغلال التسلط الاستعمارى ، والخزى العنصرى المنصب عليهم ٠ لكن جاء الامبرطور الكبير قسطنطين ؛ فاعلن المسيحية دينا رسميا للدولة ، اعتنقه الامبراطور ورجاله ، وشعبه . ومستعمروه ، فيومئذ رأى البربر ان هذا الدين قد أصبح غلا جديدا يستعمله الظالمون لتأييد ظلمهم وتأييد سلطانهم ، فهربوا منه ، الا الاقل ، واعتبروه وسيلة من وسائل الظلم والارهاق ٠

انما ارتفع صوت الحق من اوراس سنة 265 ، كما ارتفع دائما من قبل ومن بعد ، واعلنت الثورة العارمة ضد الرومان حكاما ومستعمرين ؛ واستجابت جبال الجرجرة الابية لرجال الثورة الاحرار ؛ فالتقى الساعد بالساعد ، وتزعم الثورة العارمة الزعيم « اراديون » الكبير ٠ وهدد مركز السلطة فى قرطاجنة الرومانيين ٠ لكن الزعيم قتل ، والثورة اخفقت ، والاضطهاد قوي بعد ذلك وزاد ٠ انما هيهات لصوت الثورة ان يخبو وان يلين ٠ ان الثورة نار متاججة ، مقرها النفوس والصدور ، تبدو احيانا حامية مستعرة ، فاذا ما خبت حينا ، بقيت فى القلوب وفى الصدور ، نارا تحت الرماد ، الى ان تهب عليها من جديد رياح تحريرية ، فاذا بها نارا تلظى ، لا تبقى على الظالمين ولا تذر ٠ وتذكروا محاضرة الاستاذ الكبير عمار طالبى بالامس ٠

وجاء النذير سنة 311 ، وارتفع الصوت الرهيب ، صادرا من روح ومن قلب ومن ايمان **ابن اوراس** الشهم الابى ، المسيحى الصميم ، الراهب دونات العظيم . الذى وصل به ايمانه ووصلت به تقواه الى مرتبة بطريرك قرطاجنة ٠ وكان هو وسلفه دونات الاول قد اعتنقا من قبل مذهبا مسيحيا جديدا ، ظهر به الراهب « اريانوس » البربرى ؛ وهو الدين المسيحى الحق ، الطاهر ، الصادق ، الذى يقول : أولا ــ ان المسيح ليس ابنا لله ، وان قاعدة التثليث : الاب والابن والروح القدس ، انما هى ضد الحقيقة المسيحية ، وانها بدعة ومخادعة ٠ فالله واحد احد ٠ والمسيح عبده ورسوله ٠ ويقول ثانيا : انما هى بدعة

وضلالة ما نراه من عمل رجال الدين من بيع الغفران او منحه لمن طلبه من المخلوقات • بل ان الله الخالق هو الذى يغفر الذنوب ان شاء •

بهذه الفكرة السليمة ، المؤمنة الصادقة ، قام ابن اوراس العظيم دونات ، مبشرا ، وداعيا ، فكان فى بلادنا أول رجل اصلاح دينى ، مستقيم ، يدعو الى احياء السنة ، سنة المسيح رسول الله ، واماتة البدعة ، بدعة التثليث التى هى اشراك بالله ، ونقض لديانة المسيح •

يقول كبار المؤرخين ، ان دونات الاوراس ، ومن تبعه من المؤمنين ، لم يقتنع بهذه الفكرة دينيا فحسب ، انما هو قد اتخذها أيضا ، فكرة سياسية ، واقتصادية • يحاول بواسطتها تحطيم السلطان الرومانى العاتى من جهة ، ويريد بها ، من جهة أخرى ، القضاء على الاستعمار الرومانى الفظيع الذى رأيتم سادتى الجلة كيف كانت طريقته البشعة ، وكيف كان سلوكه الشنيع •

وهكذا ، شيئا فشيئا ، اخذت الدعاية الدينية التوحيدية تتطور شيئا فشيئا ، الى دعاية سياسية اقتصادية بحتة ، واخذ اولئك المؤمنون الموحدون ، ينقلبون من دعاة اصلاح دينى الى دعاة انقلاب سياسى ، ، واتخذوا من مدينة تيمقاد الاوراسية مركزا عاما لاعمالهم ، وألفوا عددا طائلا من العصابات الثائرة ، التى تسربت الى كل جهات البلاد ، ويدعوها التاريخ باسم عصابات « السركانسيليون » الذين اجدلهم تعريبا قرآنيا صحيحا هو « الجواسون » من قوله تعالى : « بعثنا عليكم عبادا لنا أولى باس شديد ، **فجاسوا** خلال الديار » اى تسربوا خلال الديار يقتلون أهلها •

اشتد ساعد هؤلاء الجواسين الاوراسيين رجال العصابات ، وانضمت لهم فصائل العبيد ، وجماعات الذين استعبدهم الاستعمار الرومانى فلم يترك لهم دارا ولا متاعا • ان اولئك المعذبين فى الارض ، الذين طال عذابهم واستمر التنكيل بهم قرونا ، قد اندفعوا من جبال اوراس ومما حواليها ، يعذبون الذين عذبوهم ، وينكلون بالذين نكلوا بهم • كانوا يقتلون دون شفقة ولا رحمة ، كل من صادفوه من المستعمرين الرومان ، كانوا يحرقون مزروعاتهم كانوا يحطمون منازلهم ، ويخربون قراهم ، ويدمرون لهم ما ألفوه من منازل الراحة والرفاهية • وهكذا استطاع الاوراسيون

الاحرار ، ومن انضم اليهم من الامازيغيين الناقمين على المستعمرين ، أن يضعوا أسس الثورة النهائية على الرومانيين ، وان يبعدوا عن ساحتهم أمر المستعمرين الذين اخـذوا يتركون البلاد جماعات اثر جماعات ، خوفا من القتل والتنكيل · فحرروا بذلك قسـما كبيرا من أرضهم الزراعية التى عادت اليهم ، ريثما يحررون الوطن كله من مسـتعمريه الغاصبين ·

لقد ارسلت روما فرقها القوية تنكل بالجواسين والدوناتيين تنكيلا شـنيعا ؛ لكن هيهـات للاستعمار الرومانى أن يعود بعـد ذلك سيرته الاولى ؛ فأخذ ينحسر عن داخل البلاد الى سواحلها ·

لكن ثورة البربرى العصامى ، فيرموس ، سنة 372 ، اعادت الى الحـركة الدوناتية شبابها ؛ واعادت تنظيم كتائب الجواسين ، فانهالوا على الفرق الرومانية تقتيلا وتنكيلا ، وتخريبا للمستعمرات الزراعية الغنية المزدهرة · ثم دخـل فيرموس على رأس كتائب الانتقام منتصرا الى مدينة قيصرية الرومانية « شرشال » وكانت احدى عواصمهم الكبرى ، فخربها ، ودمرها حتى اصبحت رمادا ، ثم لوى عنانه نحو مدينة ايكسـيوم « الجزائر » فدخلها ظافرا منصورا على رأس جموعه الناقمة الثائرة ، وهنالك اسند له جيشه لقب « ملك » واستمرت حروبه ظافرة تارة ومدحورة تارة أخـرى ، مارا بسطيـف ، وأخيرا بسور الغـزلان ، حيث احاط به الجيش الرومانى ، وخشى الوقوع بين براثنهم ، فخنق نفسه بحبل ·

الا ان الثورة التى ابتدات ، واستمرت ، وقوى ساعدها ، وقضت القضاء المبرم على أهـم مستعمرات الرومان ، واحرقت ثروتهم ، وقوضت اركان ملكهم ، لم تنقرض بل استفحل بعـد ذلك أمرها · وويل للظالم من يد المظلوم اذا ما هى انطلقـت وامسكت بالخناق · وتالق نجم بربرى جديد فى سماء الحرية ، هو الثـائر جيلدون ، الذى تعاون حينا من الدهر مع الرومانيين ، لكنه بقى بربريا صميما ، فما كاد يمسك بين يديه بزمام السلطة الرومانية ، حتى جمع حوله من جديد كتائب الدوناتيين ، وجماعات الجواسين ،

واعلن سنة 397 ولاول مرة منذ مآت السنين ، استقلال بلاد الشمال الافريقى عن روما ؛ واعلن نهاية استعمار الرومان : وحجز فى الموانىء الجزائرية كل السفن التى كانت تحمل الى روما حبوب المغرب الكبير ٠

هكذا انقطع الحبل ، هكذا تم الانفصال ، هكذا انتقم المظلوم من الظالم ، انتقم العبد من السيد ؛ انتقم الاجير من المستعمر الشرير ٠

نعم ، ان جيلدون قد مات منتحرا ، كما انتحر قبله فيرموس ، لكن حركة الدوناتيين ورفيقتها فى الكفاح حركة الجواسين ، قد كبرت ، وعظمت ، وذاع انتشارها ، حتى عمت كامل الشمال الافريقى ٠ واختل النظام فى اقسام البلاد التى بقيت صوريا فى ايدى الرومانيين ٠ ولم يكتف المستعمرون الرومانيون بالانسحاب الى سواحل البلاد ؛ بل اخذت جموعهم تغادر البلاد بلا رجعة الى روما ، كما فعل خلفاؤهم من بعد ، سنة 1962 ، اثر ثورة خلفاء الدوناتيين والجواسين،والاولون اباؤكم واجدادكم ، والاخيرون ابناؤكم وأحفادكم ٠

كانت تلك هى نهاية الاستعمار الرومانى ؛ وما بقى بعدها الا فترة احتضار مريرة ، سادتها الفوضى والاضطراب ، واسترجع البربر الامازيغ خلالها ارضهم وترابهم ، فرجع الحق الى أهله بعد غياب طويل ٠

عينت روما ، وهى واهية ضعيفة ، منهوكة القوى ، واليها الاخير على ما بقى بايديها من بلاد المغرب الكبير ، هو الكونت بونيفاس ، وكان قد تزوج باسبانيا احدى أميرات الوندال ، الاندلسيين ؛ وفى نفس السنة التى اعلن فيها الامبراطور تيودور قسمة البلاد الرومانية الى قسمين : قسم شرقى عاصمته القسطنطينية (استامبول اليوم) وقسم غربى عاصمته رومة ، اي سنة 395 ، كان أمر الحكم الرومانى بالبلاد الافريقية قد انتهى أمره ، وأصبح كخيال الظل ، ليس وراءه أى شىء

فالكونت بونيفاس ، آخر ولاة الرومان ، ولم يكن بيده شيء كثير من حكم البلاد ، علم ان عدوه فى روما ، القائد ايتوس ، يغرى عليه الوصية على العرش ، « بلا سيدية » فارسل الى بلاد الاندلس ، يطلب الى الملك جنصريق (عبد الرمح) ملك الوندال القدوم

الى المغرب الكبير ، ويزين له الاستقرار فيه ، ويعده بعونه وعون أهل البلاد له . فراقت الفكرة للملك جنصريق الذى كان متخوفا من تالب الاعداء عليه ببلاد اسـبانيا فجمع جموعه ، رجالا ونساء واطفالا . وجمع ذخائره وسلاحه وأمواله ؛ وامتطى البحـر الى الساحل الافريقي المقابل ، دون أن يلقى أى مقاومة ، فالرومانيون لم يبق لهم فى الحقيقة وجود بالبلاد ، والبربر لم يقاومـوا ، لانهم رأوا في القادمين الجدد ، معينا على القضـاء النهائى على بقايا دولة الرومان . وهكذا انتهت سنة 429 ، وبصفة ابدية ، سلطة روما واستعمارها ، وكانها لم تكن ، بعد ان مكثت فى ربوع البلاد ، متسلطة ، ظالمة ، عاتية ، سالكة اسوأ سياسة استعمارية ، مدة 576 سنة . أى نحوا من ستة قرون .

وهكذا تكون بلادكم أيها السادة والابناء ، هى التى نفخت فى صور الجهاد العظيم ، ضد الاستغلال والاستبداد والاستعمار الخبيث ، وهى التى قضت عليه ، بالروح الوطنية أولا وبفكرة الاصلاح الدينى الدوناتى ، ثانيا ؛ وبتجهيز كتائب الجواسـين التى عظمت من بعد وانتشرت ثانيا .

وانى لأغتنم هذه الفرصة التى اتيحت لى ، لكى أطلب الى بلديتكم الشعبية الصالحة ، وبكل الحاح ، انتطلق بسرعة على ساحة من ساحاتكم العمومية ، او على جادة كبرى من جادات مدينتكم العامرة ، اسم البطل « دونات » الذى جاهد الجهاد الاكبر فى سبيل توحيد الله ، وتطهير المسيحية من ادران « التثليث » ثم جاهد الجهاد الموفق ، هو وخلفاؤه من بعده ، فى سبيل الاستقلال الوطنى ، ونسف الاستعمار الرومانى ، وانكم لفاعلون ذلك بحول الله وقوته .

واننا اذا ما خـرجنا من العرض الى التحليل ، وجـدنا ان هذه الثورة العارمة التى طهرت البلاد من الاحتلال الرومانى الرهيب ، كانت معتمدة على ثلاثة أسس متينة ، جمعت فى آن واحد : صلابة العقيدة الدينية الاصلاحية ـ ومتانة الروح الوطنية التواقة دائما الى الاستقلال والتخلص من الاجنبى ، والرغبة الجامحة فى التخلص من المستعمر واستعادة الارض .

اذا جمعنا هذه الثلاثة ، فهمنا روح الثورة ؛ وعلمنا كيف انتهى أمرها بالانتصـار المبيـن .

اننا نقول ختاما لهذه المحاضرة ، ان الاحتلال الرومانى الطويل ، ما كان الا احتلالا عسكريا ، ونظاما استعماريا بشعا ، مر على البلاد كسحابة سوداء عابرة ، وان مكثت قرونا ، ولم يكن من هم للبربر خلاله ، كما يقول الاساتذة : مرسيى ، وديث ، وفورنيل ، الا خلع نير الرومان والتخلص منهم .

يقول الاستاذ شارفيات : ان روما لم تترك بهذه البلاد الا الخرايب ليس الا . ولو ان سلطانها كان وطيدا ، لتركت شيئا غير ذلك . »

لقد كان احتلال رومة ماديا بحتا . ولم تتسرب منه لاهل الوطن المساكين ، اية فائدة أدبية ، أما اسباب هذا الاخفاق العظيم ، بعد وجود دام نحو الستة قرون ، فترجع فى نظرى لثلاثة أسباب :

أولها ـ محافظة البربر الامازيغ ، وخاصة أهل اوراس واهل الجرجرة ، على لغتهم ، وعوائدهم ، واخلاقهم ، وعلى كل فضائلهم القومية . لقد عاش البربر على هامش الاحتلال الرومانى ، ولم يندمجوا فيه اطلاقا . الا افرادا قلائل .

وثانيها ـ ان رومة ما كان يهمها من حكم البلاد ، كما قال الاستاذ بواسيار ، الا الاستيلاء ، والتوسع المادى ، واقامة المستعمرين ، والافادة من نتائج البلد الزراعية .

وثالثها ، وهو الاهم ـ سوء سياسة روما مع البربر وسلوكها سياسة استعمارية فظيعة ، منافية لكل عدل وانصاف ناهيك انها اغتصبت من البربر الامازيغيين كامل الارض الزراعية ؛ فلم يكن ابن البلاد قادرا على استثمار قطعة من أرض آبائه واجداده ، الا اذا ما هو استاجرها من مغتصبيها الرومان .

والذى يدلك على عدم وجود أى تاثير للرومان بهذه البلاد ، وقد استعمروها قرابة الستمائة سنة ، هو زوال كل أثر لهم ـ ما عدا الخرائب ـ فلو وجد هنالك بعض التآم وبعض التحام بين الرومان والبربر ، لبقى لذلك بعض اثر فى حياة هؤلاء . فزوال كل اثر للرومان بهذه الارض المغربية ، بمثل هذه السرعة الغريبة ، انما هو ، كما يقول الاستاذ بيرونيت : « حادث تاريخى خارق للعادة » .

ولنختم حديثنا بشهادة قاطعة نأخذها عن الاستاذ الكبير البحاثة بوأسبار . يقول :

« انما الأمر الخارق للعادة ، هو ان البربر أثناء كل هذه التطورات ، قد حافظوا على الروح القومية • فان هذا الشعب البربرى الذى ظهر لنا سريع التغير ، سريع التطور مع المدنيات التي تعيش معه ، انما هو من الشعوب التى استطاعت ان تحافظ احسن احتفاظ ، بطباعها الاولى ، ومميزاتها الخاصة • واننا لنراه اليوم ، على نفس الطريقة التى رآه عليها الكتاب الاقدمون • وانه ليعيش اليوم ، كما كان يعيش تقريبا أيام يوغورطة ، ولا نقول انه قد احتفظ فقط على كيانه وسط الاقوام التى عاشت معه ، بل انه قد ابتلعها واسدل عليها رداءه » • انتهى •

هذا صحيح جدا بالنسبة لكل احتلال جرى لهذه البلاد ، قبل بزوغ الهدى المحمدى ، الالاهى ، الذى جاء البلاد مع الفاتحين العرب الميامين ، مبشرا بقول الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون • » منفذا لقول الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه « الناس كاسنان المشط ، لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب » • هكذا فتح الله صدورنا وقلوبنا للاسلام الطاهر النقى ، وهكذا أصبح البربر والعرب ، وكل شعب اعتنق الاسلام دينا ، اخوة اشقاء متضامنين فى السراء والضراء ، رفعنا راية الاسلام • وجاهدنا فى سبيل الاسلام ؛ وعاش رجالنا ، ومات شهداؤنا وهم يهتفون من صميم الفؤاد : ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله !

بهذا انتصرنا ، بهذا افلحنا ، بهذا فرضنا على التاريخ وجودنا • بهذه الكلمات النيرة ضربنا اول طلقة من بندقية يوم 1 نفامبر 1954 • وبهذه الكلمات النيرة ، ودعنا آخر طائفة من جموع المستعمرين الظالمين ، وحكامهم المتهوسين يوم 2 سبتامبر 1962 •

اننا لن نزال نصعد ؛ ولن نزال نسعد ، ولن نزال ندهش امم العالم بنهضتنا ، وثورتنا ، وأعمالنا ، ومنشآتنا ، ولن نزال فارضين وجودنا على التاريخ ، ما دمنا نصيح مخلصين ، بقلوب مؤمنة ، موحدة صامدة :

الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، الجزائر وطننا • فى سبيل ذلك نحيا ، وفداء ذلك نموت •

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون •

وشكرا لكم جزيلا • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خــلال القــرن الرابــع الميــلادى

د٠ محمد البشير شنيتى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجـزائر



يحتوى تاريخ المغرب القديم على فترات واضحة تظافرت حولها جهود الباحثين الاجانب فابرزت احداثها مختلفة عمقا وشمولية وتفسيرا بحسب اتجاهات الباحثين واجتهاداتهم ٠ كما يحتوى على فترات غامضة لا تزال التساؤلات والافتراضات حولها مطروحة (1) ٠

ومن بين المواضيع التى أسالت حبرا كثيرا قضية المسيحية فى افريقيا (بلاد المغرب) ، وما اعترض سبيلها من مصاعب فى هذه البلاد ، خاصة ما يتعلق منها بالصراع الدينى وانقسام المسيحية الى كنيستين : الدوناكية زعيمة المقاومة ورمز الاستقلالية ، والكاثوليكية زعيمة الاندماج والوحدة الدينية فى ظل الامبراطورية ٠

وقد تبوأت هذه القضية مركز الصدارة فى اهتمامات الباحثين ، سواء اللاهوتيون منهم أو اللائيكيون ، وحظيت بدراسات عديدة ساهمت فى اثراء مصادر تاريخ « المغرب النصرانى » مساهمة كبيرة · الا أن هذه الدراسات قد جنحت نحو اللاهوتية متاثرة بوجدانيات الدارسين (وهم مسيحيون بطبيعة الحال) (2) ، ومن ثم اغفلت العوامل التحتية المحركة لتلك الاحداث والكامنة وراء الحركة الانقسامية التى لزمت تاريخ المسيحية فى أفريقيا · كما جانب بعض الباحثين الموضوعية فحمل الانسان المغربى (البربرى) مسؤولية ذلك الصراع الدينى المرير ، على اعتبار أن ذلك يدخل ضمن طبيعة « البربرى » الميالة للانقسامية والتناحر المذهبى (3) ·

والواقع أن رسل المسيحية الاوائل فى افريقيا قد وجدوا استجابة فى أوساط الاهالى منذ أواسط القرن الثانى الميلادى ، بحيث اندفع الناس الى اعتناق المسيحية ، وصبروا للأذى الذى لحقهم من طرف الوثنيين ورجال السلطة بسببها · ولا يسعنا مجال هذه العجالة أن نلم بالملابسات التاريخية المتعلقة بالكيفية التى انتشرت بها المسيحية والأحداث التى صحبت ذلك ، والضحايا الذين سقطوا فداء مبادئها ، وهى جوانب نالت من الاهتمام والدراسة الشىء الكثير (4) · الا أن الذى يهمنا فى هذه الظاهرة هو تفسير العوامل التى دفعت باولئك المغاربة لاعتناق دين سماوى مجرد ، يدعو للوحدانية ونبذ المعبودات الوثنية التى الفها القوم منذ آلاف السنين ، خاصة وأن الذين بادروا للتنصر لم يكونوا من الطبقة المتنورة عقليا ، أو المتاثرة بالتيارات الفلسفية ، بل كانوا من الطبقة الاقل شانا فى مجتمع ذلك العصر ·

وفى تصورى أن تفسير هذه الظاهرة يساعدنا على فهم الاحداث اللاحقة المتمثلة فى الانقسام الدينى وعلاقته بالمقاومة السياسية وبالثورة الريفية التى لم تنل حظها من الدراسة الموضوعية (5) ·

لقد احتفظت الوثائق المتعلقة بانتشار المسيحية فى افريقيا (بلاد المغرب) بما يؤكد ان المعتنقين الاوائل للمسيحية كانوا من الاهالى الاكثر تضررا بنتائج التوسع الرومانى فى البلاد ، فضحايا عام 180 م كانوا من الفقراء المضطهدين ، كما أن « شهداء

Martyres سنة 203 ببلدة طبرية (Thurburbo) كان من بين خمستهم عبدان ورجلان فقيران وفتاة تدعى فيبيا بيربتوا (Vibia perpetua)

لقد وجدت الطبقة المحرومة فى المسيحية ملاذا للنفوس التى جرحتها الآلام وعصرها الشقاء وانهكها الاجحاف الاجتماعى والضيم الاستعمارى (7) · ومن ثم لم تنجح أعمال الاضطهاد فى وقف انتشار المسيحية ، بل زاد حماس الناقمين على الاوضاع فى الدفاع عنها ، وراح « البربر » كما يقول جوليان ، يقدمون الضحايا للمضطهدين (8) (بكسر الهاء) ·

ولا يمكننا أن ندرك دوافع التنصر وعوامل المقاومة التى لبست ثوبا دينيا فيما بعد دون الالمام بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية. آنذاك · والتى ترتبت عن اشتداد حركة التوافد الاجنبى على المدن وامتداد الاستيطان الرومانى فى الارياف · وهى أوضاع كانت تشكل مناخا ملائما ساعد على انتشار المسيحية فى افريقيا بتلك الصورة العفوية المثيرة للانتباه ، كما كان يشكل أرضية مناسبة للثورة الريفية التى اندلعت عبر نوميديا مكتسحة مؤسسات الاستعمار ·

لقد ركز الاباطرة اهتمامهم فى تلك الفترة على توسيع مجال الاستيطان نحو الداخل وانتزاع الارض من أصحابها ، وازاحة القبائل الرعوية عن مضاربها كى تترك المجال للمعمرين الايطاليين ، فضلا عن اكتظاظ المدن الافريقية والنوميدية بالجاليات الاجنبية ، فنتج عن ذلك تفكك فى البنية الاقتصادية والاجتماعية للاهالى (9) ، وتزايد الكثافة البشرية فى المدن وفى الريف بصورة أوحت لأديب ذلك العصر ترتوليانوس (Tertulianus) بالقول : « يزداد استغلال العالم ، وتعظم ثروته يوما بعد يوم ، ففى كل مكان ديار ، وفى كل مكان سكان ، وفى كل مكان بلديات ، وفى كل مكان حياة · انه أبلغ دليل على تزايد الجنس البشرى اننا عالة على الدنيا ، فالعناصر الطبيعية لا تكاد تسد حاجتنا · لقد أصبحت الضرورات أشد الحاحا ، وأصبحت لا تسمع الا صيحة واحدة هى ان الطبيعة سوف تضيق بنا » (11) ·

لقد ألحقت تلك التحولات ضررا بالغا بالاهالى ، اذ عملت على امتصاص الانتاج الريفى ووضعه فى خدمة الجاليات الاجنبية بالبلاد ، أو تصريفه نحو روما · وبالتالى جندت

الانسان والارض لصالح جمهور المدينة المكون من الارستقراطية المحلية والجاليات الاجنبية المتزايدة ، كما أصبحت البلاد مطالبة بتزويد روما وأسواق الغلال المتوسطية بما تحتاجه من منتوج . فانجر عن ذلك تفاقم الشقاء الاجتماعي في أوساط الطبقة الدنيا من الناس ، وأشتد البؤس والحرمان ، وعسر العيش على جمهور الاهالي ، وهو بعض ما دفع بهم الى الارتماء في أحضان المســـيحية التي قدمت لهم حلا بديلا ، تمثل في التآخي في الله والتضامن الانساني والتآزر الاجتماعي . وقد متنت هذه الاسس الاخلاقية العملية ايمان الفرد ، وعززت أواصره بالآخرين ممن هم في مستواه . كما وجدت تلك الطبقة المحرومة في تعاليم المسيحية محتوى فكريا عبرت به عن موقفها من المؤسسة المدنية القائمة على القوة العسكرية والتمايز الاجتماعي . وقد خاطب ترتوليانوس في هذا المعنى مجتمع الوثنيين قائلا : « ان ما يؤاخي بيننا هو هذه الممتلكات التي تفرق فيكم الاخوة ، ان لنا قلب واحد وروح واحدة ، ولا نتردد في تقسيم الممتلكات بيننا ، فكل شيء مشترك بيننا ما عدا نسائنا » (12) .

وقد وجدت مثل هذه الافكار في نفوس المقهورين صداها العميق ، فكانت استجابتهم لها طواعية وعفوية . وغدت تلك الافكار سندا قويا للمتنصرين اتخذوها سلاحا لهم ضد الضيم الاجتماعي والغبن الاقتصادي والتســـلط الاســـتعماري ، فهي مقاومة صامتة وسلمية ، سلاحها قوة الروح ، وهدفها العدل والمســـاواة وتحطيم المقومات المعنوية للمجتمع الوثني الاناني .

ولنا في موقف السلطة والطبقة الارستقراطية من المتنصرين ما يعزز هذا التفسير . ذلك أنه رغم ما اتصفت به الدولة من تسامح ازاء الديانات الوثنية المتعايشـــة تحت لوائها ، فان موقفها من حركة التنصر كان مغايرا ، نظرا لما تنطوي عليه مبادئها من خطر على السلطة وعلى المفاهيم الاجتماعية الوثنية . فهي كدين مســـالمة طالبت معتنقيها بالامتناع عن العنف والتخلي عن الاسلحة لأنها تؤلم الآخرين . وهو ما دفع بالجنود الى رمي أسلحتهم في وجه قادتهم عندما تنصروا (13) .

وكان مبدأ المسالمة النصرانية يناقض مبدأ القوة والقسر الذي تقوم عليه السلطة ، كما كان مبدأ العدالة والمساواة مناقضا من الناحية الاجتماعية لمفهوم الطبقية الذي يقوم

عليه المجتمع الوثنى آنذاك • ومن ثم حاربت الدولة متضامنة مع الارستقراطية الوثنية حركة التنصر واضطهدت النصارى بعنف شديد • غير ان الدولة قد غيرت موقفها أمام صبر وجلد المتنصرين واتساع حركتهم فى أوساط جنودها ، وحاولت مصالحتهم وتظاهرت بالتسامح معهم قصد التخفيف من خطر الحركة على السلطة (14) •

الا أن المسيحية التى قدر لها ان تكون فى مناطق أخرى من العالم دين جميع الطبقات لم تسر فى بلاد المغرب على هـذا المفهوم • فقد أراد معتنقوها ان يحافظوا على محتواها الاجتماعى الخاص ، اى ان تبقى دين الطبقة المسحوقة ، ورمزا للمقاومة والنضال • لقد هادن المسيحيون فى جهات أخرى من كانوا يعذبونهم من رجال السلطة والاثرياء عندما تراجعوا عن غيهم وتنصروا ، فعفوا عنهم وتآخوا معهم • أما فى بلاد المغرب فقد بدا الموقف معاكسا • لقد تنصرت الامبراطورية ، وتبنت المسيحية دينا رسميا (15) • وتنصر وجهاء القوم من الطبقة الارستقراطية فى البلاد اقتداء برجال الدولة وبالامبراطور نفسه ، واغدقوا من أموالهم على الكنيسة وعلى فقراء النصارى ابتغاء مرضات رجال الدين وجلبا لقلوب الفقراء وتهدئة لخواطر الغاضبين (16) • غير أن تبنى الدولة للديانة المسيحية قد اعتبره الافارقة (والنوميديون منهم خاصة) ضربا من الهيمنة الروحية ، فرفضوها وقاوموها ، ومن هنا بدأ يبرز التصدع بين المسيحيين فى افريقيا ، ثم تفاقم حتى أصبح انشقاقا مزمنا لم يتم لأمه اطلاقا •

وكان المتمسكون بفكرة استقلالية الكنيسة (الدين) ، وهم الذين اشتهروا بالدوناتية يمثلون فى واقع الامر استمرارية للمقاومة اليقظة ، فرفضوا مبادرة الامبراطورية لأنها تشكل ابتلاعا لأقوى سلاح فى يد المقاومة ، وهو المبادىء المسيحية • واعتمد الدوناتيون على الطبقة الاجتماعية التحتية ، يستمدون طاقتهم منها ويستوحون اتجاههم ومواقفهم من مطامحها • بينما عكست الكنيسة الكاثوليكية الاتجاه الارستقراطى الفوقى ، واستمدت أفكارها من خلفاتها السياسية الموالية للدولة • وهكذا برزت الدوناتية كدين للفقراء المستغلين (17) ، فى حين عبرت الكاثوليكية عن التحالف المصلحى بين الطبقة الارستقراطية والسلطة الامبراطورية • ذلك التحالف الذى كان ممثلا سابقا فى الديانة الوثنية الرومانية وفى عبادة الامبراطور التى شهر بها المسيحيون نظرا لخطورتها على

الجمهور الجائع ، اذ كانت الاحتفالات بعيد الامبراطور مناسبة لكسب الفقراء بما كان يقدم لهم من فضلات الموائد ، فضلا عما كانت تتيحه للناس من ضروب التهتك والمجون (18) ·

لقد اعتاد المؤرخون على تجاوز هذه الجوانب من تاريخ حركة الانشقاق ، ودرجوا على ابراز العوامل الشخصية والتنظيمية باعتبارها كانت تكون حجر الزاوية فى قيام حركة الانشقاق وتطورها · فقد ركز بول مانصو (19) مثلا على الخلافات الشخصية التى حدثت بين أساقفة نوميديا وأساقفة قرطاجة والناتجة عن سوء التفاهم حول الترشح لمنصب أسقفية افريقيا ، كما أكد على فكرة سوء التنظيم فى سلم الوظائف الكنيسية ، وعلى قلة وعى الشمامسة بمهامهم الدينية ، الى غير ذلك من التبريرات التى تبدو لى مجانبة للواقع فى كثير من جوانبها · ذلك انه بالنظر الى تطور العلاقات بين المسيحية فى افريقيا والسلطة الامبراطورية ، فان هناك عوامل أخرى أعمق من هذه قد أغفلها المهتمون بهذا الموضوع ·

لقد كان اضطهاد الدولة للمسيحيين فى البداية يستهدف اجتثاث جذور المسيحية كدين يحمل فى طياته عوامل هدم للامبراطورية ، خاصة ما يتعلق بموقفها من حمل السلاح · ولما فشلت الامبراطورية فى القضاء على المسيحية بافريقيا (20) ، تراجعت ، وحاولت مهادنة المسيحيين شريطة أن يكف زعماؤهم عن دعوة الجنود للامتناع عن القتال · فظهرت بوادر السلم بين الطرفين ، وقلت حوادث تمرد الجنود عندما أباحت الكنيسة الاقتتال فى صورته العسكرية والوطنية ·

غير أن هذه الحالة لم تدم طويلا بسبب موقف بعض رجال الدين الاحرار الممثلين للرأى العام الرافض للتصالح مع السلطة والذين كانوا يرون فى تلك المهادنة ردة وتواطؤا ازاء مبادىء المسيح ، وبالتالى خيانة (للشهداء) أى ان المسيحيين فى أفريقيا قد اختلفوا فيما بينهم حول العلاقة بالسلطة الزمنية (الامبراطورية) قبل أن تحدث مشكلة الخلاف حول الأسقفية عام 303 م · وهو الحادث الذى اعتبره المؤرخون نقطة البدء فى الانشقاق وظهور الحركة الدوناتية (21) ·

والظاهر أن الاتجاه الرافض قد مارس تاثيره على الجنود ، وبالتالى قلل من مفعول الفتوى التى أصدرتها الكنيسة الرسمية فى قرطاجة بخصوص اباحة القتل فى صورته العسكرية · ولنا فى تراجع الامبراطور دقليانوس (Dioclitirnus) على سياسة التسامح دليل على كون الدولة لم تستفد من التصالح مع المسيحيين ، اى أنها شعرت بكون المسيحيين المناهضين للسلطة وللطبقية لا يزالون أقوياء ومؤثرين مما يستدعى العمل على التخلص منهم بالقوة (22) ·

وقد أراد الامبراطور قسطنطين (Constintinus) أن يحصل على ضمانات أشمل وأمتن من الكنيسة لصالح الدولة مقابل اعتناق الدولة لدين المسيح ممثلة فى شخصه · فاعلن عن تنصره عام 312 م · ثم دعا زعماء الكنائس بجميع أنحاء الامبراطورية الى الاجتماع فى مدينة آرل Arle سنة 314 (23) · من أجل التباحث فى ايجاد الصيغة النهائية لدمج الكنيسة فى الدولة ، وتجنيد مبادئها ورجالها لدعم السلطة ، وتمتين اللحمة بين الامبراطورية والشعوب الخاضعة ، كل ذلك ضمن وحدة الكنيسة والمذهب · وجاء فى تقارير ذلك المجلس بخصوص قضية فرار الجنود ما يلى : « ان كل جندى مسيحى يرمي بسلاحه يطرد من المسيحية » (24) ·

ويوضح لنا هذا البند مدى تراجع ممثلى المسيحية فى ذلك الاجتماع عن مبادئهم · مما دفع بالاتجاه المسيحى المقاوم الى المضى فى رفضه وعدم اعترافه بالتصالح · وكان النصارى النوميديون فى طليعة الذين أعلنوا رفضهم لتلك القرارات ، واعتبروها خيانة كبرى ، ولم يتأثروا باجماع مجلس آرل حول عودتهم (الدوناتيين) الى الكنيسة الرسمية وخضوعهم لاوامر مطرانها كايكيليانوس Caecilianus

ونتج عن رفض الدوناتيين لقرارات آرل أن قرر رجال السلطة الولائية بالاتفاق مع الكنيسة الرسمية بقرطاجة منع الدوناتيين من دخول الكنائس والاعتصام بها ، فهلك من الدوناتيين خلق كثير (26) ، وهو ما زاد فى تعميق جذور الخلافات ، وقوى من تمسك الدوناتيين بمواقفهم ازاء الكنيسة الرسمية ، واعتبروها كنيسة الكفار الشياطين وأن كنيستهم كنيسة الاطهار القديسين (l'Eglise des diables

(l'Eglise des Saintes) وأنه على من ينضم اليها من الكاثوليك أن يعاد تعميده وادخاله فى المسيحية من جديد (27) ٠

يتبين لنا من خلال هذا أن عوامل الانقسام ليست كلها نابعة عن كوامن شخصية ، أو خلفيات فكرية أو اجتهادات فقهية ، بقدر ما هى صادرة عن مواقف سياسية ، وتطلعات اجتماعية ضاغطة ٠ ونلمس مثل هذا بوضوح فى تاريخ تلك الحركة ومن الارضية البشرية لنشاطاتها ٠ لقد اعتمد الدوناتيون فى مجال نشاطهم الجماهيرى على فكرة الصراع الطبقى ٠ وكان من دواعى نجاحهم أنهم استمدوا طاقاتهم من الطبقة الاكثر تضررا بالنظام الاقتصادى والاجتماعى ، والمناهضة للاستعمار الرومانى ٠ وهو عكس ما فعلته الكنيسة الكاثوليكية الرسمية التى اعتمدت على السلطة وعلى الطبقة الثرية فى المجتمع ٠

وهكذا أصبح الخلاف الدينى صراعا اجتماعيا ، أسسه التمايز الاقتصادى والاجتماعى ، معبرا عما كان بين العبد والسيد من مفارقات ، وما بين الفلاحين الاجراء وأصحاب الضياع من متناقضات ، وما بين الثائرين على السلطة من الاهالى والامبراطورية من أحقاد وتطلعات ٠

وقد وجد هذا الصراع فى أوضاع البلاد خلال القرن الرابع ما ساعده على التفاقم ، واكتسابه تلك المضاعفات التى تبلورت فى صورة مقاومة عنيدة لا تكل ولا تني ٠

وكان لاعتماد الكاثوليك على عصا روما من أجل ارجاع الدوناتيين الى الكنيسة الرسمية أثره البالغ فى دفع الدوناتيين الى تنظيم المقاومة فى أوساط الاهالى النوميديين الذين كانوا مهيئين لذلك (28) ٠ وقد أصبحت النحلة الدوناتية دينا وطنيا يجمع حوله مختلف الفئات الشعبية الناقمة على الوضع (29) ٠

وكان من عنف المقاومة أن تحولت منطقة الاوراس الى صحراء بما أحدث فيها الجيش الرومانى من حرائق وتدمير وابادة للسكان انتقاما من المقاومين الذين اعتصموا بها (30) ٠

ونجد فيما حدث عام 347 م ٠ بمدينة باغاى تعبيرا جليا عن تحول الدوناتية الى ثورة بعد اتحادها بثورة الريفيين (الدوارين) (31) ٠ لقد اتخذت الثورة من باغاى مركزا

لقيادة المقاومة ، وحول دوناتوس كنيسة المدينة الى مخزن للمؤن والذخيرة ، وتم تحصين المدينة كي تستطيع الصمود فى وجه الحملة العسكرية الرومانية .

وجاء فى النصوص أن التضامن قد بلغ مداه الاقصى فى أوساط الاهالى بجميع نواحى نوميديا ، خاصة منها منطقة الاوراس . من ذلك أن سكان مدينة فجيزيلا Vegezila (تقع بين تبسة ومسكيانة) قد انتفضوا فى وجه الاسقف الكاثوليكى ماكاريوس Macarius الذى صحب الحملة العسكرية على باغاى . وعبروا عن غضبهم البالغ الشدة عندما أمر هذا الاسقف بجلد مبعوثى مجلس سيرتا Concile de Cirta الدوناتى على مرأى من الجمهور وذلك فى 29 جويلية 347 م (32) . مما اضطر الاسقف الى اطلاق سراح بعضهم وتظاهره بالعفو عنهم .

والظاهر ان تلك الحوادث قد سجلت بداية للتلاحم الثورى بين الحزب الدينى المنشق عن الكنيسة الرسمية وبين ثورة الريفيين (الدوارين) الذين أصبحوا يدعون بجنود المسيح (Milites christi) ، وأصبح رؤساؤهم أمثال فازير (Fazir) وأكسيدو Axido) يلقبون برؤساء القديسين (Sancorum Duces) وردد الجميع عبارة « لله الحمد Déo Loudes كشعار دينى للثورة ، وهى عبارة يبدو أن وقعها كان شديدا فى نفوس اعدائهم ، اذ وصفها أوغسطين بانها كانت اكثر رعبا من زئير الاسد (34) ، وانها عبارة عن بوق للمجازر . واصبح ضحايا العنف الرومانى يعدون شهداء قديسين فى نظر الدوناتية ، وهو ما يدل على شمولية النظرة الدوناتية وتبنى الحزب الدينى الدوناتى لمبادىء واهداف الثورة الريفية . وقد اعتبر بريصون (J. P. Brisson) ذلك دمجا للواعز الدينى بالواعز الاقتصادى فى الحركة الدوناتية (35) .

وقد وجدت الدوناتية فى ثورة الريفيين سندا طبيعيا ويدا طولى للنيل من خصومها ، بدليل أن اوغسطين كان يحمل الدوناتيين مسؤولية الاعمال الثورية التى يقوم بها الريفيون (الدوارون) فكان يردد مثلا « تذكروا الاعمال التخريبية التى كان يقوم بها (الدوارون) الذين كانوا دائما تحت قيادة شمامستكم » (36) .

ويبدو كذلك ان الثوار الريفيين قد فهموا مبادىء المسيحيه على أنها قوانين الهية تستهدف تحطيم الطغيان وازالة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية واحلال العدالة والمساواة بين البشر المتعايشين . وبالتالي تقويض البناء السياسي والاقتصادي الاجتماعي القائم على التمايز والتفرقة والاضطهاد والانانية .

ونجد في أعمال أولئك الثوار الريفيين ما يدعونا الى هذا التصور . فهم كانوا يجبرون الاسياد على تسريح العبيد ، وان امتنع بعضهم يهاجمونه في ضيعته أو في قصره بالمدينة ويأسرونه كي يعرضوه للسخرة في مراكز خاصة فيذيقوه الوان العبودية ومرارة السخرة التي كان يمارسها مع عبيده .

ويصفهم أوبطا (Optatus) الميلي - وكان عدوهم اللدود - بأنهم كانوا يعترضون عربات السادة فينزلون السيد ويجبرونه على السير حافي القدمين ، ويركبون بدله عبده (37) . ولعل مبالغتهم وتطرفهم في عدم الاعتراف بالانظمة القائمة قد أحرج بعض رجال الدوناتية فطالبهم بالكف عن العنف (38) . وهو ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأن (الدوارين) لم يكونوا يمثلون وجهة نظر الدوناتية في الصراع القائم آنذاك ، ومن ثم لم يلتزموا بالعمل ضمن اطارها ، وتجاوزوا ارادة الاساقفة الدوناتيين (39) .

لكننا نستطيع ان نفهم من تلك التجاوزات مبدأ التطرف الثوري الذي لا يقبل التعاطف* أو الحلول الجزئية .

ومن جهة أخرى ينم التركيب البشري المتنوع والمحتوى الفكري والسلوك الثوري العنيف لتلك الثورة (الدوارين) على أنها كانت تمثل احدى الثورات الشعبية الباكرة في التاريخ . فهي لم تكن ترتكز على خلفية اثنينية قبلية او على عرقية معينة او جهوية ضيقة ، كما أن نشاطها كان موجها ضد الفئة الارستقراطية الثرية المستحوذة على الثروة والمسيطرة على الانتاج الاقتصادي ، وضد النظام السياسي الذي كان يستمد نفوذه من ذلك التمايز الطبقي ، ومن التركيب الاقتصادي والاجتماعي المجحف ، فالقاسم المشترك بين الثوار تمثل في التجانس الاجتماعي وفي التقارب في الاوضاع الاقتصادية وفي الاحساس الجماعي بالقسر والهوان . ومن ثم فنموذج الثورة الريفية (الدوارين) بهذا

المفهوم يبدو فريدا من نوعه فى تاريخ المغرب القديم ، ان لم نقل انه من الثورات القليلة التى عرفها العالم القديم بصفة عامة .

وليس معنى هذا ان الدوناتية بمحتواها الروحى كانت تمثل غذاء عقائديا يساريا كما قد يتبادر الى الذهن . بل ان ثورة (الدوارين) قد سبقت وزامنت الحركة الدوناتية ولم تتحالف معها وتلتحم بها الا فى الاربعينات حسب المعلومات التى زودنا بها رجال الجدل الكاثوليكى المعاصرين لتلك الاحداث . وأما قبل ذلك فقد كانت ثورة الريفيين (الدوارين) حركة شعبية تجوب فرقها الارياف النوميدية مخلفة الرعب والفزع فى اوساط الارستقراطية وأصحاب الضياع ورجال السلطة على حد سواء .

وعلى الرغم من أن كتابات المجادلين الكاثوليك (وهى مصدرنا الاساسى حول تلك الاحداث) لم يهتم فيها أصحابها بتاريخ الثورة الريفية قبل اتحادها بالدوناتية ، الا ان هناك اشارات عديدة لاعمال عنف ثورية حدثت فى نوميديا قبل عام 347 م لم تكن اسبابها دينية أو قبلية ، فهى من أنشطة الثوار الريفيين قبل تلاحمهم بالدوناتية . هذا التلاحم الذى اعتبره رجال الجدل الكاثوليكى تحولا خطيرا فى الحركة الانشقاقية الدوناتية فقاوموه بأقلامهم وألسنتهم زيادة على أسلحة روما وجندها .

ويبدو انه يمكن النظر الى ذلك الاتحاد على أنه كان يمثل بداية لتعميم نشاط الثوار الريفيين ، فأصبح يشمل الكاثوليك بعد ما كان مقتصرا على أعدائهم من الارستقراطيين والسلطة الامبراطورية . فاخذ الكاثوليك يشعرون بالضرر الذى لحق جانبهم من طرف اولئك الثوار الاشداء فشهروا بهم وحملوا الدوناتيين مسؤولية أعمالهم الثورية العنيفة (40) .

والظاهر أن ثورة الريفيين كانت محتاجة الى من يساندها فى المدن ، والى تجنيد الرأى العام المثقف من المتدينين والغاضبين على السلطة وحلفائها ، من أجل تقوية الصف وتوسيع جبهة النشاط الثورى . كما أنها كانت فى حاجة الى قيادة كفاة وزعامة سياسية مناسبة ، جديرة بتحمل المهام والدفاع عن المبادىء . ولعل فى موقف الثوار الريفيين من ثورة الامير فيرموس Firmus ما يؤكد هذا الاحتمال . لقد انضوى الثوار

الريفيون مثل رجال الدين الدوناتيين تحت لواء فيرموس ، وعملوا فى صفوفه كقوة ثورية وراءها ماضى نضالى حافل بالتجارب الناجحة ، وكحزب دينى وطنى يستهدف الاستقلال عن السلطة الكنيسية الرسمية .

وكان لهذا الاندماج بين القوى الثورية الثلاثة ، أثر بالغ فى نجاح ثورة فيرموس وسيطرتها على الوضع فى البلاد . وبذلك التمازج عبر كل طرف عن رغبته فى العمل تحت زعامة سياسية وطنية توحد الجهود وتجند الامكانيات لتحقيق الهدف المشترك .

ويظهر أن فيرموس قد أحسن فى بداية الامر استغلال ذلك الشعور الثورى الفياض لدى كل من الدوناتيين والثوار الريفيين فحقق نجاحات على الصعيد الداخلى والخارجى ، فانضمت اليه جموع القبائل (42) ، وهلل لـه رجال الدين وجندوا لحسابه الكنائس الدوناتية تمجد أعماله وتدعو الجمهور للعمل معه ، وهو ما يفسر انتقام الامبراطور فالانتيان من الدوناتيين عقب هزيمة فيرموس (43) .

وفى تصورى ان هناك ظاهرة سلبية هامة صحبت ذلك التمازج الثورى وعجلت بافشاله ، وتكمن تلك الظاهرة فيما كان يوجد بين ثورة الريفيين كحركة شعبية تحتية وبين ثورة فيرموس القبلية المحتوى من متناقضات . لقد دخل الثوار الريفيون صفوف فيرموس كفئة اجتماعية متجانسة تسوى بينها ظروفها الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يدخلوا كقبائل أو مجموعات اثنينية تخضع لظاهرة التعصب القبلى ولعشوائية رؤسائها . وهذا ما جعل ثورة الريفيين متحدة مع الدوناتيين تأخذ قبل ذلك طابعا شعبيا ديمقراطيا يسعى لتحقيق الحرية والعدالة بمفهومها البسيط . ولكنها عندما اندمجت بثورة فيرموس وانحلت فيها تخلت تدريجيا عن طبيعتها كثورة قاعدية ، وتحولت الى الارتباط بالزعامة القبلية التى مثلها فيرموس ثم أخوه جيلدو من بعده ، ومن ثم تمكنت روما من اجهاضها بقضائها على ثورتى الاخوين لأنها كانت تحسن تأليب رؤساء القبائل على بعضهم ، وتتقن فن سياسة فرق تسد (44) . وهكذا كان فشل ثورة فيرموس ثم جيلدو ضربة موهنة اصابت الدوناتية والثورة الريفية (الدوارين) فقللت من نشاطهما ومكنت الخصم من السيطرة على الموقف من دونهما (45) .

الـــهوامش

1 ـ ان أهم القضايا التاريخية المطروحة للمناقشة تتعلق فى تقديرى بالتاريخ الوطنى ، كأصول الممالك الوطنية الباكرة ، واللغة الليبية ، وموقف الاهالى من الدول الاجنبية العابرة ، ومشاكل التكون التاريخى التى صاغ حولها الباحثون الفرنسيون نظريات غير موضوعية فى بعض جوانبها .

2 ـ أهم من درس الدوناتية متاثرا بالعاطفة الدينية : بول مانصو ، صاحب كتاب « التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية » :

Manceaux (Paul), Histoire litteraire de l'Afrique chritienne. 7 vol.

والأب ميناج ، صاحب كتاب « افريقيا المسيحية » ، وكتاب « رومنة افريقيا الشمالية »

Mesnage (J-P), l'Afrique chritienne —, la Romanisation de l'Afrique du nord.

وبريصون فى كتابه « الاستقلالية والمسيحية فى افريقيا » .

Brisson (J-P), autonomisme et christianisme en afrique.

وكذلك كريستيان كورتوا فى كتابه « الوندال وافريقيا »

Courtois (ch.), les Vandales et l'Afrique.

هذا فضلا عن مأت الكتب والابحاث والمقالات الدينية والتاريخية التى تحتويها سلسلة « الدراسات الاغسطية » .

3 ـ شاع بين الباحثين الفرنسيين المهتمين بتـــاريخ المغرب مفهوم مغرض حول نفســـية « البربرى » ، نجده عند أغلبـــهم ، من قـــزيل الى غوتى الى جوليـــان الى كورتوا الى بوسكى ... وكثيرا ما قارنوا « الدوناتية » بالاباضية فى الجزائر ، وهى مقارنة غير موضوعية فى كثير من جوانبها ، وليس بامكاننا مناقشتها هنا .

4 ـ انظر حول الموضوع : مانصو وبريصون وكورتوا وميناج فى الكتب الآنفة الذكر .

5 ـ نعنى بالثورة الريفية تلك الحركة التى اعتاد المؤرخون على تســـميتها بالدواريز (Ciscum cellas) أو (Circoncellions) ومعناها الذين يطوفون حـــول المزارع ومخازن الحبوب للاستيلاء على الغلال . وهو الوصف الذى احتفظت به نصوص أعداء تلك الحركة من المجادلين الكاثوليك أمثال أوبطا الميلى وأوغسطين .

6 ـ تم اعدامهم بواسطة رميهم بين مخالب الوحوش المفترسة بقرطاجة . وقد خلد ذكراهم ترتولياتوس (Tertulianus) فى قصة مؤثرة . أنظر ، جوليان (ش .أ. تاريخ افريقيا الشمالية ، ج 1 (ت. امزالى) ، ص 257 .

7 ـ عبد العزيز فهى : ملاحق مدونة جوستنيان ، ص 56 ، ط القاهرة ، 1951 ·

8 ـ جوليان : نفسه ، ص ، 255 ·

9 ـ شنيتى (م·ب) : التوسع الرومانى نحو الجنوب وأثاره الاقتصادية والاجتماعية ، الاصالة 41 ·

10 ـ هو سبتيميوس فلونس ترتوليانوس (Septimus Florens tertulianus) أفريقى الاصل « بربرى » · ولد بقرطاجة (155ـ160) ، ودرس بها علوم العصر وثقافته · اتقن اليونانية واللاتينية ، اذ كانت ثقافة ذلك الوقت مزدوجة اللغة ، وبرز فى الخطابة والجدل · اعتنق المسيحية فى ظروف مجهولة ، ودافع عنها بحماس شديد فى كتابه « الدفاع عن المسيحية » (Apologilum) · وكان يدعو الناس للتخلى عن مشاهدة الملاهى والالعاب الشائعة آنذاك ، ويحرضهم على الامتناع عن عبادة الامبراطور وعن حضور موائده · كما طالب الجنود المتنصرين بالتخلى عن أسلحتهم لأنها غير مجدية فى نظر المسيحية · توفى عام 240 م · أنظر ، المزيد عند مانصو ، ج I ، وكذلك جوليان ، ص 258ـ263 ·

11ـ جوليان ، ص 219

12ـ ترتوليانوس ، الدفاع (Apol. 39) ، عن مانصو ، نفس المصدر ، ص 20ـ21 ·

13ـ حول هذه الحوادث انظر : جوليان ، ص : 257 ، 259 ، 287 ، 288 ·

14ـ كان ذلك بعد الاباطرة السيفريين ، أى من عهد غاليوس الى عهد دقليانوس الذى نكل بالمسيحيين أشد التنكيل ·

15ـ تمثل ذلك فى اعلان الامبراطور قسطنطين عن تنصره وحمايته المسيحية عام 312 م ·

16ـ حاولت السلطة الامبراطورية احصاء الفقراء والاغداق عليهم بالصدقات ، لكن دوناتوس وقف فى وجه تلك الحملة مناديا اتباعه أن يرفضوا الصدقات من أيدى « الادناس الشياطين » · فلم تستفد الامبراطورية من سياسة (ملء البطون) ·

17ـ انظر : Manceaux (P.) — l'église donatiste, (R. H-H.') tome 64 (1911) pp. 21-58.

وكذلك : Brisson (J-P.) — aut. et chr., pp. 341-349.

18ـ ترك لنا ترتوليانوس وصفا جيدا لما كان يجرى فى تلك الاحتفالات ، اذ يقول : « حقا انه لتكريم عظيم هذا الذى توقد بمناسبته المواقد ، وتوضع موائد الطعام فى الساحات

العمومية ، وتقام أثناءه المآدب فى كل جهة من المدينة ، فتتحول الى ماخورة يختلط فيها الوحل بالخمر . وينطلق القوم جماعات الى طروب المجـــون والخلاعـــة والاعتداءات . (جوليان ، ص 263) .

ويثير فى أذهاننا هذا الوصف المقتضب تصورا للاهداف السياسية التى كان يتوخاها الاباطرة من وراء اقامة تلك الاحتفالات والمآدب العمومية . فالامبراطور اله نافع . يمنح السلم لعباده المطيعين كما يمنحهم الخبز والخمر والتهتك ، انه رب رازق وولى نعـــم القـــوم ...

19ـ اقر مانصو ذلك فى كتابه « التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية » وكرره فى مقاله الآنف الذكـــز .

20ـ قاوم المسيحيون عمليات الاضطهاد بالصبر والجلد ، وواصلوا ممارسة شـــعائرهم فى الاديرة الخفية ، وتزايد المتنصرون أيام الاضطهاد .

21ـ يوعز المؤرخون بداية القطيعة الى موقف مطران قرطاجة منصوريوس (Mansurius) الذى اظهر تخاذله تجاه السلطة المدنية ، فرماه أساقفة نوميـديا بالخيـــانة . وظل الصراع يزداد حدة الى عام 311 حيث امتنع اساقفة نوميديا عن انتخاب كايكيليانوس (Caecilinus) كخلف لمنصوريوس . وكان دوناتوس أقوى عنصر محرك لذلك الامتناع فنسبت الحركة اليه . انظر المزيد من التفاصيل فى كتاب مانصـــو الآنف الذكـــر ، ج 1 ، 5

22ـ أذاق دقليانوس المسيحيين أمر العذاب ، وفرض عبادته على الجميع ..

23ـ مهد الامبراطور قسطنطين لذلك بعـــدة اجتماعات منح فيها بعض الامتيازات المدنية لرجال الدين كي يستميلهم من أهم تلك الاجتماعات مجلس ميلانو عام 313 م .

24ـ مانصو : المصدر نفسه ، ج 5 ، ص 22 وما بعدها ، وكذلك الملحق ص 489 .

25ـ نفسه ، ص 24 ، 25 وما بعدها .

26ـ سن الامبراطور قسطنطين قانونا عام 316 يقضى بتوحيد كنيسة افريقيا ، وكلف كلاى ليونتيوس Leontius وارصاكيوس Ursacius المســـؤولين فى افريقيا بتطبيق ذلك القانون بالقوة ،فكانت مجازر رهيبة ، انظر المزيد عند مانصو . ج5 ، ص 26 وما بعدها .

27ـ انظـــر : Manceaux (p.) —l'église donatiste. R. H-R.), tome 64 (1911) pp. 21-58.

28ـ نفسه ، ص 23 وما بعدها ·

29ـ نفسه ، وكذلك :
Martroye (F.) — une tentative de revol. soc. (R.Q.H.) : tome 76. (1904). pp. 353-416.

30ـ مانصو : نفس المصدر ·

31ـ نقل مانصو عن اوبطا الميلى وصفا لأولئك الثوار فيه تحامل واضح ، جاء فيه :
«أنهم قوم لا مبادىء لهم ولا اتجـاه ، مغامرون من الاهالى ومن خلعاء القبائل ، والمعمرين المفلسين والعبيد الفارين ، كلهم يعمل للدفاع عن كنيسة المسيح ودوناتوس ضد الكاثوليك والشيطان ·· » ـ التاريخ الادبى لافريقيا المسيحية ـ ج 1 ، ص 27

32ـ نفس المصدر ، ص 37 ·

33ـ نفسه ، ص 43 ·

34ـ نفسه . ص 46 ·

35ـ بريصون : المصدر السابق ، 350 ، 351 · والملاحظ ان بريصون يرفض أن تكون ثورة الريفيين (الدوارين) مقاومة واعية ، بل يعتبرها عصـــابات من الجائعين المشردين ويصفهما « بحركة الشياطين الفقراء » ·

36ـ بريصون : نفس المصدر ، ص 347 ؛ مقال مانصو السالف الذكر ، ص 52 ·

37ـ بريصون : نفس المصدر ، ص 329 ، نقلا عن أوبطا الميلى ·

38ـ يظهر ذلك من خلال ما صرح به المدافعون الدوناتيون بمحكمة قرطاجة عام 409 · انظر بريصون ، ص 354 ، 355 ·

39ـ تذكر النصـــوص أن الدوناتيين قد أيدوا حملة الاخضــــاع التى شنها البرو قنصل طورينوس Tournus ضد الريفيين (الدوارين) عام 340 م · وأن أساقفة الدوناتية قد واسوا المعمرين المتضررين من جراء أعمال العنف التى قام بها الريفيين عام 310 م · انظر مقال مانصو السالف الذكر : ص 48 · لكن ينبغى أن نلاحظ أن تلك الاحداث قد سبقت زمن الاتحاد بين الدوناتية والثورة الريفية الذى يبدو أنه تم حـــوالى عام 347 م · ومن ثم فالثوار الريفيون لم يكونوا يستثنون أصحاب النحلة الدوناتية أو الكاثوليكية من نشاطهم الثورى قبل تلاحمهم بالدوناتيين ·

40ـ أشهر من عاصر عنف الثورة الريفية وشهر بها كثـــيرا أوبطا الميلى الذى ترك لنا أدبا زاخرا بأخبار زمانه وحوادث عصره ٠

41ـ هو الامير فيرموس ابن نبول Nebul ، كان مواليا للروماں ثم ثار ضـدهم فى ظروف غامضة ، يبدو أن للوضع الاقتصادى والسياسى فيها دخل كبير ، استمرت ثورته من عام 372 الى 375 ، كابد فيها الرومان متاعب شتى ٠ انظر حـــول هذه الثورة : اميانوس (Amianus) وكلود يانوس (Claudianus) وهما من كتـــاب العصر ، وكذلك عند : Cagna (R,), l'armée romaine d'afrique, tome 1. pp. 78-91.

42ـ انظر كاينا Cagna (R.) المصدر السابق ؛ وكذلك :
Gsell (St.), observations géographiques sur la revolte de Firmus (C.R.I.) 1903.

43ـ اصدر الامبراطور فالانتيانوس قرارا بتوحيد الكنيســـة الافريقية ، وبمنع ثنائية التعميد ، وأمر بمطاردة الدوناتيين ، فاضطروا للهجرة خارج البلاد ، انظر المزيد عند مانصو ، ج 5 ، ص 46 ، 48 ٠

44ـ تمكن الرومان من تحطيم شوكة فيرموس باثارة أخيه جيلدو ضـــده ، وكذلك بعض رؤساء القبائل الذين كانوا يساندونه فتخلوا عنه ٠ كما قضى الرومان فيما بعد (عام 398 م) على جيلدو بنفس الطريقة والاسلوب ، حيث حرضـــوا عليه أخاه مفزيزل Maczezel انظر المزيد عند كلوديانوس ، حرب جيلدو :
Claudianus, bell. gildinico, pp. 217-257.

45ـ كان للمجادل الكاثوليكى الكبير أوغسطين دور معنوى هام فى التقليل من أهمية النحلة الدوناتية لدى الرأى العام المسيحى فى بلاد المغرب ، وخاصة فى المدن البروقنصلية ، كما نجح فى اقناع الســـلطة الامبراطورية بمحاكمـــة الدوناتيين والثوار الريفيين ومصادرة أملاكهم ومعاقبتهم ٠ فتم ذلك فيما بين عامى 409 و 412 بقرطاجة ٠

التطـــور المـــذهبى بناحيـــة أوراس فى العصر الـــوسيـــط

د· عبد الحميد حاجيات
معهـد العلوم الاجتماعية
ـ جامعـــة الجـزائر ـ



كانت ناحية أوراس فى العصر القديم معقلا من معاقل المقاومة البربرية ضد هجمات الغزاة المستعمرين، من رومان ووندال وبيزنطيين · وكانت جبالها امنـع معتصم لقبائل البتر التى كانت تقطن ارجاءها ، وتعيش فيها حياة البدو الرحل · ولم تتمكن مختلف الموجات الاستعمارية ، التى تعرض لها المغرب قبل الاسلام ، من إخضاع منطقة أوراس ، فراحت تشيد الحصـــون والقواعد العسكرية بجوارها، مثل طبنة وباغاية وبلزمة، لايقاف غارات قبائلها ، ومواجهة خطرها ·

غير ان حصانة جبال أوراس ومنعتها لم تمنعا سكان المنطقة من التاثر بمختلـــف التيارات الفكرية ، وخصوصا الدينية ، التى تعرض لها المغرب ؛ وكانت تشمل عناصر مختلفة تنتمى الى شتى الديانات ، منها عناصر محلية قديمة راجعة الى الوثنية ، (1)

(1) راجع ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 212

وأخرى فينيقية ، بجانب اليهودية والنصرانية . واذا كانت الديانة اليهودية تحتل مكانة خاصة فى ناحية أوراس ، (2) فلاشك أن معتقدات السكان كانت تحمل رواسب تعود الى مختلف التيارات القديمة الاخرى ، التى يصعب عليهم التخلى عنها .

وكانت النصرانية منتشرة بين الروم والافارقة وبعض من وقع تحت نفوذهم من البربر ، (3) وكانت بلاد افريقية كلها قد شهدت صراعا دينيا عنيفا بين أنصار المذهب الكاثوليكي وأنصار المذهب الدوناتى ، ادى الى نشوب حرب طاحنة بين الفريقين ، ذهب ضحيتها العديد من الاهالى ، ويبدو أن هذا الصراع كانت له خلفيات سياسية واقتصادية ، اذ أن الدوناتيين كانوا ، بصورة عامة ، ينتمون الى الطبقة المحرومة من الاهالى البدو ، التى سئمت من حكم الاجانب وحلفائهم الافارقة .

انتشـــار الاســلام فى ناحيــة اوراس

أما الفتح العربى فلم يمس منطقة أوراس قبل ولاية أبى المهاجر دينار ، وكانت جبال أوراس والهضاب المجاورة لها تأوى قبائل بربرية اشتهرت بقوتها ومنعتها . فكانت قبيلة أوربة تقطن الناحية الغربية منها ، ورئيسها كسيلة بن لمزم . أما الناحية الشرقية منها ، فكانت تقطنها قبائل أخرى ، منها جراوة ، وهم من زناتة ، وكانت ترأسها امرأة تدعى الكاهنة . وكانت هذه القبيلة على ديانة اليهودية . ومنها أيضا ، ورفجومة ، وهم بطن من قبيلة نفزاوة .

ومن الطبيعى أن تشكل هذه القبائل أشد العناصر المحلية مقاومة للفتح العربى فى بلاد افريقية ، اذ انها لم تخضع لسلطة الروم ، الذين كانوا يخشون غاراتها ، ويحمون الاراضى الواقعة تحت حوزتهم بواسطة الحاميات المتمركزة فى القواعـــد العسكرية التى كانت تحيط بالناحية ، مثل طبنة ونقاوس وبلزمة وباغاية . ولذا ، فان الفتح العربى ، حينما اصطدم بجموعها ، لقى من جرائها أكبر المشاق .

(2) كتاب العبر ، ج 6 ، ص 214 .
(3) كتاب العبر ، ج 6 ، ص 213 ـ 216 .

وكانت سياسة أبى المهاجر دينار تعتمد على اللين والمرونة فى معاملة البربر ٠ فبعد أن هزم كسيلة ، لم يهنه ، بل حاول كسب صداقته ، ونجح فى سياسته هذه نجاحا كبيرا ، فاسلم كسيلة ، وصفا الجو بين العرب وقبيلة أوربة ٠

غير أن قدوم عقبة بن نافع الى افريقية ، فى ولايته الثانية ، سنة 62 هـ ، كان له أثر سىء على هذا الاتجاه السليم ٠ فأهان عقبة أبا المهاجر وكسيلة ، وألقى القبض عليهما ، وقيدهما ٠ ثم نهض بالجند قصد غزو بلاد المغرب ، وقام بحملة واسعة النطاق ، شملت نواحي عديدة ٠ ثم عاد متجها نحو القيروان ، مقر ولايته ؛ وعندما وصل الى طبنة ، أرسل الجند الى القيروان ، وانصرف هو ، مع فئة قليلة ، لتفقد الحصون الواقعة جنوب أوراس ٠ وعندما بلغ حصن تهودة ، غشيته جموع كسيلة ـ الذى كان قد تمكن من الفرار قبل ذلك ـ وأحلافه ، وقتلوه ومن كان معه (حوالى سنة 63 هـ) ٠ ثم ملك كسيلة القيروان ، وخسر المسلمون ثمرة الجهود العظيمة التى بذلوها منذ ما يزيد على 15 سنة ٠ (4)

ثم جهز عبد الملك بن مروان ، الخليفة الاموى ، جيشا أرسله تحت قيادة زهير ابن قيس البلوى ، سنة 69 هـ ، وقضى على امارة كسيلة ، الذى قتل مع جمع من أنصاره فى معركة ممس ٠ ولما غادر زهير بن قيس القيروان متوجها الى ليبيا لصد هجوم الروم على ساحلها ، لم يقو على مدافعتهم وقتل مع كثير من أبطال جنده ٠

ثم قدم حسان بن النعمان ، حوالى سنة 73 هـ ، على رأس جيش قوى ، فوجه أولى ضرباته نحو الروم ٠ وكان يرى أن لا راحة للعرب فى افريقية الا بالقضاء على نفوذهم ، واجلائهم من قرطاجة وغيرها من مدن افريقية ، واخضاع قبيلة جراوة ، التى ربما كانت قد شاركت قبل ذلك بسنوات قليلة ، بجانب كسيلة وقومه ، فى مقتل عقبة ابن نافع ورفاقه ، بتهودة ٠ ولاشك أن مشروع توسيع الفتوح فى اتجاه المغرب الاوسط

---

(4) أنظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص 265 ـ 269 ؛ شكرى فيصل ، حركة الفتح الاسلامى فى القرن الاول ، ص 165 ـ 170 ؛ لقبال موسى ، المغرب الاسلامى من بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج ، ص 44 ـ 55 .

كان يقتضى ، قبل كل شىء التغلب على الكاهنة وقومها ، وابعاد الخطر الناجم عن احتمال تحالفها مع الروم ، والاتصالات المستمرة التى كانت تجرى بينها وبينهم ٠

وقد ادرك العرب مدى خطورة الموقف بعد هزيمة حسان ، وانسحابه من افريقية ، وسيطرة الكاهنة وجموعها على تلك البلاد مدة لاتقل عن خمس سنوات ٠ وبينما عاملت الكاهنة الاسرى المسلمين معاملة حسنة ، اذا بها تقرر تخريب المدن والضياع واحراق الاشجار وافساد المزارع ، قاصدة بذلك أن تيئس العرب من التمتع بخيرات البلاد ، وأن يجد الجند العربى مشقة كبرى للحصول على المؤن الضرورية لمواصلة الحرب ٠

ويبدو أن التسامح الدينى الذى أظهرته الكاهنة كان ناتجا عن تعدد الديانات بافريقية ، آنذاك ، بين البربر ، من نصرانية ويهودية واسلام ووثنية ٠ فكانت رغبتها فى توحيد جهود البربر وتوجيهها لمقاومة الفتح العربى تقتضى ذلك التسامح ٠ الا أن سياسة « الارض المحروقـة » ، وما أدت اليـه من تخريب مدينة باغاية وغـيرها ، ومن اتلاف المزارع والغابات ، قد أغضبت الاهالى وجعلت الكثير منهم ينفضون من حولها ، وبعضهم يلتجئون الى العرب ويطلبون مساعدتهم ٠

فكان زحف حسان ، اثر ذلك ، موفقا ؛ وانهارت امارة الكاهنة ، وقتلت هذه حوالى سنة 82 هـ ٠ وبموتها تقلص ظل مقاومة البربر للفتـــح العربى فى افريقيا ، وأذعنـت القبائل الزناتية وغيرها ، القاطنة بمنطقة أوراس ، للسلطة العربية ، واعتنق الكثير منها دين الاسلام ٠ وقد ذكر صاحب كتاب الاستقصا ، ان حسانا اقتحم جبل أوراس ، بعد مقتل الكاهنة ، « واستلحم فيه زهاء مائة ألف مـــن البربر ، واستأمن اليه باقيهم على الاسلام والطاعة ، وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفا لا يفارقونه فى مواطن جهاده ، فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم » ٠ (5)

ثم هدأت الاحوال فى ناحية أوراس وبلاد افريقية حوالى نصف قرن ، قضاها الولاة العرب فى مواصلة الفتوح فى المغربين الاوسط والادنى وفى الاندلس ٠ وفى هـــذه

(5) الناصرى . الاستقصا . ج 1 ، ص 94 .

الاقطار كلها لقى الاسلام اقبالا منقطع النظير لدى الاهالى البربر · وشارك هؤلاء ، مع العرب ، فى فتوح الاندلس ، فنشأ بين العنصرين تقارب مثمر ، عززته الوحدة الدينية ·

ولما ساء تصرف بعض ولاة الامويين وعمالهم، الذين اقدموا على اهانة البربر المسلمين وعاملوهم معاملة الذميين ، تمسك هؤلاء بالمبادىء الاسلامية السمحة ، فطالبوا بالمساواة مع العرب فى الواجبات والحقوق ؛ الا أن صوتهم لم يسمع ، واحتجاجهم لم يلق اذنا صاغية · وفى تلك الاثناء ، ظهرت فى المغرب دعوة الخوارج ·

المذهب الخارجى فى ناحية أوراس

ومما حمل دعاة المذهب الخارجى على مضاعفة نشاطهم فى المغرب ، فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، أنهم لقوا هزائم كبرى فى المشرق ، ولا سيما فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فاصبحوا يفكرون فى نشر مذهبهم فى أطراف العالم الاسلامى ، وبخاصة فى أقطار المغرب ·

ولقد لقى الصوفية اقبالا عظيما لدى كثير من القبائل البربرية ، كقبيلة مطغرة ، التى كان يرأسها ميسرة ، فى المغرب الاقصى ، وقبيلة بنى يفرن ، فى ناحية تلمسان ، وكان أميرا عليها أبو قرة ، وقبيلة ورفجومة ، فى الناحية الشرقية من منطقة أوراس · أما الاباضية فانهم نشروا مذهبهم فى جبل نفوسة ، وفى ناحية تاهرت ، وفى بعض المناطق الاخرى ·

وكانت الاسبقية فى رفع راية الثورة ضد ولاة بنى أمية ، للصفرية · وذلك أن صفرية المغرب الاقصى أعلنوا الثورة بقيادة ميسرة ، سنة 122 هـ ، فقتلوا عامل طنجة ، وانضمت تحت لوائها جموع غيرة ، منها بنو يفرن ، قوم أبى قرة ، فتمكنت من بسط نفوذها على مناطق واسعة من المغربين الاقصى والاوسط ، وهزمت جيوش ولاة القيروان ، وبخاصة فى وقعة الاشراف ، وفى معركة وادى سبو (123 هـ) · (6) وأصبحت تهدد نفوذ بنى أمية فى افريقية ·

(6) ابن خلدون . كتاب العبر . ج 6 . ص 221 ـ 222 .

وأمام تفاقم الوضع ، رأى هشام بن عبد الملك ، الخليفة الاموى ، أن يرسل جيشا جرارا بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبى (124 هـ) ، فتمكن الوالى الجديد من ايقاف زحف الصفرية من قبيلة هوارة وأحلافهم ، على القيروان ، وهزمهم فى معركتى القرن والاصنام ٠(7)

وعندئذ ، أصبح هم ولاة افريقية منحصرا فى الحفاظ على الوجود العربى بافريقية ، اذ كانت هذه المنطقة أقوى مراكز العرب بالمغرب ، وبقيت قبائل المغربين الاوسط والاقصى متمادية فى شق عصا الطاعة ٠

ومما زاد فى الطين بلـــة أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قـدم من الاندلس الى افريقية ، ثائرا ضد بنى أمية ، وتسلم السلطة من يد حنظلة بن صفوان (126 هـ) ٠ وانقطعت بذلك العلاقات التى كانت تربط بين افريقية ودمشق ، الى أن انهارت الدولة الاموية بالمشرق ، الامر الذى عزل ولاية افريقية عن السلطة المركزية ، ولـــم يمكنها من تلقى المساعدة لمواجهة الموقف بحزم ، واسترجاع النفوذ العربى فى المناطق الواقعة غربى افريقية ٠

ولما انقرضت دولة بنى أمية فى المشرق ، وقامت مكانها الدولة العباسية ، دعا عبد الرحمن بن حبيب لابى جعفر المنصور ، ثم رجع عن الدعوة له ، وأعلن خلعه ، معربا بذلك عن عزمه على تأسيس امارة مستقلة ، على غرار الامارة الاموية بالاندلس ٠
ولكن سرعان ما تعكر الجو بالقيروان ، حيث قتل عبد الرحمن بن حبيب من طرف أخويه الياس وعبد الوارث (137 هـ) ، ثم قام حبيب بن عبد الرحمن يطالبهما بثار أبيه ، وقتل عمه الياس (138 هـ) ٠ أما عبد الوارث فانه التجأ الى ناحية أوراس ، حيث أجاره عاصم بن جميل ، شيخ ورفجومة ، وهم بطن من قبيلة نفزاوة ٠ (8)

---

(7) ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، ص 222 ـ 223 .

(8) وقد ذكر ابن خلدون ان ورفجومة كانوا « أوسع بطون نفزاوة وأشدهم بأسا وقوة » ، انظر : العبر ، ج 6 ، ص 231 ٠

وعندئذ رأى عاصم بن جميل وقومه ، وكانوا على مذهب الصفرية (9) ، أن الفرصة قد سنحت لهم للتدخل فى شؤون افريقيا ، والاستيلاء على القيروان ، الامر الذى لم تتمكن من تحقيقه ثورات الصفرية السابقة . فأجار عاصم بن جميل عبد الوارث بن حبيب ومن كان معه من أنصار الياس أخيه . واظهر عزمه على مناهضة حبيب بن عبد الرحمن ، وكان هذا الاخير قد أرسل الى عاصم بن جميل يطلب منه أن يوجه اليه عمه عبد الوارث وأصحابه ، فأبى عاصم أن يمتثل لامر حبيب .

ولما علم حبيب ذلك ، نهض بجيشه قاصدا ناحية أوراس ، لاخضاع عاصم بن جميل، والقبض على عمه ومن كان معه من الجند . وزحف اليهم ، فلقيه هؤلاء . وكانت الهزيمة على حبيب ، الذى فر الى قابس .

وكان حبيب قد استخلف على القيروان القاضى أبا كريت . غير أن بعض أهـــل القيروان لم يطمئنوا للاوضاع السياسية التى نجمت عن فرار حبيب الى قابس ، وتخوفوا من انتشار الفوضى فى مدينتهم اذا لم يكن فيها أمير يدبر شؤونها . فكتبوا الى عاصم ابن جميل يدعونه للقيام بأمرهم ، بشرط الدعاء لابى جعفر المنصور ، فأجابهم الى ذلـــــك . (10)

وحينئذ توجه عاصم وأخوه مكرم وقومهما ، ومن لجأ اليهم من العرب ، صـــوب القيروان . فخرج القاضى أبو كريت ، بمن معه من المقاتلين ، للقاء ورفجومة ؛ ولكن انفض من حوله كثير من رجاله لاول لقاء ، فثبت أبو كريت ومن بقى معه ، الى أن قتل أكثرهم، ودخل عاصم القيروان . ثم استخلف عليها عبد الملك بن أبى الجعد اليفرنى ، وقصد الى قابس لقتال حبيب ، فهزمه ، ولجأ حبيب الى جبل أوراس ، فأجاره أهل تلك الناحيــة . فتوجه عاصم الى أوراس ولقى حبيبا هناك ، ولكن الهزيمة كانت على شيخ ورفجومة ، الذى قتل أثناء المعركة .

---

(9) راجع : البيان المغرب لابن غذارى ، ج 1 ، ص 70 . وقد ذكر ابن خلدون انهم كانوا اباضية ونقل عنه ذلك صاحب الاستقصا .أنظر : العبر، ج 6، ص 231 ، س 18 ، الاستقصـــا ، ج 1 ، ص 22 .

(10) أنظر : البيان المغرب . ج 1 ص 70 ؛ الاستقصا . ج 1 ص 122 .

ثم قصد حبيب الى القيروان ، فخرج الى لقائه عبد الملك بن أبى الجعد ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وانتهت بمقتل حبيب وهزيمة جماعته (محرم 140 هـ) · وبموت حبيب أصبحت ولاية افريقية كلها معرضة للوقوع فى قبضة الصفرية · وغـدت القيروان ، لاول مرة ، تحت سيطرتهم ·

وقد اجمعت المصادر التاريخية على اعتبار احتلال ورفجومة للقيروان كارثة كبرى تعرضت لها هذه المدينة ، اذ أن ورفجومة لم يوفوا بالعهد لاهل القيروان ، فاستحلوا المحارم ، وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان ينتمى الى قريش ، وساموا أهل القيروان أنواع الذل والعذاب · (11)

ويمكن أن نستنتج من هذه التصرفات ان اسلام ورفجومة كان لا يزال سطحيا ، آنذاك ، اذ لم يراعوا شيئا من الحرمات ولم يحترموا قداسة بيت الله ، واطلقوا العنان لشهواتهم ولعصبيتهم وبطشهم وكرههم للعرب · ولعلهم تلقوا مبادىء الاسلام عن طريق الصفرية ، فوجدوا فى مذهب هؤلاء ما يتلاءم مع ميولهم وعصبيتهم · فكأن الصفرية مثل الازارقة ، يستحلون سبى النساء المسلمات ، ويرون تكفير غيرهم من الفـرق الاسلامية ، ووجوب محاربتها (12) · ولا يستبعد أن يكون اسلام ورفجومة ، آنذاك ، مختلطا برواسب دينية قديمة ، قد تعود الى اليهودية ، وهي ديانة جراوة ، قوم الكاهنة، الذين كانوا مجاورين لورفجومة فى ناحية أوراس الشرقية · ومما يؤيد هذا الافتراض ما ذكره ابن خلدون عن عاصم بن جميل ، شيخ ورفجومة ، من أنه « كان كاهنا » · (13)

وفى تلك الاثناء كانت اباضية جبل نفوسة قد اغتنمت فرصة ضعف أمـراء القيروان الفهريين ومقتل آخرهم حبيب بن عبد الرحمن ، فاستولت ، بقيادة امامهـا

(11) راجع : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 70 ؛ العبر ، ج 6 ، ص 232 ؛ الاستقصا ، ج 1 ، ص 122 ــ 123 ؛ الدرجينى ، طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 1 ، ص 26 ــ 27 .

(12) والجدير بالملاحظة أن الصفرية كانوا أقل تشددا من الازارقة ، اذ كانوا يرضون بالعقود (التوقف عن حرب الفرق الاخرى) والتقية (كتم الانتساب الى المذهب الخارجى) . أما الاباضية فكانوا ، خلافا للازارقة والصفرية ، لا يرون تكفير مسلمى الفرق الاخـرى ، مما يسمح لهم بمسالمة مختلف النحل الاسلامية . عن آراء الخوارج ، راجع مثلا ، أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص 306 ــ 317 ؛ ضحى الاسلام ، ج 3 ، ص 330 ــ 347 .

(13) العبر ، ج 6 ، ص 231 ، س 16 .

أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى ، على طرابلس وما يليها ، واخذت تتطلع الى امتلاك مناطق أخرى من بلاد افريقية • وكان تدهور الاوضاع بالقيروان ، وعيث ورفجومة فيها ، أحسن مبرر لتحقيق رغبتهم هذه ، والسيطرة على الموقف بافريقية •

فزحف أبو الخطاب بجموعه ، من زناتة وهوارة ، الى القيروان ، ولقى عبد الملك بن أبى الجعد ،فهزمه هزيمة كبرى ، انجلت عن مقتل قائد ورفجومة وكثير من أتباعه ، واستيلاء أبى الخطاب على القيروان (صفر 141 هـ) • وبذلك انتهى تغلب صفرية جبل أوراس على عاصمة ولاية افريقية • (14)

وبعد ذلك ، ضعف شأن ورفجومة ، وغزاهم ابن الاشعث ، والى افريقية العربى الجديد ، وفرق جموعهم ، وأخضعهم لطاعة الدولة العباسية • فاستقر بعضهم فى جبل أوراس ، بينما تشتت البعض الآخر فى مختلف المناطق • ولما عين عمرو بن حفص واليا على افريقية ، أنزل بعضهم فى طبنة (151 هـ) ، عندما حصن هذه المدينة وأعاد بناءها • وكانوا عونا كبيرا له ضد اباضية عبد الرحمن بن رستم وأحلافه من بنى يفرن وغيرهم ، عندما حاصروها سنة 153 هـ • (15)

ولكن ، بعد مقتل عمرو بن حفص (سنة 154 هـ) ، ضربت الفتنة أطنابها فى افريقية، فثارت نفزاوة جبل أوراس ضد الوالى الجديد يزيد بن حاتم ، فارسل اليهم الجيوش واخمد ثورتهم (157 هـ) • (16)

ثم ثارت نفزاوة ، بعد وفاة يزيد بن حاتم (فى رمضان 171 هـ) ، على ابنه داود • وكان يقود ثورتها نصير بن صالح الاباضى • (17) وقد ذكر ابن خلدون أن نفزاوة ، فى

---

(14) راجع : الدرجينى ، المصدر المذكور ، ص 26 ــ 31 ، العبر ، ج 6 ، ص 232 •

(15) وهذا مما لا يستغرب ، اذ أن ورفجومة لم تنس الحملة التى شنها أبو الخطاب واتباعه سنة 141 هـ ، عليها ، حينما استولت على القيروان .

(16) العبر ، ج 6 ، ص 232 .

(17) البيان المغرب ، ج 1 ، ص 32 ؛ ويسميه ابن خلدون صالح بن نصر (العبر ، ج 6 ، ص 232) .

هذه المرة ، « دعوا الى دين الاباضية » . (18) فعادت الى محاربتهـــم عساكر والى افريقية ، « وقتلوهم أبرح قتل... وافترق بنو ورفجوم بعد ذلك وانقرض أمرهم ، وصاروا أوزاعا فى القبائــل » . (19)

ولاشك أن انتساب نفزاوة هذا الى مذهب الاباضية يدل على تحول هام فى تطور ناحية أوراس المذهبى ، اذ أن هذه الثورة لم تقم باسم الصفرية ، كما كان الامر قبل ذلك ، وانما قامت باسم الاباضية . ويستنتج من هذا أن فشل الصفرية ، وكره اهالى افريقية لهم بعد زحف ورفجومة على القيروان قد أدى الى قلة انصارهم ، وتضاؤل عدد مؤيدى مذهبهم فى ناحية أوراس بعد حركة ورفجومة المشؤومة الى القيروان ، واقنعوا الاهالى بصحة آرائهم وفساد بعض معتقدات الصفرية ، المنافية لروح الاسلام ، دين التسامح والمسالمة .

والغالب على الظن أن الاباضية بقيت منتشرة فى ناحية أوراس الى تاسيس دولة العبيديين ، واستيلائها على معظم مناطق المغرب . فلما توفى عبيد الله المهدى ، سنة 322 هـ ، وخلفه ابنه أبو القاسم ، رأى هذا أن يأمر الناس بترك مذهب أهل السنة واتباع مذهب الشيعة . « فمن تكلم عذب وقتل ، واشتد الامر على المسلمين » . (20)

وأمام هذه الاجراءات التعسفية ، اندلعت ثورة لم ير العبيديون أعنف ولا أشـــد منها ، وكانت انطلاقتها من جبل أوراس ، تحت قيادة أبى يزيد مخلـــد بن كيداد اليفرنى (332 هـ) ؛ واجتمع تحت لوائه اباضية أوراس ، ومن بينهم بنو كملان ، من قبيلة هوارة . (21)

---

(18) العبر ، ج 6 ، ص 232 . س 18 .
(19) العبر ، ج 6 ، 232 ـ 233 .
(20) البيان المغرب ، ج 1 ، ص 216 .
(21) انظر : العبر ، ج 6 ، ص 287 .

وقد تحدث ابن عذارى عن أبى يزيد ، فذكر انه « كان ··· أحد ائمة الإباضية النكار بالمغرب ··· وتسمى شيخ المؤمنين » · (22) غير أنه كان يدعو لعبد الرحمن الناصر ، خليفة الامويين بالاندلس · (23)

وبعد أن انتصر أبو يزيد على عمال العبيديين فى المدن الواقعة شمال وشرق ناحية أوراس ، مثل باغاية وتبسة ، استولى عنوة على الاربس ، « وأحرقها ونهبها ، وقتل فى الجامع من لجا اليه » · (24) ثم ملك باجة « واحرقها وقتل الاطفال وسبى النساء » · (25)

ثم دخلت تونس فى حوزة أبى يزيد ، وقوى جانبه ، فاتجه نحو القيروان ، وقد انضمت اليه كثير من قبائل البربر · وحاصر رقادة « فى مائتى ألف مقاتل » ، (26) ثم دخلها « فعاث فيها ، وبعث أيوب الزوب الزويلى فى عسكر القيروان ، فملكها فى صفر سنة 333 هـ ، ونهبها ··· وخرج (الى أبى يزيد) شيوخ القيروان ، فأمنهم ورفع النهب عنهم » · (27)

ويبدو من هذا العرض الوجيز أن أبا يزيد وجماعة النكارية ، التى كان ينتسب اليها ، كانوا أقرب الى الصفرية منهم الى الاباضية ، وان انتماءهم الى الاباضية لم يؤد الى اعراضهم عن بعض الاعمال الشنيعة ، التى اشتهر بها صفرية ورفجومة وغيرهم · فابو يزيد وأصحابه لم يتأخروا عن قتل الاطفال وسبى النساء المسلمين ، واحراق المدن وتخريبها ونهبها · وما معاملة أبى يزيد لاهل القيروان ، فى نظرنا ، وايقافه للنهب بها ، الا وسيلة لكسب تأييدهم ومشاركتهم فى حرب العبيديين ، ولا نظن أن كثيرا من المسلمين والاباضية الوهبية قد انخدعوا بذلك ، وانضموا الى صفوف النكارية ، لما ذاع

---

(22) البيان المغرب ، ج 1 ، ص 216 ـ 217 ·
(23) انظر : العبر ، ج 4 ، ص 84 ·
(24) العبر ، ج 4 ، ص 85 ·
(25) العبر ، ج 4 ، ص 85 ، انظر كذلك : البيان المغرب ، ج 1 ص 219 ·
(26) العبر ، ج 4 ، ص 86 ·
(27) الغبز ، ج 4 ، ص 86 · راجع ايضا : الدرجينى ، طبقات المشائخ ج 1 ، ص 100 ـ 101 ·

من أنباء حول ما اقترفه هؤلاء من تخريب وتقتيل وسبى ونهب ، فى مختلف الانحاء ٠ (28)

كما يبدو أن هذه الثورة كانت تحمل نفس الطابع الذى حملته ثورة الكاهنة وثورة ورفجومة ، وكلها انطلقت من جبل أوراس ٠ وكأن طبيعة هذه المنطقة القاسية قد أثرت ، منذ أقدم العصور ، فى نفوس أهلها ، فجعلتهم أميل الى القسوة والبطش وانتهاك الحرمات ٠

ولم تمض بعد ذلك الا أشهر قليلة حتى وصل أبو يزيد الى المهدية (29)،وضرب حولها الحصار ، وشن حملة عنيفة عليها ، بغية اقتحامها ، ولكن لم يتمكن من ذلك ، وتمادى فى حصارها ، فلقى أهلها من ذلك أشد المشقة ٠

وكان أبو القاسم بن عبيد الله قد أرسل الرسل الى كتامة وصنهاجة يستنجد بهم ، فاجتمعت كتامة لتلبية طلبه ، وعسكرت بقسنطينة ، فأرسل اليها أبو يزيد « بعثا من ورفجومة وغيرهم ، فهزموا كتامة » ٠ (30)

وعندئذ عظم الخطر على المهدية ، وكادت تسقط فى حوزة أبى يزيد ، لولا وصول زيرى ابن مناد الصنهاجى بالمدد والمؤن (آخر جمادى الاولى 333 هـ) ٠ (31)

وتتابعت هجمات أبى يزيد وجموعه على المهدية ، ولكن بدون جدوى ٠ وأمام صمود أبى القاسم القائم وجنوده ، بدأ الملل يفت من عزيمة أنصار أبى يزيد ، فانفض الكثير من حوله ٠ وقد عزا ابن خلدون انتقاض البربر عليه الى « ما كان منه من المجاهرة بالمحرمات والمنافسة بينهم » ٠ (32) وقد يكون ذلك عاملا هاما لانصرافهم عنه ، الا انه لا يكفى لتفهم ذلك.ولعل أهم العوامل ترجع الى طول المدة وقساوة الحرب وتشدد أبى يزيد واذا راعينا أن معظم أنصاره كانوا من البدو،أدركنا أن انصراف الكثير منهم كان

---

(28) انظر الدرجيني طبقات المشائخ ، ج I ، ص 100 ٠

(29) وذلك فى جمادى الاولى 333 هـ ٠ (العبر ، ج 4 ، ص 87) ٠ ويذكر ابن عذارى ان أبا يزيد وصل الى المهدية فى سنة 335 هـ ، أي فى عهد اسماعيل بن القائم (البيان المغرب ، ج I ، ص 2I9) ٠

(30) العبر ، ج 4 ، ص 88 ٠

(3I) العبر ، ج 4 ، ص 87 ٠

(32) العبر ، ج 4 ، ص 88 ٠

لسبب اقتصادى ، هو الالتحاق بأهاليهم وتفقد أحوالهم وما تتطلبه حياة الرحل من تنقل عبر النواحى ورعى الماشية وغير ذلك • وهذا لا يمنع أن يكون ، الى جانب ذلك ، عامل سياسى وايديولوجى ، دفع الكثير من السنيين والاباضية غير النكارية الى مغادرة صفوف الثورة ، لما عاينوا من تصرفات أبى يزيد ورفاقه الشنيعة •

ولما أطلت سنة 334 هـ ، بدأ نجم أبى يزيد فى الافول ، فاضطر الى رفع الحصار عن المهدية ، وثار أهل القيروان على أنصاره فأخرجوهم وراجعوا طاعة القائم•وعندئذ قدم على بن حمدون ، أمير المسيلة ، بقومه ، لمساعدة القائم على حرب أبى يزيد ، فانشغل هذا الاخير بمقاتلتهم ، (33) ثم زحف الى سوسة فى جمادى الثانية 334 هـ ، وحاصرها • وفى تلك الاثناء توفى أبو القاسم بن عبيد الله (شوال 334 هـ) ، فخلفه ابنه اسماعيل • وكان أول عمل قام به ، أن أرسل الاساطيل لانجاد سوسة ، فانهزم أبو يزيد ، ولحق بالقيروان ، فمنعه أهلها من الدخول ، ورحل الى سبيبة (34) •

ثم نهض اسماعيل بن القائم لمطاردة أبى يزيد ، فقدم الى القيروان • وزحف اليه أبو يزيد ، فجرت بينهما معارك ضارية ، لم تسفر عن تغلب أحد من الطرفين • فرحل عنها أبو يزيد (أواخر ذى القعدة 334 هـ) • ثم عاد اليها وعاود القتال ، الى أن هزم هزيمة كبرى ، فى منتصف محرم 335 هـ ، ففر الى ناحية باغاية •

وانطلق اسماعيل بن القائم فى اتباع أبى يزيد ، ومطاردته عبر الهضاب والجبال والمفاوز • ولم يفتا امر أبى يزيد يضعف ، الى أن أخذ فى حصن من بلاد كتامة ، وهو جريح ، ومات من أثر جراحه فى آخر محرم 336 هـ • (35)

هكذا انتهت ثورة أبى يزيد وأتباعه من أهالى أوراس • وقد نتج عنها خراب « عمران افريقية من سائر الضواحى » ، (36) ومقتل كثير من السكان ، وتشتيت القبائل التى أيدته وناصرته ، كما افترق شمل قوم الكاهنة ورفجومة قبل ذلك • وخلفهم قوم آخرون ، تمذهبوا بغير مذهبهم ، ونشروا فى ربوع أوراس المذهب السنى •

---

(33) أنظر : العبر ، ج 4 ، ص 88 ـ 89 •
(34) انظر : العبر ، ج 4 ، ص 89 ـ 90 ، البيان المغرب ، ج 1 ، ص 219 •
(35) انظر : العبر ، ج 4 ، ص 92 ـ 93 ، البيان المغرب ، ج 1 ، ص 220 •
(36) العبر ، ج 4 ، ص 86 ـ 87 •

المذهب السنى فى ناحيـــة اوراس

ومن الصعب أن نحدد الزمان الذى انقرض فيه المذهب الاباضى من ناحية أوراس · ولاشك أن ما لقيته قبيلة ورفجومة الصفرية ، وبنو كملان النكارية ، وغيرهم من خوارج أوراس ، من تشريد وتقتيل بعد الهزائم التى تكبدوها ، قد شتت شملهم وأخلى كثيرا من جهات بلاد أوراس ·

وعلى كل فان الاوضاع الاجتماعية قد عرفت تحولا جذريا غداة قدوم بنى هلال أيام الزيريين والحماديين ، فتوغلت فى مختلف المناطق الجنوبية من كلا الدولتين ·

فاستقرت حينئذ كرفة ، من قبيلة الاثبج الهلالية ، فى جبل أوراس (37) ، كما تمركز أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضى ، من الاثبج أيضا ، بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة (38) · وكان أولاد محمد ، من الدواوة ، وهم بطن من قبيلة رياح فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، قد تغلبـوا على الزاب وجبـل أوراس ، فاقطعهم الحفصيون ما امتلكوه من الاراضى ·

وفى أواسط القرن الثامن الهجرى ، كان جبل أوراس تابعا لامارة بجاية الحفصية ، غير أن أمراء بجاية عهدوا ببجاية هذه الناحية لابن مزنى ، أمير بسكرة ·

ولا ريب أن اختلاط القبائل الهلالية بأهالى أوراس القدماء ، قد أدى الى نتيجتين هامتـــين :

– الاولى ، فى المجال المذهبى ، هى انتشار المذهب المالكى فى الناحية ، واقبال اهالى جبل أوراس على اتباعه وتعلمه ؛

– والثانية ، فى المجال الثقافى والاجتماعى ، هى تعريب القبائل البربرية تدريجيا ، واختلاطها بالقبائل الهلالية ·

فنتج عن ذلك التلاحم ، تقارب فى مجالى الدين واللغة ، وهدأت الافكار ، وسادت الطمانينة والمسالمة ربوع جبل أوراس ·

---

(37) انظر : العبر ، ج 6 ، ص 48 – 50 ·
(38) انظر : العبر ، ج 6 ، ص 55 ·

الحلف بين أهل السنة والنكارية

في القرن 4 هـ/10 م ، وأثره في تطور أوضاع مدن افريقية والزاب ، والحضنة والاوراس .

د. لقبال موسى

معهد العلوم الاجتماعية

جامعة الجزائر

نائب بالمجلس الشعبي الوطني

معارضة أهل السنة ، والمالكية منهم ، للحكم الفاطمي الاسماعيلي ، تعتبر من بين العقبات الكبرى التي حالت دون استقرار النفوذ الفاطمي ، في بلاد المغرب العربي الاسلامي ، كما حالت دون تحقيق الانسجام ، والتعاون المطلوب ، بين الخلفاء الفاطميين ، وجمهور السكان لان هؤلاء كانوا يستوحون مواقفهم من توجيهات فقهاء السنة، والمالكية بنوع خاص ، الذين كانوا في نظر الجماهير بمثابة زعماء شعبيين .

ولئن كان الخلفاء الفاطميون في الدور المغربي للخلافة ، وبدءا من عهد مؤسس النظام ، عبد الله المهدي ، الى نهاية حركة النكارية في أواخر عهد المنصور ، قد مكنوا لانفسهم ، ولمذهبهم ، الخاص ، بالاعتماد على الامكانيات الضخمة التي كانت طوع

ارادتهم ، ففرضوا آراءهم المذهبية ، وارادتهم السياسية بالقوة وبالعنف ، وبالاضطهاد، والمصادرة ، وشراء الذمم ، على جماهير السنة فى حواضر افريقية والزاب ، وخصوا المالكية باعنف المواقف واشد الاضطهاد • فان هؤلاء فى جملتهم بقوا على ولائهم السياسى ، للخلافة العباسية الشرعية ، وعلى انتمائهم المذهبى للسنة ، وآراء الجماعة • ورفضوا مختلف أشكال التعاون مع الفاطميين ، وبقوا يهيئون أنفسهم لرد الفعل ، وللقتال الحقيقى ثارا لشهداء المالكية ، فى هذا العصر ، الذى كان يعتبر فى نظرهم عصر المحنة والشهادة (1) •

وقد اتيحت فرصة الانتقام من الفاطميين ، عندما لاحت فى الافق السياسى والمذهبى حركة النكارية الاباضية ، بزعامة شيخ المسلمين أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى ، النكارى « الذى خرج من جبل أوراس فيمن تبعه يطوى البلاد ويزيد اليه أهل الفساد والعدوان» (2) •وهذه الحركة ، وان لم تخل من طابع العنصرية البترية ضد فرع البرانس ، وضد كتامة ومجيسة ، وزواوة ، وصنهاجة بنوع خاص ، كما لم تخل أيضا من طابع المغالاة المذهبية تجاه أهل السنة والشيعة ، فانها كانت ميدانا مفضلا ، وفرصة متاحة لرجال المذاهب الاسلامية المتصارعة ، ولرجال الحكم والسياسة، ولفرعى البتر والبرانس ، ولطبقة الفتيان الصقالبة ، ولكل المغامرين الطموحين • فكل فريق من هؤلاء وجد فى الحركة ضالته المنشودة لايذاء خصمه ، ولاكتساب موقع خاص (3) • اما الجانب الذى لم يضعه اي من الفرقاء فى اعتباره فى غمرة النزاع والاحقاد فهو العمران الحضرى ، ومظاهر الاستقرار ، والرخاء ، وآيات التمدن ، ومظاهر الحياة الاقتصادية والفكرية التى أصيبت بضربة قاسية •

---

(1) وقد منع الفاطميون الفقهاء من التدريس ، والافتاء بمذهب مالك ، وأحيوا العمل بمذهب جعفر بن محمد (الصادق) وكلفوا أحد المنشدين العميان بأن يهزج بذم النبى (ص) وأصحابه بقوله « العنوا الغار ، وما وعى ، والكساء وما حوى » ، مبالغة فى ايذاء أهل السنة ، وفقهاء المالكية .

(2) النعمان : افتتاح الدعوة ص 277 .
أنظر : عياض : ترتيب المدارك مجلد 2 ، ح 3 ، 318 ط بيروت .

(3) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ص 19 وما بعدها ، وجاء فيه عن أوراس وقبائلها قوله «وسار الى جبل أوراس وفيه قوم من هوارة ، يقال لهم بنو كملان من أهل مذهبه فقام فيهم وقوى بهم واشتدت شوكته واستفحل أمره » •

والى هذه الحركة التى يعتبرها أعداؤها ، حركة فوضوية تخريبية ، ويعتبرها الخلفاء الفاطميون فتنة أو محنة كبرى من نوع خاص ، (4) ويعتبرون صاحبها : أبا يزيد لعينا ، ودجالا مثل مؤرخى الاباضية الوهبية الذين قسوا عليه فى الحكم عندما عد فى نظرهم أحد المفسدين فى الارض · (5) الى هذه الحركة ، أنظم أهل السنة ، وفقهاء المالكية خاصة ، لانهم اعتبروها أملا وحيدا فى الخلاص ، من حكم الشيعة الفاطميين ، وقد ساندوها بكل قواهم ، أيضا ، لان وجه الحركة فى بداية الامر ، كان سنيا ، يظهر الترحم على أبى بكر وعمر ، ويحث على قراءة مذهب مالك وعلى الالتزام به ، ويستند فى تطبيق قواعد الشرع الاسلامى على الكتاب والسنة ، ويعمل على مراقبة التنفيذ بواسطة الاحتساب على الولاة ، والعمال ، وأوساط الناس ·

وكان الشيخ ابو يزيد كما لقبه فقهاء المالكية ، يدعو الى التكتل ، وضم الجهود لقتال الشيعة الفاطميين ، والحط من شأنهم ، وشان أئمتهم بما فى ذلك على بن أبى طالب (6) ومن أجل ذلك انظم الى حركته ، وملأ صفوفه ، زهاد افريقية وعبادها ، وفقهاؤها ، الذين أشرف وجوههم ، وزعماؤهم على التهيئة للمعركة المرتقبة ضد الفاطميين ، بتعبئة القوى السنية بواسطة الخطب التى ألقيت فى المساجد ، وبالاحاديث التى وضعت بالمناسبة ، لتشجيع الجماهير على التجنيد الجماعى ، لاعلان الجهاد المقدس ضد الرافضة · وأثناء المؤتمر العام الذى عقد باشراف هؤلاء الزعماء ، وأظهرهم : ابو الفضل عباس بن عيسى الممسى ، وربيع بن سليمان القطان ، وأبو اسحاق السبأى وأبو عبد الملك بن مروان بن منصور الزاهد ، وابراهيم بن محمد العشماء ،وأبو العرب تميم صاحب كتاب : « طبقات علماء افريقية » ، الذى تولى ، بمعية عباس الممسى ،

---

(4) خلدها القاضى النعمان فى قصيدة مشهورة سماها « ذات المحنة » أنظر : المجالس والمسايرات 1 ، 79 وما بعدها . خ القاهرة ؛ سيرة جوذر : 53 ، 189 ، تعليق 135 منه .

(5) أبو زكرياء : السيرة ورقات 34 ، 35 ، 36 ، 37 ، الدرجينى : الطبقات ، ورقة 113 ، 14 . وقارن ما ورد عنه أيضا فى الاستبصار (المجهول) ص 205 ــ 206 حيث يوصف هنا خطأ بالصفرى .

(6) ابن عذارى البيان ج 1 ، 307 ــ 308 نقلا عن ابن سعدون فى تعزية أهل القيروان .

توجيه أعمال المؤتمر ، وعندما اتفق الرأى على مبدأى الثورة ، والحلف مع أبى يزيد لقتال الفاطميين جهزوا انفسهم واتباعهم بالعدة الكاملة ، وأعطيت الزعامة لعباس الممسى ٠

وتذكر النصوص كيف أن زعماء المالكية ركزوا بنودهم ، وكان عددها سبعة وتحمل شعارات متنوعة ، وتتخذ الوانا شتى ؛ قبالة مسجد القيروان وهو أول مسجد فى افريقية الاسلامية أسس على تقوى من الله ورضوان ٠ وفى ذلك اشارة الى ذور المسجد ، كمركز للاشعاع ، ومهد للاصالة ؛ ونقطة مهمة للبدء فى الاصلاح ٠

ومن بين البنود السبعة ، تميز بند زعيم الحركة عباس الممبى (نسبة الى لممس : قرية فى نواحى القيروان تميزت بمعركة ممس أثناء الفتح سنة 79هـ) ، ومثله البندان اللذان رفعهما ربيع بـن سليمان القطان ، باللون الاحمر ، لكـن اختلفت الشعارات المكتوبة على هذه البنود ، فحمل بند الممسي شعار : « لا اله الا الله محمد رسول الله ، لا حكم الا لله ، وهو خير الحاكمين » ٠ وحمل أحد البندين اللذين رفعهما القطان شعار : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله محمد رسول الله » بينما حمل البند الثانى شعار :« نصر من الله ، وفتح قريب على يد الشيخ أبى يزيد ، اللهم انصر وليك على من سب نبيك وأصحاب نبيك » ٠

وكان بند أبى العرب تميم ذا لون أصفر ، وكتب عليه بعد البسملة آية قرآنية هى : « قاتلوا أئمة الكفر » ٠ أما البند الاخضر الذى رفعه أبو نصر الزاهد فكتب عليه قوله تعالى : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم » وحمل البند ومن بين البنود السبعة ، تميز بند زعـيم الحركة عبـاس الممسى ، نسبـة لممس ، الابيض الذى رفعه السبأى بعد البسملة ، شعار : « محمد رسول الله ، وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق » ٠

أما أكبر البنود جميعا ، وكان ذا لون أبيض ، فقد تولى رفعه ابراهيم العشماء وكتب عليه قوله تعالى : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا : التوبة آية 40 » ٠

واكتملت التهيئة المادية والمعنوية بخطبة القاها أبو ابراهيم أحمد بن أبى الوليد يوم الجمعة ، وضمنها : التشهير بالخلفاء الفاطميين ، والطعن فى حكمهم واغراء جماهير

السنة بهم ، وحثهم على العمل المادى الجاد ، وعلى الجهاد المخلص بجانب الشيخ أبى يزيد، لتصفية نفوذ الشيعة الفاطميين (7) ٠

ومن ملاحظة هذه الشعارات تبدو أسباب الغضب من الحكم الفاطمى ، والرغبة فى انهائه ، وقد تركزت بالخصوص على مبادىء : وحدة الاله ، ونبوءة محمد (ص) وفضل الخلفاء الراشدين واهمال على بن أبى طالب ، وتفضيل أبى بكر عليه ٠ كما تضمنت أيضا اشارة الى آثار الحلف الجديد بين السنة ، والمالكية منهم ، من جهة وبين النكارية الخوارج من جهة أخرى ٠ وذلك فى اتخاذ شعار تاريخى قديم لرواد حركة الخوارج ، والقصد منه مجاملة الشيخ أبى يزيد ٠

وبفضل قوة الحلف الجديد وتأييده للثورة ضد الفاطميين أحرز أبو يزيد انتصارات كبرى واستخلص حواضر افريقية السنية ، ومنها القيروان مركز القوة المالكية وهدد نظام الخلافة بالسقوط ٠ وغدا القائم بأمر الله ، محصورا فى المهدية حيث قيل انه « مات محسورا وفى نفسه مقهورا » ، وعند هذا الحد من القوة الذى بلغه أبو يزيد ، بدأ يتآمر على حلفائه السنيين ، ويمهد لقتلهم بالمكر ، على أيدى الجند الفاطميين ليصفو له الجو ومما قاله لجنوده « اذا التقيتم مع القوم) جند الخلافة (انكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم ، فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن ، فنستريح منهم » وقد كان غرض أبى‌يزيد ، ازاحة هؤلاء الزعماء الشيعيين ليتمكن نفوذه فى أوساط العامة ، وتشير النصوص الى أن فقهاء المالكية وجماهير السنة لم يتفطنوا لتدبير أبى يزيد ، وتحايله ، لذلك أخلصوا فى القتال عند اللقاء حتى سقط أغلبهم فى ميدان المعركة وعندئذ عرفوا حقيقة ما يراد بهم وبأهل السنة عموما ٠ فقالوا « قتل أولياء

---

(7) عياض : المصدر السابق مجلد 2 ج 3 ، 319 ـ 321 ، ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 308 ـ 309 ، 411 ـ 412 ، ومما جاء فى خطبة ابن أبى الوليد قوله « اللهم ان هذا القرمطى الكافر المعروف بعبيد ، ادعى الربوبية من دون الله ... فانصرنا اللهم عليه ، وأرحنا من دولته ، واهلك اللهم شيعته وشتت كلمته » . أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 19 . هامش 2 ط الشابى .

(8) ابن عذارى : المصدر السابق 61 ـ 309 ، 4/2 ، عياض : المصدر السابق مجلد 2 ج 3 ص 321 ـ 330 وقد قتل فى الفتنة ، الممسى زعيم الحركة ، وربيع القطان .

الله شهداء» وانسحبوا من معسكره وانقلبوا اليا عليه ، وحربا ضد أعوانه ، حتى تمت التصفية النهائية لحركته الخطيرة بالمعركة الحاسمة التى خسرها ، فى عمق افريقية ، هذا الى جانب انفصال مدينة القيروان عنه ، وثورتها ضده ، وطردها لاتباعه وواليه فيهـــا (9) .

والذى يميزحركة النكارية بقيادة أبى يزيد عند غيرها من حركات المعارضة المادية لنفوذ الفاطميـين أنها :

أ ـ كانت أول امتحان رهيب للوجود السياسى والمذهبى للفاطميين فى بلاد المغرب ، وهذا بعد أن سقطت كل حواضر افريقية عدا المهـــدية ، وسوسة اللتين ذاقتا مرارة الحصار ، وويلات الحرب والمجاعة فى أواخر عصر القائم ، وبداية عصر المنصور ، وهذان الامامان هما اللذان واجهاها ، فتعبا بشدة ؛ ولاهمية دورهما فى الحفاظ على استمرار ظل الخلافة الفاطمية سياسيا ومذهبيا ، بتصفية الحركة ، كان المعز لدين الله فى مجالسه ، يترحم على روحهما ، ويأسف لما أصابهما اثناء هذه المحنة الكبرى .

ب ـ وقد أرهقت الحركة مالية الخلافة وكلفتها نفقات باهظة ، وحملتها خســـائر لا تدخل تحت حصر فى وقت كانت فيه بلاد افريقية تمر بمجاعة ، وبازمة اقتصاديـة مظهرها ، غلاء الاسعار ، حتى بلغ عليق كل دابة دينارا ونصفا ، وبلغت قربة الماء دينـــارا (10) .

ج ـ وقد أضرت الحركة بمظاهر الحياة الاقتصادية والثقافية والحضارية عموما فى افريقية واقليم الزاب ، على نحو لم تفقها فيه أية حركة معارضة سابقة أو لاحقة ولقد تكرر هنا ما وقع فى عصر الكاهنة وحسان ، وما وقع فى عصر الوندال ثـم بمناسبة

(9) ابن حماد : المصدر السابق ، 24 ، المقريزى : المصدر السابق 1 ،، 82 س 6 . ط 1967 .

(10) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 84 ـ 45 ، النعمان : المجالس والمسايرات 2 ، ورقة 642 وما بعدها خ مكتبة العزيزى : المصدر السابق 44 وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل ج 8 ، 67 ، 157 ، ابن عذارى المصدر السابق 1 ، 273 . ابن حماد : المصدر السابق ، 28 حيث بلغت شربة الماء ثلاثة دراهم فى معسكر المنصور .

الزحوف البدوية أثناء تغريبة بنى هلال ، فلم يحترم البدو المدن ومظاهر العمران المستبحرة ، كما لم يحترموا المساجد ، والاربطة ، والحصون ، والنساء والولدان ، « وقد كان البربر ياتون الى ابى يزيد من كل ناحية فينهبون ويرجعون الى منازلهم حتى أفنوا ما كان فى افريقية » (11) .

د ـ اما تاثيرها على القبائل وعلى السكان خاصة فى الزاب ، وأوراس فكان سيئا ، فهذه المنطقة ، كانت تضم حلفاء ابى يزيد ، وهي منطقة ترتبط بفترة فى حياته وكانت معبرا للجيوش المتحاربة ، وللقبائل الموالية ، والمعادية ؛ هذا فضلا عن قيام بعض الطموحين فيها بثورة ، ضد الفاطميين تاييدا لحركة أبى يزيد ؛ وقد تزعمها شاب وسيم ، زعم انه الامام القائم بالحق ، وافتتنت به قبائل الجهة وانضم اليها حلفاؤهم من زواوة، وصنهاجة وعجيسة ؛ واتسعت الحركة واصبح لها مؤيدون فى عدة جهات ، وقد تصدى الها أمير الزاب ، صاحب المسيلة جعفر بن على بن حمدون الاندلسى ، وقبض على زعمائها ، وأوثقهم وأوصلهم الى المنصور اسماعيل الذى أمر بصلب زعيم الحركة الاوراسى ، والتمثيل به ؛ كما فعل ذلك بالنسبة لقوم من بسكرة تورطوا فى تأييد حركة أبى يزيد ؛ وأثناء هذه الثورة ، كان المنصور فى حركة دائبة يتنقل بين قرى ومدن أوراس والحضنة ، وخاصة فحص طاقة ويلزمة ، ونقاوس ، ومقرة ، وطبنة (بجوار بريكة) عاصمة الاقليم ؛ ففى طبنة ، كبرى مدن الاقليم ، وحاضرته ، تلقى المنصور من أمير المسيلة أول خبر عن ثورة الاوراس ، فاقام فيها مدة طويلة للتهيئة والاعداد حيث تذكر النصوص انه « أعطى بطبنة الارزاق ووسع على الرجال واسقط جماعة من الزمنى ومن لم يرض صحبته ورجع من طبنة فاتاه جعفر بن حمدون هدية » (12) .

وفى مدينة مقرة ، التى انتقل اليها المنصور ملأ صفوفه بخيرة الرجال وبفرسان المعركة المرتقبة مع ابى يزيد ، وقد أجزل الهبات ، ووسع على الجهة ، واستمال جماهير

---

(11) النعمان : المصدر السابق 1 ، 183 وما بعدها ، المقريزى : المصدر السابق 1 ، 79 .

(12) بن حماد المصدر السابق26 .

كثيرة » بالطعام والكسى ووسع على كل من جاءه وأحسن الى كل من أعطاه « (13) وبفضل هذه السياسة الحكيمة ، انضمت اليه حشود من صنهاجة وعجيسة كانوا خير عدة له عندما استقر فى المسيلة ، وبدأ منها يطارد عدوه أبا يزيد • وحول أرباض هذه المدينة ، التى لعبت دورا كبيرا الى جانب المنصور فافادته (14) ، دارت معارك حاسمة صيرت أبا يزيد شريدا طريدا يندب حظه محصورا فى مضارب عجيسه ، ينتظر مصيره فى قلعة كيانة (تاقربوست) التى لم تعصمه من الهزيمة والاسر فى نهاية الامر (15) ومعنى ذلك أن قلعة الشيعة فى الزاب وهى المحمدية (المسيلة) أدت مهمتها كاملة تدعيما للشرعية •

هـ ـ وقد تركت أعمق الاثر بالنسبة لعصبية الدولة الفاطمية واصابتها فى خيرة من قادة كتامة وزواوة ، وصنهاجة وعجيسة ؛ ومن طبقة الفتيان الصقالية من ولاة الاقاليم الفاطمية أيضا •

و ـ وقد تخللت الحركة أعمال فروسية ، ودهاء ، وصور ميكافيلية ؛ ومن ذلك أن الخليفة المنصور أكرم أسرة أبى يزيد ولم ينتقم منها ، وأبو يزيد ، نراه يتظاهر بالمالكية وبالتسنن ويتصرف بدهاء مع الفقهاء ليخلصوا للحلف المشترك • ولم يف ـ هو ـ بوعده للمنصور بأن يسلم اليه نفسه ، بمجرد تامين أسرته ؛ بل قال أمام ملأ من أصحابه »انما وجههم خوفا منى « • أما الخليفة القائم بأمر الله فقد شجع المعارضين لابى يزيد ، من داخل عصبيته كى يتخلصوا منه وكادوا ينجحون لولا انكشاف أمرهم • والتجا ابنه المنصور الى اجزال الهبات ، وبذل الاموال رشوة بقصد القضاء على خصمه

---

(13) المصدر نفسه •

(14) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 72 وفيه » ومن المحمدية (المسيلة) كان يختار ما يريد ، اذ ليس بالموضع مدينة سواها « . ابن حماد : المصدر السابق 30 .

(15) المصدر نفسه 29 ـ وما بعدها ، ويشير ابن حماد الى » ان الطعام كان عنده (أبى يزيد) رخيصا ، كانت الرفاق تأتيه به من سدراتة ، وبنطيوس ، وهى من بلاد بسكرة « ولذلك انتقم منهم المنصور باغراء بنى حزر الزناتيين بهم •

ووافق بدون تردد على منح الامان لاخص انصاره من هوارة ، وبنى كملان ، ثـم لمحمد ابن حزر المغراوى الزناتى فى مقابل رصد حركات أبى يزيد ، وتبليغها فى حينها (16) .

ز ـ وقد تكاثرت الزحوف والمعارك أثناء الحركة ، حتى اختلطت ، ومع ذلك فقد ظفرت بعض المعارك بأهمية خاصة وعرفت بأسماء الامكنة ، والازمنة التى جرت فيها ، ومن ذلك : واقعة وادى الملح بين المهدية ، وتماجر ، (333هـ/944 ـ 945م وخسرهـا الفاطميون ، وواقعة عين السودان فى جبال الناقة ، وخسرها أبو يزيد ، وواقعة قصور الحيتان فى الزاب ، التى كانت كارثة على حركة أبى يزيد ، وبشيرا للمنصور الفاطمى ، بقرب الخلاص النهائى من عدوه . واهميتها انما تفوق اهمية واقعة يوم الجمعة بجوار مدينة القيروان . التى جرت فى محرم 335هـ/أغسطس 946م) (17) .

ح ـ وقد حاول بعض الطموحين استغلال فترة الصراع ، للحصول على امتيازات شخصية ، تحت ستار النسبة والولاء للعباسيين ؛ ومن هؤلاء داعية ، ظهر فى محرم 334هـ/أغسطس 945م واستمال الناس اليه ، ودعاهم الى العودة الى التمسك بالولاء للخلافة العباسية حامية السيادة الشرعية تاريخيا ، فى هذه البلاد ، وقد استعمل شعار السواد شعار العباسيين ، للتمويه ، فاستجاب له كثيرون ممن ملوا الحرب ، وتضرروا بسياسة الفاطميين ، وسياسة أبى يزيد فى اطلاق يد انصاره للسلب والنهب، وهتك الحرمات ، وكان يمكن لحركته أن تعمـر ، وتستقطب ولاء جهات كثـيرة فى افريقية ، لولا سرعة تحرك أنصار أبى يزيد للقضاء على هذه الحركة التى يبدو وكانها كانت تضر بهمأكثر من غيرهم . وقد اسر صاحب الحركة ، وقتل على يد أبى يزيد (18) .

ط ـ وقد ابلى زيرى بن مناد زعيم صنهاجة بلاءا حسنا فى حرب ابى يزيد، حتى قيل انه الح عليه فى احدى المعارك ، وطعنه حتى القاه على الارض ، واستمر القتال حوله بين أنصاره،واعدائه ، واخيرا تمكن أنصاره من النجاة به ، انما بعد تضحيات كبرى .

(16) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 83 ـ 85 ، ابن الاثير المصدر السابق 8 ، 157 ، ابن حماد : المصدر السابق 28 وما بعدها .

(17) ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 310 ، المزيزى : المصدر السابق ، 44 ـ 45 ، 48 ، 52 ، وتعليق 51 .

(18) المقريزى : المصدر السابق 1 ، 80 .

وموقف زيرى وصنهاجة الشمال ، فى هذه الحركة ، عنوان على بداية اهميتهم ، وتعاظم دورهم فى حياة الخلافة الفاطمية ، كخلفاء مؤتمنين ، مساندين لكتامة ، ولطبقة الفتيان ؛ ومن ثم فان منحهم نيابة الخلفاء الفاطميين فى حكم بلاد المغرب ، بعد رحيل المعز لدين الله الى مصر انما أتى بعد فترة اختبار طويلة ويعتبر من ناحية أخرى نضجا للعلاقة الحميمة بين هؤلاء وأولئك ·

ى ـ ومعركة أبى يزيد ، فضلا عن طابعها السياسى والمذهبى والعنصرى أيضا ، فانها تعتبر ضمن الكوارث والازمات الاقتصادية ، والاجتماعية والحضارية التى أصابت فى الصميم ، بلاد افريقية ومنطقة الزاب واوراس والحضنة ، ومنطقة كتامة ، فى العصر الفاطمى · وقد تنوعت هذه الازمات فكانت : فى شكل حرائق شبت فى اسواق القيروان، وتاهرت ، وفاس ، وارباض مكناسة ، وفى شكل مجاعات وأوبئة وغلاء فى الاسعار ، وقلة فى المؤن ، كما تمثلت أيضا فى مظاهر الجفاف وحدوث الزلازل ، وأخيرا فى سياسة المصادرة ، والجور فى الاحكام (19) · والانتقام من بعض فئات المجتمع ، لا سيما الذين أيدوا حركة أبى يزيد ، أو اشتبه فى ولائهم · وقد أصاب أهل السنة ، وفقهاء المالكية شر كثير على يد الخليفة المنصور ، ولم يخف عليهم الضغط والاضطهاد الا بعد وفاته 341هـ/952م (20) ·

ومما سبق يتضح كيف ان البتر الذين تغيوا ـ من وراء مساندة النكارية ـ انهاء الوجود السياسى وطمس الظل الحضارى للخلفاء الفاطميين وحلفائهم من فرع البرانس، لم يستطيعوا ، رغم البلاء الحسن ، وضخامة التعبئة المادية والمعنوية ان يصلوا الى هدم ما شاده فرع البرانس المستقرين ، فاستمر البنيان شامخا سليما ، وانتصرت من خلال ذلك ، الرؤية الواضحة والاهداف المحددة ، والحضارة ، والفكر ، ومظاهر العمران عموما · وفى ذلك عبرة ·

---

(19) نفسه 1 ، 85 ، ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 230 ، 242 ، 254 ، 273 ، 276 ، ابن أبى زرع : روض القرطاس 68 .

(20) ابن عذارى : المصدر السابق 1 ، 213

مصـــــادر ثـــــورة
أبى يزيـــــد مخلـــــد بـن كيــــداد

د • احسان عباس
الجامعة الامريكية ـ بيروت



بين سنتي 332 ـ 336 كانت الدولة الفاطمية او العبيدية فى افريقية مهددة بالزوال على يد ثائر من زناتة، نكاري المذهب ، هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الذى عرف بصاحب الحمار • وكانت ثورته مـــن اشد ما واجهـه الفاطميون فى تاريخهم من عنف ، لكن دراسة هذه الثورة فى تطورها ونتائجها ليست موضوع هذا البحث ، وانما اكتفى هنا بدراسة تقييمية للمصادر التى تحدثت عن تلك الثورة •

وأول ما يجذب انتباه الدارس أن المصادر التى تحدثت عن أبى يزيد وثـورتـه تنتمى الى ثلاث زوايا متباعدة ، وهى الزاوية الاسماعيلية الشيعيـــة ، والزاويـــة السنية ، والزاوية الاباضية • وربما لم تكن هذه القسمة المذهبية تستدعى ـ فى

ذاتها ـ فروقا فى النتائج ، غير أن تعيين الانتماء المذهبي للمؤرخ ـ مع معرفة موقعه زمنياً ـ يعين على تصور منهجه وأحكامه ٠

1 ـ المصادر الشيعية الاسماعيلية

تتميز المصادر الشيعية والاسماعيلية عن أبى يزيد وثورته بانها أقرب المصادر الى عصره ، ولذلك أعطت للمؤرخين المتاخرين ما حسبوه مجموعة الحقائق التاريخية التى لا يملكون لها مناقشة أو رفضا اذ كانوا فى أكثر الاحيان نقلة ٠ فابن حوقل التاجر البغدادى (ـ 380) ربما كتب ما كتبه عن أبى يزيد بعيد عام واحد من اخفاق ثورته ؛ ومع انه جاء على ذكره فى أسطر قليلة ، فان المفهوم الذى تضمنته تلك الاسطر بقى ذا صدى يتردد فى كثير من المصادر ؛ فتصويره لابى يزيد بانه « من أهل سماطة ومن فراعنتهم » (1) سيرد حتى فى المصادر الاباضية (2) ٠ وقد لخص ابن حوقل فى جملة واحدة الروح التى سيظل يحكم بها على أبى يزيد وثورته حين قال « واتسق له من الظلم والعدوان ما جعل الله بغيه نكالا عليه » ٠ (3)

ويمثل كتاب « فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف » للمسعودى (ـ 346) أول مصدر مشرقى تفصيلى فيما يتصل بثورة أبى يزيد ، وقد الف هذا الكتاب قبل « التنبيه والاشراف » اذ فرغ المسعودى من هذا الثانى فى صورته النهائية سنة 345 ؛ وقد شرح المسعودى فى كتاب فنون المعارف « خروج أبى يزيد وما كان بينه وبين جيوش أبى القاسم من الوقائع والحروب الى أن غلب على أكثر افريقية ، وحصاره أبا القاسم فى المهدية الى أن مات بها ، وخروج ابنه اسماعيل بن أبى القاسم ومواقعته أبا يزيد وما كان بينهم من الحروب ، وانفضاض الجيوش عن أبى يزيد ٠٠٠ الخ » (4) ٠ ولسنا نعرف المصادر التي اعتمد عليها المسعودى فى تاريخ تلك

(1) صورة الارض : 94 ٠
(2) انظر تاريخ أبى زكريا (الترجمة الفرنسية) : 240 ٠
(3) صورة الارض : 94 ٠
(4) التنبيه والاشراف : 334 ٠

الاحداث ، كما لا نعرف مدى التفصيلات التى أوردها ، اذ لا يشير آحد بعده الى النقل عن كتابه « فنون المعارف » ٠

ومع أن كتاب « سيرة الاستاذ جوذر » لابى على منصور الجوذرى خادم جوذر ربما لم يكن ثالثا فى الترتيب من حيث تاريخه فان المادة التى احتفظ بها ــ وهى فى أكثرها وثائق فاطمية ــ تمثل آخر عهد القائم وجانبا من عهد المنصور ، كخطبة القائم التى القاها المروزى أيام حصار المهدية حول « اللعين النكارى » (5) وخطبة المنصور حول انتصاره فى وقعة يوم الجمعة بالقيروان (6) ، ووصف الايام الاخيرة من الصراع بين المنصور وأبى يزيد (7) ٠ ومما يلفت النظر أن هذه البيانات الرسمية رغم اعترافها بان أبا يزيد نكارى لا تزال تسمى أصحابه « الحرورية » حينا و « الازارقة » حينا آخر، وتربط بين موقفه من الخلافة الفاطمية وموقف الخوارج من على بن أبى طالب ، ولعل أبا زكريا الاباضى نفسه كان ــ من بعد ــ يستلهم هذا الموقف حين تحدث عن التدمير الذى أحدثه أبو يزيد وعن أخذه الاطفال عبيدا وشفع ذلك بقوله ان سلوك نافع ابن الازرق كان كذلك الا ان أبا يزيد كان أشد اسرافا (8) ٠ أما تسمية أبى يزيد باللعين الدجال أو اللعين بن اللعين فى تلك البيانات ، فهى غير مستغربة من مصادر تتحدث عن ثائر قام يحطم خلافة أسسها « المهدى » عدو الدجال اللعين ٠

وتلك هى التسمية التى أطلقها القاضى النعمان بن محمد (ــ 263) فى كتابه «رسالة افتتاح الدعوة» حيث قدم تلخيصا جيدا للخطوات التى سارت فيها ثورة أبى يزيد (9) ، حسبما يمكن أن يتضمنه كتاب يجمل الموقف بعد وفاة المهدى اجمالا سريعا لا يسمح بكثير من التفصيلات ، خصوصا وأن القاضى النعمان استقصى أخبار أبى يزيد وحدها فى كتاب ضخم (10) ؛ وهناك ما قد يطمئن الدارس الى أن هذا الكتاب لم يضع ، وان صورته على نحو ما ــ ربما كان كاملا ــ موجودة فى الجزء الخامس من كتاب « عيون الاخبار » للداعى ادريس ؛ فهذا المؤلف قد سمح لنفسه بنقل كتاب

(5) (6) (7) سيرة الاستاذ جوذر : 54 ، 44 ، 48 ٠
(8) تاريخ أبى زكريا : 236 ٠
(9) رسالة افتتاح الدعوة : 277 ــ 279 ٠
(10) انظر المصدر السابق : 279 ٠

افتتاح الدعوة كاملا ولهذا لا يستبعد أن يكون قد نقل ايضا كتاب القاضي النعمان عن ثورة أبي يزيد كاملا كذلك (11) ، واذا كان يرد في هذا الكتاب بين الحين والحين فقرات مصدرة بـ « قال القاضي النعمان » فليس معنى ذلك أن سائر الكتاب ـ عدا تلك الفقرات ـ من وضع رجل آخر ٠ بل ان هذه الفقرات لتؤكد أن الكتاب كله من تاليف المؤلف المذكور اذ أنها لا تجيء في فواتح تلك الفقرات الا لتسجل رواية مباشرة كان القاضي النعمان طرفا فيها ، أي هي تتميز عن الاخبار الاخرى التي نقلها القاضي رواية عمن شهدوا تلك الاحداث ، أو التي استخرجها من الوثائق ٠ ويتميز هذا الكتاب بخصائص كثيرة اظهرها تلك الصفة التفصيلية التي لا يضاهيه فيها أي مصدر آخر ، فهو كتاب يكاد يؤرخ ثورة أبي يزيد شهرا اثر شهر ، ويكاد الالحاح على عمليات الكر والفر ، لكثرته ، يضيع على الدارس قدرته على التصور للمواقف الحاسمة التي مرت بها تلك الثورة ، كما قد يحرمه من ايجاد تعليل واقعي لحركات الانتصار والانهزام ، اذ تغدو الحروب ـ في نظر هذا المصدر ـ عملية آلية محضا ، ويلتف الناس حول أبي يزيد أو ينفضون عنه ، ويقوى أمره أو يضعف دون أن يكون هنالك علة مقنعة في كل ذلك ٠ ويبدو أن هذا المصدر أفاد كثيرا من الوثائق الفاطمية ، اذ أننا نجد فيه جميع البيانات التي وردت في « سيرة الاستاذ جوذر » ، فهو من هذه الناحية حاول أن يكون وثائقيا ولكن من زاوية واحدة ٠ وقد يقال ـ دون تردد ـ انه اخطر مصدر تناول شخصية أبي يزيد وثورته لانه طبع بطابعه أكثر المصادر التي جاءت بعده ، ورسخ ما شاء أن يرسخ من معلومات حول تلك الثورة وصاحبها ؛ فهو الذي اخضع حركة التاريخ للرؤيا التنبؤية حين زعم أن المهدي كان يعرف ـ بعلم سابق ـ أن « اللعين الدجال » سيعلن الثورة ، ومن اجل ذلك بنى المهدية وملأ أهراءها بالطعام ، ومن أجل ذلك لم يعبأ القائم بمقاومة أبي يزيد لانه كان يعلم أين يبلغ في ثورته ٠ وهذا المصدر هو الذي حدد المبادىء التي كان يدين بها أبو يزيد وأضفى عليه من استباحة القتل

(11) تحتل ثورة أبي يزيد في هذا الكتاب من 356 ـ 706 ، واذا صح هذا الفرض ، فان هذا الكتاب شيء مختلف أيضا عن « ذات المحن » وهي منظومة تتحدث عن تلك الثورة . انظر تعليق محققة افتتاح الدعوة : 279 (الحاشية 2) ٠

ما يقف المرء مترددا فى تقبله ، بل هو الذى نسب حتى الى صاحبه أبى عمار الاعمى انكار ذلك عليه بشدة ، واغرب من ذلك أنه نسب اليه من استباحة الفروج مـــن القصص التى انحدر بعضها الى المصادر التالية ما يسلبه كل حصافـة فى النظـــرة السياسية لدى الاولياء والاعداء على السواء ويجعـــله أقـــل الناس فهما للعادات والتقاليد ، ولا ريب فى أن هذا المصدر حين يلح على هذه الناحية يفضح خطة متعمدة للتشويه ، معتمدا ناحية شديدة الحساسية عند العرب والبربر فى تهجين ثورة أبى يزيد • ومما يقوى الشك فى نوايا هذا المصدر اشارته الدائمة الى أصحـــاب أبى يزيد باسم « البربر » مع أننا نعلم أن أكثر الملتفين حول الخلافة الفاطمية العبيدية كانوا يومئذ من كتامة وصنهاجة ، وهم أيضا من البربر ؛ فهذا التمييز ربما كان يعنى من طريق العصبية المفتعلة أن كل من كانوا يشايعون الدولة الفاطمية كانوا عـــربا بالانتساب ، وان كانت أصولهم بربرية • ويعد هذا المصدر مرجعا هاما للصورة الادبية التى واكبت ثورة أبى يزيد ؛ ولكن اذا أمعن الدارس النظر وجد أن هذا المصـــدر قد أهمل أمورا هامة منها : أنه لم يعن كثيرا بايراد وصف دقيق عن اولية أبى يزيد ونشاته ودراسته وصلته بمصر • والاماكن المقدسة والخطوات التمهيدية التى أدت الى الثورة ؛ ومنها اغفاله الحديث ـ تعمدا فى ما يبدو ـ عن الدور الذى قام به فقهـــاء المالكية القيروانيون فى ثورة أبى يزيد • ومما يوضح التناقضات التى يقع فيها هذا المصدر ما حكاه عن دور خليل بن اسحاق (أو خليل بن عدنان) فهو يختلق المعاذير لتصرفات خليل ثم لا يلبث أن ينسى ذلك كله فيحمله اللائمة فيما وقع فى القيروان • ولما كان خليل من أكبر انصار الفاطميين فان تناقض فعله مع ما كان ينتظر منه أوقع المؤلف فى شيء غير قليل من التردد ازاء ادانته النهائية • والى هذا المصدر الهـــام يرجع ذلك الحوار « الدرامى » الذى رددت المصادر بعضه من بعد بين المنصور وأبى يزيد حين وقع أبو يزيد فى أسر الخليفة الفاطمى •

ان هذا الكتاب الذى أعتقد أنه من تاليف القاضى النعمان قد أدى اكبر دور فى اقرار الصورة الكلية العامة لابى يزيد وثورته من شتى النواحى •

2 ـ المصادر السنيـة

لعل أكبر مؤثر في توجيه هذه المصادر عاملان هما : قربها أو بعدها الزمنى من ثورة أبى يزيد ، وطبيعتها فى النظر الى الاسماعلية بعامة وتلك الثورة بخاصة . وقد تأثرت المصادر السنية المشرقية بكتاب يبدو انه الف فى دور مبكر للرد على الاسماعيلية ومؤلفه هو أبو عبد الله ابن رزام الذى كان ما يزال حيا فى عهد أبى تميم معد (12) (341 ـ 365) وقد لخص ابن النديم (ـ 388) فى « الفهرست » بعض ما جاء فى ذلك الكتاب (13) ويعد كتاب ابن رزام أصلا لامرين ستكررهما المصادر السنية من بعد وهما : نسبة الاستخفاف بالشريعة للعبيديين ، وانصراف الناس عن أبى يزيد بعد انضوائهم فى صفوفه لانه أظهر الاباضية . ومما يلفت النظر فى هذا المصدر تسميته أبا يزيد باسم « المحتسب » ، وهى كلمة نجد لها مشابها فى المصادر المغربية حيث جاء فى وصف أبى يزيد « ويحتسب على الناس فى كثير من أفعالهم ... » (14) . وقد تقوت هذه الصورة للاسماعيلية بما كتبه عنهم أبو بكر ابن الطيب الباقلانى (ـ 403) في كتابه « كشف أسرار الباطنية » (15) . ولكنا لا نعلم هل تعرض هذا المؤلف فى كتابه لثورة أبى يزيد أولا ، فان النقول عنه لم تورد شيئا من ذلك ، وان كان يغلب على الظن أنه لم يكن ليمر بتلك الثورة مغفلا لها .

ويجيء كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضى عبد الجبار بن أحمد المعتزلى (ـ 415) فى سياق المؤلفات التى تأثرت بكتاب ابن رزام ، فكتاب القاضى ليس مصدرا تاريخيا بالمعنى الدقيق ، ولكنه يكشف عن تفسير خاص للثورة ولشخصية صاحبها : فأبو يزيد امرؤ ضعيف فى حاجة الى حمار لانه يعجز عن ركوب فرس ، وقد اتبعه الناس لانه

---

(12) هذا مستنتج مما جاء فى تثبيت دلائل النبوة للقاضى عبد الجبار 2 : 611 « قال أبو تميم مرة : لا يهونكم ما صنع ابن رزام... » .

(13) الفهرست : 238 ـ 239 .

(14) ابن عذارى 1 : 193 وانظر ابن خلدون .

(15) يسميه ابن عذارى (1 : 158) كشف الاسرار وهتك الاستار .

ازال الظلم والمكوس عنهم (16) ؛ والقائم لم يكف عن محاربة أبي يزيد لانه كان يعلم اين سيبلغ ومتى يبدأ نجمه في انحدار ، وانما لان القائم عرض له وسواس وزال عقله مما نزل به من الذل (17) ، وما انصرف الناس عن أبي يزيد الا لان المنصور ضمن لهم تغيير سيرة أبيه وجده وألا يتعرض للديانات كما أنه أخذ يتالفهم باعمال البر (18)٠ أما في بادىء الامر فان الناس التفوا حول أبي يزيد ــ وهم يعلمون انه نكاري ــ لانهم قالوا « هذا وان كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يلعن الانبياء ومعه حفظ الاموال » (19) وقد انفرد القاضي عبد الجبار ــ بين جميع من أرخوا تلك الثورة ، بتفسيره الخاص لبعض مظاهرها وتقلبات الاحوال فيها ٠

وبينما كانت المؤلفات المشرقية السنية المبكرة تنتحي منحى جدليا ، بتاثير من ابن رزام ، كانت المؤلفات المغربية القريبة نسبيا من عصر تلك الثورة تخضع ـ بدرجات متفاوتة ـ لوقوع مؤلفيها في حيز الدولة الفاطمية أو المؤثرات الفاطمية ، وللمصادر الفاطمية المبكرة ٠ وفي أول قائمة المؤرخين هؤلاء يجيء محمد بن يوسف الوراق القيرواني (292 ـ 363) (20) ، ومن السهل أن نجد أثره الجغرافي واضحا لدى البكري (ـ 487) ولدى كل من اعتمد البكري من بعد كصاحب « الاستبصار » ومؤلف « الروض المعطار » ولكن أثره التاريخي غير واضح كثيرا ، وان كان الترجيح يميل الى ان الرقيق ربما تاثر به وافاد من مؤلفاته ٠ ولعل القطعة التي احتفظ بها ابن عذارى (21) عن أولية أبي يزيد منقولة عن الرقيق نفسه ؛ غير ان ضياع ما دونه الرقيق عن ثورة أبي يزيد يكون ثغرة في تصورات الدارسين لتلك الثورة ٠ كما انه لا يمكن الدارس من ان يحكم جزما هل تاثر الرقيق بكتاب القاضي النعمان والى أي مدى كان ذلك ، وهل هو الواسطة في نقل روح ذلك الكتاب الى المصادر التي جاءت

---

(16) تثبيت دلائل النبوة 2 : 391 ، 2 : 602 ٠

(17) (18) المصدر نفسه ٠

(19) تثبيت 2 : 391 وانظر 1 : 107 ، 2 : 602 ٠

(20) ذكر سنة ولادته ابن عذارى في البيان المغرب 1 : 139 ٠

(21) ابن عذارى 1 : 193 ٠

من بعد · ان الرقيق عاش جانبا من حياته حين كانت افريقية ما تزال تعترف بالنفوذ العبيدي ولهذا ليس ما يمنع أن تكون مادة التاريخ التي كتبها المؤلفون الاسماعيليون مقبولة لديه بقوة · ويبدو أن الرقيق انفرد أيضا بذكر أمور لم ترد في المصادر الاسماعيلية وحين يصرح ابن عذاري بالنقل عن الرقيق نجد هذا المؤلف ينفرد بذكر تسمية جديدة لابي يزيد وهي « شيخ المؤمنين » · (22)

ويأتي كتاب « رياض النفوس » للمالكي (ـ 453) مكملا للنقص المتعمد في كتاب القاضي النعمان ، اذ ابرز المالكي (وعنه القاضي عياض (ـ 544) في كتابه ترتيب المدارك) الدور الكبير الذي قام به علماء المالكية القيروانيون في تاييد ثورة ابي يزيد بالخروج معه وحث الناس على الانضمام اليه واصدار الفتاوى بذلك · وبين الفتوى التي أصدرها الممسي ـ وهي فتوى نموذجية ـ وما استنتجه القاضي عبد الجبار شبه قوي يوحي بأن عبد الجبار صاغ فحواها بأسلوبه الخاص ، اذ يقول الممسي : « ان الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الاسلام ··· وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين » (23) · ويقوى المالكي من الدواعي التي هيأت لاعلان الثورة على بني عبيد حين يعدد الكبائر التي ارتكبوها (24) وألوان التعذيب التي أنزلوها بعلماء المالكية (25) · ولا ريب في أننا هنا ازاء موقف مذهبي تطغى فيه الاتهامات ، وهو يمثل نقضا مباشرا للمصادر الشيعية ؛ ولكن هذا اللون من المصادر السنية لا تعنيه شخصية أبي يزيد أو ثورته الا بمقدار ما كانت تمثله من انقاذ مأمول للمذهب المالكي ـ أو للسنة ـ من سيطرة العقائد الاسماعيلية · ولهذا فان هذا اللون من المصادر ـ حين تخفق تلك الثورة ـ لابد من أن يبحث عن سبب اخفاقها فلا يجده الا في شخصية أبي يزيد ·

---

(22) ابن عذاري 1 : 217 وهذه التسمية عند ابن حماد : 20 « شيخ المسلمين » ·

(23) رياض النفوس 2 : 144 وانظر رأي أبي اسحاق السبائي 2 : 164 وفي ترتيب المدارك 2 : 388 ·

(24) رياض النفوس 2 : 163 ـ 164 ·

(25) انظر رياض النفوس 2 : 28 ـ 29 ، 167 ، 318 ، 334 ، 345 وترتيب المدارك 2 : 318 ، 334 ، 338 ·

وليس يتضح لمحمد بن سلامة القضاعي (ـ 454) أي موقف من ثورة أبي يزيد فان النقول عنه في هذه الحادثة (26) قاصرة عن تصويره ذلك · ولكن يبدو أنه كتب على نحو « حيادي » ، فان الرجل كان شافعيا وكان في الوقت نفسه كاتبا للجرجرائي وزير الدولة الفاطمية ·

ومع أبي عبد الله محمد بن سعدون بن علي ، الذي ربما كان معـاصرا للمالكي والقضاعي (27) تعود الخصائص التي أبرزها كتاب المالكي ، اذ نجد عند ابن سعدون تفصيلات دقيقة عن الرايات التي حملها فقهاء القيروان حين انضموا الى أبي يزيد ، شبيهة بالتي ذكرها المالكي ، كما ان ابن سعدون عد من انضم للثورة من الفقهـاء والعباد رجلا رجلا (28) · وتدل الخلاصة التي أوردها ابن عذاري نقلا عن كتـاب ابن سعدون « تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلـب الازمان » (29) على ان موقف ابن سعدون من العبيديين لا يختلف كثيرا عن موقف ابن رزام أو الباقلاني ، وانه كان يكن عداء شديدا لهذا المذهب ، وعصبية مشوبة بالحزن على ما اصاب بلده · وقد أكد ابن سعدون الرواية التي اتهمت أبا يزيد بانه عرض العلماء للقتل « لانه ـ فيما ظن ـ اذا قتل شيوخ القيروان وائمة الدين تمكن من اتباعهم فيدعوهم الى ما شاء فيتبعونه » (30) · ومن ناحية أخرى ابرز المالكي أن انضمام الفقهاء لثورة أبي يزيد لم يكن عن ايمان خالص بعدالة ثورته وسلامـة شخصيته وانما كان موقفا انتهازيا الى حد ما ، فقد روى عن أبي اسحاق السبائي قوله : « فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد ، والله يسلط عليه اماما عادلا يخرجه عنا » (31) ·

---

(26) انظر مثلا ابن عذاري 1 : 220 ، 228 وابن حماد : 49 ، 51 ·

(27) يتوقف تلخيص ابن عذاري عن كتاب ابن سعدون بذكر المستنصر ، وقد تـوفي المستنصر 487 ·

(28) ابن عذاري 1 : 217 ·

(29) ابن عذاري 1 : 281 ـ 287 ·

(30) ابن عذاري 1 : 218 ·

(31) رياض النفوس 2 : 164 وترتيب المدارك 2 : 318 ·

وبسبب الصلة بين ثورة أبى يزيد والخلافة الاموية فى الاندلس يمكن أن يعد كتاب « المقتبس » لابن حيان (ــ 469) من المصادر الهامة عن جانب من تلك الثورة ، أعنى جانب البعوث والسفارات التى وفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر من لدن أبى يزيد تطلب الامداد . وتكمن أهمية ابن حيان ــ الى جانب خصائصه الاخرى ــ فى اهتمامه بالتفصيلات الدقيقة (32) . وقد نقل ابن الابار (ــ 658) قطعة عن المقتبس فى كتابه « الحلة السيراء » (33) ولكنها شديدة الاضطراب ، ويمكن ضبط ما فيها ــ الى حد ما ــ بعرضها على ما نقله ابن عذارى حول أبى يزيد عن المقتبس أيضا (34) . وليس فى هذين المصدرين ما يدل على ان الناصر حقق شيئا من رغبة ابى يزيد ، ولكن ما ورد فى « عيون الاخبار » يدل على النقيض اذ يصرح هنالك أن الناصر أرسل لابى يزيد مددا مع أيوب ابنه (35) ، كما أمر ــ فى مرة أخرى ــ محمد بن رماحس عامل بجانة بالابحار في أسطول فيه عسكر كثيف وسلاح لمعونة أبى يزيد (36) . وتشير بعض الروايات الى أن أبا يزيد دعا للناصر منذ بداية ظهوره ، فمن المستبعد ان يهمله عبد الرحمن الناصر ويتركه دون مدد .

وهناك كتاب فى تاريخ القيروان باسم « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لابى محمد عبد العزيز بن شداد من ذرية المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان من أمراء العساكر فى دولة صلاح الدين الايوبى ، فهو على ذلك كان حيا فى أواخر القرن السادس ، وقد اعتمد النقل عن كتابه ابن خلكان والتجانى صاحب الرحلة والنويرى فى نهاية الأرب ، ولعله هو الذى سماه ابن الاثير الامير عبد العزيز (37) ونقل عن

(32) وقفت النسخة من المقتبس التى ظهرت حديثا فى الخزانة الملكية بالرباط قبل قيام ثورة أبى يزيد .

(33) الحلة السيراء 2 : 390 ــ 391 .

(34) ابن عذارى 2 : 212 ــ 214 .

(35) عيون الاخبار 5 : 522 .

(36) عيون الاخبار 5 : 541 .

(37) تاريخ ابن الاثير ــ 8 : 27 .

كتاب له فى تاريخ افريقية والمغرب (ربما كان هو عين الكتاب المذكور آنفا باسم الجمع والبيان) • ولا ريب أن ابن شداد قد تصدى فى كتابه (أو كتابيه) لثورة أبى يزيد ، ولكن ليس من السهل أن نعرف المصادر التى اعتمدها ، اذ لم يصرح أحد بنقل شىء من أخبار أبى يزيد عنه ، ويعتقد الاستاذ شتيرن أن ابن الاثير نقل أحداث ثورة أبى يزيد عنه (38) ، ولو وضع ذاك بصيغة الفرض لكان أسلم •

وحين نبلغ ابن حماد (أو ابن حماده) صاحب كتاب « القبس » (39) تقف عند حلقة هامة فى سلسلة المؤرخين السنيين الذين كانوا ما يزالون ينظرون إلى ثورة أبى يزيد والى الخلافة الفاطمية نظرة مقارنة وموازنة ، فأبو يزيد ـ عند هذا المؤرخ ـ عقوبة من الله للشيعة الذين أمروا بسب الغار والعباء واقترفوا القتل والتعذيب • ولكن ابن حماد يمعن فى البحث عن السبب الذى جعل الناس يتبعون أبا يزيد فيهتدى الى أنهم لم يكونوا يعلمون مذهبه ، « فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة » (40) ، وفى هذا تجاهل متعمد لما أقر به الفقهاء في بياناتهم وفتاويهم • وابن حماد هذا الذى ينقل عنه ابن عذارى هو غير ابن حماد الذى نشر باسمه كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » (41) ، فالاول منهما كان معاصرا للقاضى عياض (ـ 544) (42) بينما يذكر الثانى أنه انتهى من كتابه سنة 617 (43) ؛ ثم ان المقارنة بين ما ينقله ابن عذارى عن ابن حماده وما ورد فى كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » يؤكد خلافا أصيلا فى المنحى والموقف بين الرجلين • ذلك لان هذا الكتاب يمثل تعاطفا واضحا مع

(38) الموسوعة الاسلامية 1 : 164 (الطبعة الجديدة) •

(39) ذكره ابن عذارى وقرن اسم كتابه به فى البيان 1 : 5 وانظر مفاخر البربر : 64 حيث ذكر الفقيه الحافظ التاريخى أبا عبد الله محمد بن حمادوه البرنوسى مؤلف كتاب لمقتبس (اقرأ : القبس) فى أخبار المغرب والاندلس •

(40) ابن عذارى 1 : 216 •

(41) أشار الى ذلك شتيرن (الموسوعة 1 : 164) •

(42) قال ابن حماده (ابن عذارى 1 : 227) رأيت هذا السجل (سجلا من الحكم المستنصر لاهل سبتة) عند القاضى عياض •

(43) أخبار ملوك بنى عبيد : 64 •

الفاطميين ، وبهذا نفسه يثير مشكلة لدى الدارس فاذا صح أن مؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي (ــ 628) (44) ، صاحب كتاب « النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة » (45) الذي كان قاضيا في عهد الموحدين فليس هناك ما يسوغ هذا التعاطف مع الفاطميين لدى قاض سني مالكي . ورغم ملاءمة تاريخ الكتاب كي ينسب لابن حماد ، فالشك لدى في صحة نسبته اليه اقوى . أما الكتاب نفسه فانه موجز في مجمله ومصادره بعد المستنصر فقيرة (46) . وتعد القطعة التي أوردها عن أبي يزيد تفصيلية نسبيا ، وهي تحتوي معلومات هامة وخاصة عن أحواله قبل اعلان الثورة ، ويبدو أنه قد تاثر فيها ببعض المصادر الاباضية أو بمن نقل عن تلك المصادر ، فهو الوحيد الذي يذكر أن من بايع ابا يزيد واقام معه سموا « العزابة » ، ومن بايعه وانصرف عنه سموا « عدة المسلمين » (47) . وقد أولى المؤلف اهتماما خاصا بالمرحلة الاخيرة من الصراع بين أبي يزيد والمنصور واغفل ما قبل ذلك (48) . واذا قورن هذا الكتاب بالمصدر الاسماعيلي الكبير لكشفت المقارنة عن اتساق في الاحداث وتوافق أحيانا في بعض العبارات (49) ، مع اختلاف في أسلوب العرض ، وهو اختلاف يشير الى أن المصدر الذي ينقل عنه المؤلف شاء أن يمنح كتابه مسحة أدبية مميزة .

(44) ترجمة في عنوان الدراية : 218 ــ 220 ويكنيه صاحب مفاخر البربر : 65 بأبي الحسن .

(45) ما نقله أماري (المكتبة الصقلية : 317) عما يسمى كتاب نبذة المحتاجة ماخوذ نصا عن كتاب « اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم » .

(46) يعتمد على الرقيق والقضاعي وابن حيان وبعد عهد المستنصر يعتمد الرواية الشفوية عن أبي المكارم هبة الله المصري وأحد الطلبة من الحجاج .

(47) أخبار ملوك بني عبيد : 20 .

(48) أشار الى ذلك الاستاذ لوترنو في مقاله عن ثورة أبي يزيد : 104 .

(49) قارن ما جاء في أخبار ملوك بني عبيد : 30 بنص عيون الاخبار : 574 ، وهنا أيضا يرى الاستاذ شتيرن أن هذا المؤلف ينقل أيضا ــ دون ريب ــ عن الرقيق (الموسوعة 1 : 164) .

ها قد مرت ثلاثة قرون على ثورة أبى يزيد ولم يعد سوطا أرسله الله على معطل الشريعة ، كذلك زالت دولة الفاطميين ، وعاد الفريقان يستويان فى أنهما كانا خارجين على السنة ، دون ترجيح أو مفاضلة ـ ولهذا لم يعد المؤرخ يهتم كثيرا فى اختيار مصادره ، فاذا تناول تاريخ أبى يزيد فلا ضير فى ان يكون المصدر اسماعيليا معاديا ، ولهذا لا تختلف المصادر التاريخية ابتداء من القرن السابع وما بعده ، أحدهما عن الآخر ، الا فى طبيعة المصادر التى تنقل عنها ، فابن الاثير (ـ 630) يلخص المصدر الاسماعيلى بلباقة ، حاذفا منه الاشعار والتفصيلات والخطب والرسائل (50) ، وابن الابار (ـ 658) ينقل فى « الحلة السيرا » عن هذا المصدر نفسه أو عمن نقل عنه (51)، وابن خلكان (ـ 681) يورد عن أبى يزيد فقرة يستخلصها ـ على عادته فى الحذر ـ عن أستاذه ابن الاثير أو عن ابن شداد (52) وابن عذارى (ـ 695) يجمع مادته من عدة مصادر منها الرقيق وابن حماده البرنوسى والقضاعى وابن سعدون (وهو الوحيد الذى يعتمد النقل عن هذا الاخير) والبكرى وربما نقل عن غيرهم دون أن يصرح بذلك • ولخص لسان الدين ابن الخطيب (ـ 776) ثورة أبى يزيد فى عبارات قليلة ـ لكنها جامعة ـ تدل على أنه مطلع على المصادر الاولية (53) • ولا يختلف موقف ابن خلدون (ـ 808) كثيرا عن موقف سابقيه الا فى أنه أرخ ثورة أبى يزيد مرتين : مرة لخص ما جاء عند ابن الاثير بشىء من التضييق ، ومرة أخرى جاء بتفصيلات يتفق فيها مع « أخبار ملوك بنى عبيد » وهذه المادة مأخوذة ـ فى أغلب الظن ـ عن تاريخ الرقيق (54) • ونقل المقريزى (ـ 845) فى كتابه « اتعاظ الحنفا » ما جاء به ابن الاثير ولم يضف اليه الا أشياء قليلة (55) •

(50) تاريخ ابن الاثير 8 : 422 ـ 441 •
(51) الحلة السيراء 2 : 387 ـ 389 •
(52) وفيات الاعيان 1 : 235 •
(53) أعمال الاعلام 3 : 53 ـ 54 •
(54) كتاب العبر 4 : 40 ـ 44 ، 7 : 13 ـ 17 •
(55) اتعاظ الحنفا 1 : 75 ـ 85 وما ذكره فى الخطط 1 : 351 ليس الا موجزا يسيرا ؛ أما المصادر الاكثر تأخرا مثل المؤنس لابن أبى دينار والحلل السندسية للسراج فقد أغفلتها لانها تلخص عن المصادر المشهورة كابن الاثير والنجانى ••• الخ •

وهذا الموقف الذى بلغه المؤرخون ـ فى القرن السابع وما بعده ـ هو الموقف الذى تبناه الجغرافيون منذ البداية، اذ كانوا ينقلون عن المصادر أيا كانت لونها دون محاكمة، منذ عهد البكرى (56) · وعلى مثل ذلك جرى الزهرى (بين 541 ـ 556 (57) ومؤلف الاستبصار (بعد 587) (58) وياقوت (ـ 624) فى « معجم البلدان » (59) والقزوينى (ـ 682) فى « آثار البلاد » (60) ، وابن عبد المنعم الحميرى (ـ 727) فى « الروض المعطار » (61) · وللس يشذ عن هؤلاء الجغرافيين الا التجانى (بعد 717) فى رحلته ، فانه ينطلق من موقف الكره للاباضية ، وهو يعتقد أن خوارج زمنه « من بقايا الشرذمة الضالة التى قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد فى افريقية ، فانه لما أظفر الله به واراح منه البلاد والعباد تفرقت أتباعه فى الاقطار » (62) · ولهذا انفرد التجانى عمن سواه من الجغرافيين باختيار مصادره ، واكثر من ايراد المادة التاريخية المفصلة ، وهناك مشابه فى السياق ـ لا فى حرفية العبارات ـ بين بعض ما يذكره وبعض ما ورد فى « عيون الاخبار » (63) · ولعله يستمد مادته من تاريخ الرقيق ، وهو لا يصرح بالمصادر التى ينقل عنها ولكنه يتعمد أن يوحى أحيانا بانه يلخص من عدة مصادر اذ يبتدأ عبارته بقوله : « قال المؤرخون » · (64)

---

(56) انظر البكرى : 49 ، 57 ، 59 ، 145 ·

(57) الجغرافية : 111 وهو يسمى أبا يزيد « عدو الله » ويقول « فأراح الله منه البلاد والعباد » ·

(58) الاستبصار : 205 وهو يردد تهما ورد مثلها فى المصدر الاسماعيلى ·

(59) معجم البلدان فى مادتى « سوسة » و « وقلعة أبى طويل » والنقل عن البكرى ·

(60) آثار البلاد : 276 ·

(61) المواد : الاخوان ـ أذنة ـ أوراس ـ باغاية ـ ترنوط ـ تقيوس ـ تحاجر ـ تونس ـ سجلماسة ـ قلعة أبى طويل ـ قلعة الحجار . وينقل عن البكرى والاستبصار ، ويقول فى مادة أوراس « الى أن قتل واستراح المسلمون منه ومن خبائث سيرته وقبيح أفعاله ··· » ·

(62) رحلة التجانى : 119 ·

(63) قارن ما ورد فى الرحلة : 22 بما فى عيون الاخبار 5 : 448 ـ 449 ·

(64) رحلة التجانى : 327 وانظر سائر اخباره : 24 ، 27 ، 119 ، 253 ، 321 ، 323 ، 325 ـ 327 ·

3 ـ المصادر الاباضية :

لما كان أبو يزيد نكاريا ـ أى منشقا على الاباضية ـ (65) • فليس من المنتظر أن يعامله مؤرخو الاباضية بتسامح كثير ، أو أن يعتبروه « مجاهدا » قام لمحو الباطل • ولعل أبا زكريا الاباضى (أواخر القرن السادس) أميل الى صف الفاطميين منه الى جانب أبى يزيد ، فهو يقترن عنده بفرعون ، بل ان أبا يزيد اقترف من أعمال العنف والكفر ما فاق به ما يروى عن فرعون وعن أشد عماله ظلما ؛ وهو يسميه « عدو الله » ، ويلصق به حكايات لا نجدها عند أشد المصادر الاسماعيلية عداوة لابى يزيد • ثـم هو فى المقابل يتقبل الرواية التى تتردد عن علم المهدى بالغيب وأنه كان يعرف بخروج بربرى عليه ، ومن أجل ذلك بنى المهدية (66) • ولدى أبى زكريا معلومات لم توردها المصادر الاخرى عن أولية أبى يزيد ونشأته ، ولكن ميل المؤلف الى الاساطير يجعـل الدارس مترددا فى حمل رواياته على محمل القبول ، وخاصة فى أخباره عن مرحلة المد فى انتصارات أبى يزيد ، كما أنه يردد عن « فحولة » أبى يزيد قصصا كالتى أوردها المصدر الاسماعيلى • ولعل معظم المادة التى أوردها أبو زكريا هو مجموعـة الحكايات التى ظل يتناقلها الناس البسطاء فى مجالس سمرهم وأن لون التاريخ فيها أصبح باهتا •

وفى القرن السابع كتب أبو العباس الدرجينى طبقاته ، وفيها تلخيص ـ دقيق نسبيا ـ لتاريخ أبى زكريا (67) • وعلى تاريخ أبى زكريا اعتمد أيضا أحمد بن سعيد

(65) ليس هذا موضع البحث فى القرون القائمة بين النكار وبين أصلهم الذى انشقوا عنه (أى الاباضية) ولكن نلاحظ أن المصادر السنية لا تميز بين فرق الخوارج الفـرعية (انظر مثلا وصف افريقية والاندلس من نزهة المشتاق للادريسى : 128 ، 121) وليد مؤلف الاستبصار : 205 أبا يزيد من الصفرية ، وتابعه فى ذلك صاحب الروض (سجلماسة) وكذلك قال ابن خلدون 4 : 40 •

(66) تاريخ أبى زكريا : 226 ـ 228 ـ 246 ـ 236 ـ 242 (الترجمة الفرنسية) •

(67) انظر مقالة لوترنو : 104 •

الشماخى (ـ 928) فى سيره ، حيث جاء على ذكر أبى يزيد عرضا (68) • ان البعد الزمنى للمصادر الاباضية (وهى ترتد الى مصدر واحد) عن أبى يزيد وثورته جعلها لا ترى فيها سوى « ظلمة » الانشقاق على المذهب الأم ، وبهذا ترى صاحبها « عدوا » هزم لتنكبه الطريق السوى •

مما تقدم نرى أن المصادر عن أبى يزيد وثورته مرت فى ثلاث مراحل :

1 ـ مرحلة القضية تصارع قضية أخرى ، وفى هذه المرحلة استطاعت المصادر الفاطمية أن تؤكد ـ بالسبق الزمنى ـ كل ما تريد أن تصم به أبا يزيد وثورته ، ووضعت حول كثير من الحقائق الموضوعية ستارا كثيفا من دخان العداوة المذهبيـــة ، لم يستطع أحد اختراقه •

2 ـ مرحلة القضية المضادة : وقد تولتها مصادر سنية لكنها فى الوقت نفسه لم تستطع أن تتعاطف مع شخصية أبى يزيد ، وقد أدى بها ذلك الى تقبل كثير من التهم التى رددتها مصادر المرحلة الاولى ، وشاركتها فى ذلك المصادر الاباضية •

3 ـ مرحلة النقل المحض • واذا استثنينا ابن عذارى الذى مال الى النقل عن مصادر « المرحلة المضادة » وجدنا أغلب المؤرخين والجغرافيين قد لجأوا الى نقل روايات مؤرخى المرحلة الاولى ـ مباشرة أو بالواسطة ، وباستثناء القاضى عبد الجبار ـ وهو يتجنب الدخول فى التفصيلات ، لا نجد أحدا يحاول أن يرى ثورة أبى يزيد من زاوية ايجابية • وعلى هذا ظل أكثر ما عرف من تفصيلات عن هذه الثورة يمثل ما يريده « التاريخ الرسمى » لا صورة ما جرى فى الواقع •

---

(68) سير الشماخى : 279 ـ 280 •

مصــــادر البحــث

ابن حوقل (ــ 380) : صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

المسعودى (ــ 346) : فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف (انظر التنبيه والاشراف) .

المسعودى (ــ 346) : التنبيه والاشراف ، صورة عن الطبعة الاوروبية ، مكتبة خياط ، بيروت .

أبو على المنصورى الجوذرى (؟) : سيرة الاستاذ جوذر ، تحقيق الدكتورين محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

القاضى النعمان بن محمد (ــ 363) : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت 1970 .

ابن النديم (ــ 388) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد طهران 1971 .

القاضى عبد الجبار بن أحمد (ــ415) : تثبيت دلائل النبوة (1 ــ 2) تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، بيروت ، 1966 .

الرقيق القيروانى (القرن الخامس) : تاريخ افريقية والمغرب (نقول عنه فى المصادر).

أبو عبد الله المالكى (ــ 453) رياض النفوس ، ج 2 (مصورة عن مخطوطة تونس) .

محمد بن سلامة القضاعى (ــ 454) : تاريخ القضاعى (نقول عنه فى البيان المغرب) .

أبو مروان بن حيان الاندلسى (ــ 469) : المقتبس من تاريخ الاندلس (نقول عنه فى البيان والحلة السيراء) .

أبو عبيد البكرى (ــ 487) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان، الجزائر 1857 .

القاضى عياض بن موسى (ــ 544) : ترتيب المدارك (1 ــ 4) تحقيق الدكتور محمود بكير ، بيروت 1967 .

أبو زكريا الاباضى (أوائل القرن السادس) : تاريخ أبى زكريا .
Chronique d'Abou Zakaria par Emile Masqueray, Alger, 1878.

ابن حماد (أو حماده) البرنوسى (أواسط السادس) : كتاب القبس فى أخبار المغرب والاندلس (نقول منه فى البيان المغرب) .

محمد بن أبى بكر الزهرى (أواسط السادس) : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، دمشق 1968 .

مؤلف مجهول (أواخر السادس) : الاستبصار فى عجائب الامصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، 1958 .

ياقوت الحموى (ــ 624) : معجم البلدان (I ــ 6) ، تحقيق وستنفلد •
ابن حماده الصنهاجي (ــ 628) : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرهم ، تحقيق م • فاندرهايدن ، الجزائر ــ باريس ، 1927 •
أبو العباس الدرجيني (القرن السابع) : طبقات الدرجيني •
ابن الاثير (ــ 630) : الكامل فى التاريخ ج : 8 ط • صادر ، بيروت •
ابن الابار (ــ 658) : الحلة السيراء (I ــ 2) تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة 1963 •
ابن خلكان (ــ 681) : وفيات الاعيان ج I، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968.
زكريا بن محمد القزويني (ــ 682) : آثار البلاد ، ط • صادر ، بيروت •
ابن عذارى المراكشي (نحو 695) : البيان المغرب (I ــ 2) تحقيق ليفى بروفنسال ، لــيدن ، 1948 •
مؤلف مجهول (بعد 712) : مفاخر البربر ، تحقيق ليفى بروفنسال ، الرباط ، 1934 •
أبو محمد التجانى (بعد 717) : رحلة التجانى ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، 1958 •
ابن عبد المنعم الحميرى (ــ 727) : الروض المعطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بــيروت 1975 •
لسان الدين بن الخطيب (ــ 776) : أعمال الاعلام ج : 3 ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1964 •
ابن خلدون (ــ 808) : تاريخ ابن خلدون ج : 4 ، 6 ، 7 ط • بولاق •
تقى الدين المقريزى (ــ 845) : اتعاظ الحنفا ، ج : I ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهــرة ، 1967 •
تقى الدين المقريزى (ــ 845) خطط المقريزى ، ط • بولاق •
القاضى ادريس عماد الدين (ــ 872) : عيون الاخبار ج : 5 (نسخة خطية بحوزة الدكتور مصطفى غالب) •
أحمد بن سعيد الشماخى (ــ 928) سير الشماخى ، ط • قسنطينة ، الجزائر •
ابن أبى دينار (القرن الحادى عشر) : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس 1387 •
محمد الوزير السراج (ــ 1149) : الحلل السندسية ج : 4 ، تحقيق محمد الحبيب الهيله ، الدار التونسية للنشر ، 1970 •

La révolte d'Abou Yazid au x^e siècle, par Roger Le Tourneau. Les Cahiers de Tunisie, I (1953) pp. 103-125.
Abu Yazid Makhlad b. Kaidad by S.M. Stern Encyclopaedia of Islam (New édition), vol. I, p. 163, 1960.

طبنـــة مدينـــة الـــزاب،والاوراس
فى العصـــور الوســـطى

د· لقبـال موسى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجزائر
نائب بالمجلس الشعبى الوطنى

1 ـ الموقع الجغرافى لمدينـة طبنـة :

تقع آثار مدينة طبنة على بعد حوالى 4 كلم جنوب مدينة بريكة الحالية على الطريق المؤدية الى مدينة بسكرة النخيل ، والى بلدية مدوكال التابعة لبريكة ·

ـ وطبنة تقع ضمن بلدية أخرى من بلديات دائـرة بريكة ، تسمى الآن بلدية بيطام ·

ـ تعد طبنة فى نظر الجغرافيين القدماء ، ضمن اقليم الزاب الواسع الامتداد الذى يوجد حداه عند مشارف أشير ، وأطراف المغرب الادنى أو افريقية · ويصفونها بمدينة « الزاب » الكبرى ، أى عاصمته ، وقاعدته الاولى · تضاهى فى أهميتها فى المنطقة ، أهمية القيروان فى افريقية · وأهمية سلجماسة وفاس فى المغرب الاقصى ·

ـ وفى نظر الجغرافيين المحدثين ، تعتبر طبنة مدينة شط الحضنة ، وفى منطقة الشطوط ، أى فيما يسمى بالجزائر الوسطى ٠

وميزة التوسط تنعكس آثارها فى المنطقة ، فى تلقى تاثيرات الشمال البحرية ، وتأثيرات الجنوب الصحراوية ، وتظهر عمليا ، فى المناخ ، وفى الحيوان ، والنبات ، وفى نوع الانتاج ، والكسب ، ثم فى انماط الحياة الاجتماعية عموما ٠

وفى اطار شط الحضنة ، تحتل منطقة طبنة الجزء الشرقى منه ، وتمثل سهولا واسعة تمتد على بضعة كلم ٠٠٠ وتنحصر بين وادين هامين فى المنطقة هما :

وادى بريكة جنوبا ، ووادى بيطام شمالا ٠

ويعتبر وادى بيطام بالنسبة لمنطقة طبنة أهم بكثير من وادى بريكة حتى ان الجغرافيين المسلمين جعلوه السبب الرئيسى فيما تمتعت به من ثروة زراعية وحيوانية ، ورخاء ٠

2ـ المناخ :

ومناخ المنطقة كلها ، قارى ، فمميزات الصيف : الطول ، والحرارة والجفاف والرياح الشديدة والمترية أحيانا والسماء الصافية التى لا سحب فيها ٠

ومميزات الشتاء : البرد القارس الذى قد تصحبه رياح ، وأمطار ، أما السماء فى الشتاء فغير صافية بسبب السحب الخفيفة ٠

والجو اللطيف والممطر أحيانا من مميزات فصلى الربيع والخريف ٠

ومن تسجيل درجات الحرارة لمدينة بريكة يلاحظ :

ـ أن متوسطها فى شهر جانفى هو 8 درجات مأوية ٠

ومتوسطها فى شهر جويلية هو 31 درجة ٠

أما كمية الامطار السنوية فلا تتجاوز أحيانا فى مدينة بريكة 224 ملم ومن أجل ذلك ، تبدو الحياة النباتية فقيرة مظهرها : الحشائش والاعشاب والاشجار القليلة ،

والزراعات الخفيفة . وعلى هذه تقوم حياة البشر وقطعان الماشية لان المنطقة مشهورة بتربية أجود الانواع منها · لا سيما الشاء ، والخيل ·

3 ـ طبيعة الارض فى منطقة طبنة (بريكة) :

يميز بالنسبة للارض فى منطقة طبنة ، بين نوعين :

أ ـ نوع يسمى فى عرف المنطقة (الحي) ويعتمد على الري المنتظم بواسطة الينابيع ، والاودية ، والسدود ؛ والآبار ، ومساحته قليلة جدا ، بالقياس الى النوع الآخر الذى يعتمد على الطبيعة ؛ بسبب قلة مشاريع الرى فى هذه المنطقة الفقيرة .

ب ـ أما النوع الثانى ويسمى فى عرف الجهة « بالجلف » أو « البعل » فيعتمد على كرم الطبيعة ، أى على الامطار . والفيضانات · ومساحة هذا القسم كبيرة جدا ·

والذى يلاحظ أن أية رغبة فى احياء هذه المنطقة وانعاشها اقتصاديا انما تكون بالعناية باستصلاح أراضى الجلف ، وجعلها منتجة فى كل وقت بتوفير المياه وذلك بالتوسع فى حفر الآبار ، واجراء مسح كامل على مناطق الثروة المائية ، وتشجيع السكان بالقروض لحفر الآبار ؛ وتنظيم الثروة المائية الموجودة فعلا ، واحياء الآبار القديمة ، وتسهيل الحصول على محركات بأسعار معقولة ؛ هذا الى اصلاح السدود الموجودة وايجاد مشاريع سدود جديدة ؛ مع الاتجاه نحو التوسع فى التشجير ·

ـ ويبدو أن وزارة الرى واصلاح البيئة ؛ فى عهدها الجديد الحافل بالنشاط والحيوية، يمكنها أن تقدم خيرا كثيرا لهذه المنطقة الفقيرة ، ولكل دوائر ولاية الاوراس المحرومة ؛ التى أعلنت منكوبة فى هذه السنة بسبب الجفاف ·

4 ـ طبنة وعصر ما قبل التاريخ ·

لم تنل منطقة طبنة حظها من الدراسة العلمية التى تكشف عن ماضيها السحيق ؛ ولم تقم فيها حفريات متنوعة ، وذلك على الرغم من المظاهر التى تبدو فى المنطقة ، من كثرة الحلزون ، وقطع الحجارة المهذبة ، وغير المهذبة التى تشير فيما يبدو الى نشأة صناعة حجرية قديمة ، والى حياة بشرية وحيوانية فى هذه المنطقة فى عصر ما قبل التاريخ بفترتيه : البعيدة والقريبة ·

وقد كشفت حفريات علمية عن نماذج قديمة جدا لانسان قديم فى منطقة العلمة وشلغوم العيد ، وتمثلها نماذج انسان عين الحنش ، ومشتى العربى · وما دام الفاس لم ينشط ، للكشف عن نماذج لحضارات ما قبل التاريخ فى منطقة طبنة فانما تؤكد جهلنا بحياة المنطقة فى هذه الفترة الطويلة من عمر الانسانية · كذلك العصر الفنيقى القرطاجى الذى يعتبر بداية لعصر التاريخ فى شمال افريقية كلها · فانه هو الآخر ، لا يفيدنا باية معلومات عن هذه المنطقة والسبب يبدو فى طبيعة الهجرة الفنيقية أو الاستيطان الفنيقى ، حيث لا يهتم الفنيقيون ، والقرطاجيون ، بغير السواحل، أما الدواخل فلم تنل من عنايتهم ـ ، باستثناء تونس وما جاورها ـ الا قليلا ·

5 ـ طبنة فى العصرين الرومانى ، والبيزنطى ·

لم تدخل اذا منطقةطبنة اطار التاريخ المعروف ، الا عندما استولى الرومان فى القرن الاول الميلادى على ولاية افريقية القرطاجية ، (تونس) وعلى « نوميديا » وتمثل السهول العليا القسنطينية وعلى « موريطانيا » ، التى تمثل منطقة الاطلس التلى الاوسط ·

وانشأوا لأول مرة ، ولغرض استراتيجى ، طرقهم الحربية وسلسلة تحصيناتهم الدفاعية ضد السكان (الليميس) ·

وكانت فى هذه الفترة (القرن 1 م) تمر شمال جبال النمامشة وجبال أوراس ، وجبال الحضنة ، وجبال وانوغة ·

وفى الفترة التالية أى فى القرن 2 م · وفى عهد الامبراطوريين الرومانيين تراجان ، وهادريان ، تقدمت خطوط الليمس ، نحو السفوح الجنوبية لهذه الجبال السابقة الذكر ؛ بل وتتوغل قليلا فى الدواخل وهكذا فقد استمرت فى تقدمها التدريجى فيما تلا ذلك من عصور ؛ وحسب الاحداث · وقد تعهدها الاباطرة الرومان على مدى فترة ثلاثة قرون بالاصلاح ، والتجديد خدمة لاهم أهدافهم الاستعمارية ·

ـ ومن بين هذه الطرق الحربية ، نميز طريقا رئيسيا كان ينطلق من اقليم الجريد (جنوب تونس) ويمر ببسكرة ، ومنها يتفرع الى فرعين أحدهما : يمر بالقنطرة وباتنة وينتهى فى معسكر لا مبيس فى الاوراس ، (تازولت الآن) حيث كانت

ترابط الفرقة الرومانية الثالثة • وثانيهما يشق منطقة الحضنة وينتهى فى (عوزبة) سور الغزلان ، بعد أن يمر بحصون طبنة ، ومقرة ، وزابى (الرومانية = قـــرب المسيلـــة) •

ويعنى ذلك : أن طبنة ، ومقرة ، وزابى ، وكذلك نقاوس وهى مدن الحضنة الرئيسية أو اقليم الزاب القديم . (من المسيلة الى نقاوس) ابتـــدأت حياتها حصونا دفاعية للرومان ، ونقطا هامة لمراقبة سكان أودية الانهار وسفوح الجبال ، أولئك الذين لم يذعنوا بعد مثل الجيتوليين (ستان اقليم جنتوليا) للنفوذ الرومانى •

فكانت مدينة طبنة تراقب من يأتى من منخفضات جبال أوراس ، ومدينة نقاوس كانت بدورها تراقب ممرين يؤديان الى منطقة الزيبان ومقرة كانت تتحكم بسبب موقعها. فى ممر وادى سوبلا القريب منها ؛ ومدينة زابى كانت تتحكم فى ممر وادى القصب (وادى المسيلة الآن) •

ومن الواضح أن هذه المراكز الحصينة السابقة ، ما كان لها أن تبقى ، وتقوم بالدور المنوط بها لولا توفر ينابيع المياه فى هذه المنطقة •

فطبنة مثلا كانت تعتمد على وادين هما واهى بيطام ، ووادى بريكة ومقرة كانت تستفيد من مياه وادى سوبلا ، وزابى كانت تقوم حياتها على مياه وادى القصب (تحولت الى سد بهذا الاسم) • وقد أفاد المياه على قلتها فى حفظ حياة سكان المنطقة ، والحاميات العسكرية الرومانية ، وساعدت على تحقيق نوع من حياة الاستقرار للزراعة والغراسة ؛ وعلى تربية المواشى بحيث غدت الحضنة وأوراس بالنسبة لمناطق نوميديا الاخرى ، منطقة رعوية ، وزراعية ، فضلا عن كونها تشتمل على نقط دفاعية ، طرفية ، ذات ميزة استراتيجية هامة للرومان وللبزنطيين • بحيث لا يوجد وراءها غير عالم البدو المتنقلين الذين لم يتاثروا بعد بالحضارة الرومانية ، ولم يخضعوا لسيادة الرومان وبقوا عنصر شغب وقلق ، ومقاومة فى اطار حريتهم المحلية ، وحياتهم التقليدية •

ولقد أصاب طبنة ومنطقتها شر كثير ، وتضررت أكثر من أى حصن آخر ، من حركات البدو ، واغاراتهم المستمرة التى كانت تعنف فى عهود الفوضى ، واختلال الاحوال منذ أواخر القرن الرابع ، وبداية القرن الخامس الميلاديين ، كما تضررت أيضا فى عصر

الوندال ، عندما أصبحت منطقة تجمع ، ونفى للعناصر المناوئة للوندال ؛ وللمذهب الآريوسى الذى كان مذهبهم الرسمى ، وهكذا أصبحت تعج بالمغضوب عليهم وأغلبهم كانوا من الآخذين بالمذهب الكاثوليكى ٠

ولم تهدأ أحوالها ، وتستعيد نشاطها ، وازدهارها الا عندما صفى النفوذ الوندالى من شمال افريقية ، وعادت الادارة البيزنطية فى عهد الامبراطور جستنيان ، (ق 6 م) الذى عين قائدا كفؤا لشمال افريقية يعرف بسالمون (سليمان) تولى الحد من نشاط وتحركات البدو ضد الحصون والمراكز البيزنطية فى المنطقة ٠

وحظيت طبنة ، وزابى باهتمام البيزنطيين فجددت استحكامات الاولى وسورت ، كما جددت الثانية أيضا بعد شبه خراب ، وسميت « مدينة جستنيان » (زابى جستنيانة) ويبدو أن نقاوس ، ومقرة لم ينلهما ما نال طبنة وزابى فى عهود الفوضى ، بسبب حصانتها لذلك لم تكونا محل عناية خاصة فى هذه الفترة (ق 6 م) ٠

وقد استمرت مدن طبنة ، وزابى ، ومقرة ، ونقاوس ، تؤدى مهمتها كاملة فى عصر الروم البيزنطيين ، مثلما كانت من قبل تخدم أغراض الرومان ، وأهدافهم الاستراتيجية، وهكذا حتى اطلالة الثلث الاول من القرن 7 م ٠

وفى هذ االقرن دخلت طبنة ، ومدن الزاب والاوراس عصرا جديدا ٠

6 ـ طبنة وسير عمليات الفتح الاسلامى فى بلاد المغرب ٠

استقبل شمال افريقية ، ومنطقة الزاب ، ومدينتها الكبرى طبنة ، بظهور الاسلام ، والعرب المسلمين فى المنطقة ، مبشرين بدين جديد ، وعصر جديد ، وحضارة جديدة عهـدا جديدا ٠

ولقد تم فتـح طبنة فى أواخر القرن 1 هـ ـ 7 م ٠ فى عهد موسى بن نصـير الذى ألجأ عامل المدينة ، وكان يعرف بكسيلة ـ وهو غير الامير المشهور ـ الى الفرار ، بسبب انصراف الروم عن شمال افريقية ، بعد تصفية قاعدتهم الكبرى فى قرطاجنة منذ عهد حسان بن النعمان الغسانى ؛ أما الافارقة ، والامازيغ ، فقد أعياهم طول الجـلاد ، واستسلموا ، بعد أن لم يجدوا سندا وحليفا ٠

وباستيلاء موسى بن نصير على طبنة ، تصبح المدينة مشمولة بنفوذ الولاة العرب ، وللأسر العربية الاسلامية التى كانت تشرف على بلاد المغرب الاسلامى من قاعدته الاولى ؛

وحاضرته الكبرى ، مدينة عقبة بن نافع الفهرى ، الصحابى الجليل ، وهى القيروان ؛ ثم من رقادة بجوارها أو المهدية أو المنصورية ، أو أشير ؛ وهذه توجد بقاياها الآن فى ولاية تيطرى ـ قرب الكاف الاخضر (البرواقية) . هذا كان فى عهد الزيريين ومعنى ذلك أن طبنة فىظل الوضع الجديد ، تأثرت مؤقتا ، كعاصمة لمنطقتها . وقد نالها ضرر كبير . وافسدت ساحاتها بالزحوف البدوية أثناء نشاط حركة الخوارج الصفرية ، والاباضيـــة .

وقد رأينا الوالى العربى ، الازدى ، عمر بن حفص من آل المهلب يهتم بها ، ويجـدد بناءها سنة (154 هـ) ، ويحيطها بسور يحميها من عاديات البدو ، واغاراتهم المفاجئة . وقد برهنت على أهميتها عند اشتداد أزمة الخلافة العباسية مع الخوارج فى افريقية ؛ فاعتصم بها عمر بن حفص نفسه ، والى افريقية والقيروان فترة طويلة محاصرا من قبل تجمعات الخوارج ، وأحلافهم . الذين رغبوا اقتحامها عنوة مثلما رام ذلك الاغريـق . عندما حاصروا طروادة فى القرن (11 ق م) . ولقد صمدت طبنة وكان حظها أحسن بكثير من حظ طروادة ، فأحبطت جميع خطط قادة الخوارج ، ومكنت عمر بن حفص ، من تدبير حمايتها ، وتشتيت شملهم ، وابعادهم عن ساحاتها واستطاع بحيلة بارعة الالتحاق بقاعدة القيروان التى فرض عليها الخوارج حصارا كبيرا .

وعندما حاول الخوارج العودة لاقتحام طبنة . ردتهم حاميتها العربية وألحقت الهزيمة ، بأمير الاحلاف أبا قرة المغيلى اليفرنى الزناتى .

وقد اكتسبت مدينة طبنة بسبب صمودها ، ومقاومتها لتيار الخوارج شهـــرة ومكانة، واعتبرت فى نظر أهل السنة والموالين للعباسيين قلعة سياسية ومذهبية حصينة للدفاع عن السنة ، وعن وحدة الخلافة ، ووحدة جميع مسلمى بـلاد المغرب فى اطـار الاعتراف بالسيادة الشرعية للخلافة العباسية التى حاول النيل منها الخوارج ، ثـم الشيعة فيما بعـــد .

ولا غرابة ، فابراهيم بن الاغلب ـ جد الاسرة الاغلبية ـ وعامل طبنة والزاب ، دفعته مهارته ، ومساندة سكان المنطقة له ، الى ولاية القيروان وافريقية برضى وترشيح الخليفة العباسى هارون الرشيد ، حيث اصبح رأس اسرة أو مؤسس دولة عربية تابعة للعباسيين هى الدولة الاغلبية .

وقد راعى أمراء بنى الاغلب هـذه المزية لطبنة ، فاهتمـوا بهـا اهتماما خاصـا وحصنوها ، وحشدوها بالجند ، وانتدبوا للاشراف على شؤونها خيرة من مساعديهم الامناء • بحيث غدت من أهم مراكز نفوذهم فى منطقة الزاب والحضنة •

واثناء ظهور حركة الشيعة الاسماعيلية بين قبيلة كتامة (شمال قسنطينة) ونشاط الداعى أى عبد الله الشيعى بينهم • وعلى حساب حواضر الزاب ، وافريقية • كان يشرف على شؤون طبنة ، الادارية والعسكرية من طرف الامير الاغلبى الاخير ، زيادة الله الثالث : رئيس ديوانه المعروف « بأبى المقارع » يساعده اثنان من رجال الحرب ، والادارة هما : شبيب القمودى ، وخفاجة العبسى • وثلاثتهم ، اشتهروا بالشجاعة ، وقـــوة الشخصية ، وكانوا محل ثقــة الامير الاغلبى •

وقد مثلت طبنة دورها كاملا الى جانب السلطة الشرعية ، فأصبحت بمثابة معبر للجيوش المحاربة ، ومركزا متقدما للهجوم على قبائل كتامة التى أخذت تناصر الداعى الشيعى وأيدت حركته ضد الاغالبة والعباسيين نصرة لآل البيت • والقصد ارهـاب الكتاميين ، وتخريب مظاهر الاقتصاد فى بلادهم لكى يتخلوا عن نصرة الشيعى •

ولما تمكن الشيعى ، بعد زحوف واعدادات ، من اقتحام طبنة عنوة ، ووصلت الانباء بذلك الى زيادة الله فى رقادة حزن حزنا عميقا ، وأمر بضرورة التعبئة الكاملة ، المادية ، والمعنوية ، لمواجهة هذه الحركة الجديدة التى مزقت شمل افريقية ؛ ومن تدابيره انه أمر بلعن الداعي الشيعى من على منابر القيروان ورقادة ، كما أمر بتعميم ذلك فى المنابر التابعة لنفوذه فى سائر حواضر افريقية والزاب والحضنة ، والأوراس •

غير ان الوضع بقى يتطور لصالح الشيعي وحلفائه الكتاميين خاصة بعد اقتحام مدينة باغية (قرب خنشلة فى الاوراس) ؛ وكانت هى الاخرى قاعدة هامة ، من قواعد المنطقة بالنسبة للاغالبة •

وكانت بداية النهاية لنفوذهم فى افريقية كلها ، نجاح الشيعى فى كسب معركة الاربس الحاسمة (قرب الكاف بتونس) 296 هـ وقد تلا ذلك انسياح الكتاميين فى

افريقية وصولا الى قاعدة الدولة الاغلبية وهى رقادة ؛ التى فارقها آخر الامراء الاغالبة زيادة الله فارا بنفسه وجواريه وحاشيته ، وأمواله الى المشرق ٠

وبقيام نظام الخلافة الفاطمية المشاقة للخلافة العباسية تصبح طبنة ومنطقتها فى ظل الوضع الجديد . متمتعــة بالهدوء ، والسكينة . هذا مع احتفاظها بقيمتها كأكبر مدينة فى المنطقة ، حتى أمر المهدى ابنه القائم ببناء مدينة جديدة فى الزاب والحضنة ، هى مدينة المسيلة ، (313 هـ) التى عرفت عند الشيعة باسم المحمدية ، نسبة لمحمد القائم الذى أشرف على تأسيسها وتولى تنفيذ ذلك على بن حمدون الجزامى الاندلسى ٠ عندئذ ، بدأت طبنة تفقد أهميتها كعاصمة اقليمية فى المنطقة ٠ وظفرت بهذه المكانة ، فى العصر الفاطمى مدينة المحمدية ، التى أضحت مقــرا لعامل منطقة الزاب كلها ٠ وقد عرفت تطورا وازدهارا ، ومثلت دورها كاملا أيضا نصرة للفاطميين ٠ وكان أميــرها على بن حمدون ، ثم أبناؤه جعفر ويحيى ، يشرفون على المنطقة كلها ، وأصبح بلاطهم فيها مركز جذب للنبهاء والحذاق ، من الكتاب والشعراء ٠ مثل ابن رشيق ، وابن هانىء الافريقى (الاندلسى) ٠ الذى خلد جعفرا فى شعره ، ووصفه بالملك ٠

وفى القرن الخامس الهجرى (11م) ونتيجة لحركات البدو ، وهجرات بنى هلال واحلافهم من مصر الى افريقية والمغرب الاسلامى ٠ زال الامن والهدوء من المنطقة ، وحدث تغيير أساسى وجوهرى فى نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لافريقية بما فيها منطقة الزاب والحضنة والاوراس ، وللمغربين الاوسط والادنى ايضا فى مرحلــــة تالية ٠

بحيث أصبح التدهور شاملا ، والفوضى منتشرة ، وغدت الحضنة بمدنها المشهورة طبنـــة ومقرة ، والمسيلة ونقاوس ، مسرحا لقبائل بنى هلال ٠ وبخاصة : الاثبـــج ، وربــاح ، وزغبة ، ويبدو أن هؤلاء هم الذين أعطوا للمنطقة اسم الحضنة ، كما أمدوها بزعامات قبلية وغذوا سكانها بعناصر دموية جديدة ؛ مثلما حصل ذلك فى سائر المغرب الاســــلامى ٠

وكان فرع الذواودة من رباح يهيمن على منطقة الزاب كلها بما فيها مدن الحضنة . وكانت رئاسة نقاوس مثلا لأولاد عسكر من الذواودة ، ورئاسة مقرة ، والمسيلة لآل شبل ابن موسى من الذواودة أيضا . هذا بينما غدت طبنة ومنطقتها مسرحا لفروع زغبة ، حيث تمثل قبائل « السحارى » فى بيطام بعض بقاياهم . حتى وقتنا الحاضر .

ولم ترجع الاوضاع نسبيا الى حالتها الطبيعية الا فى القرن 7 هـ/13 م وذلك عندما ظهرت على المسرح السياسى فى المغرب الاسلامى على انقاض امبراطورية الموحدين ، أسر محلية حاكمة ، تنتمى اما الى زناتة ، مثل المرينيين فى فـاس والمغرب الاقصى ، وبنى عبد الواد ، فى تلمسان والمغرب الاوسط ، أو الى هنتاتة من مجموعة مصمودة ، مثل أسرة الحفصيين فى تونس والمغرب الادنى الذين استغلوا قربهم من منطقة الحضنة والجزء الشرقى من المغرب الاوسط ، من جهة ، وضعف دولة بنى عبد الواد ، وعدم سيطرتها على كامل حدود المغرب الاوسط . من جهة ثانية استغلوا ذلك فى السيطـرة على كامل المنطقة السابقة بحيث كانت واقعة تحت تأثيراتهم .

ولقد تأثرت كامل المنطقة ، وخاصة مدن الحضنة ، بالحروب القبلية ، وبالزحـوف المستمرة ، وبالنزاعات على النفوذ ، التى كانت طابـع الحياة السياسية والعلاقات بين هذه الانظمة السياسية التى ورثت تراث ومجد وأراضى الموحدين . فخربت مدينة طبنة، أكبر مدن الحضنة ، وثالثة المدن الكبرى فى المغرب الاسلامى باكمله ؛ واختفت الى الابد ، الا آثارها ، بنهاية القرن الثانى عشر (12 م) . كما لقيت مقرة ، مسقط رأس أجداد أبى العباس المقرى صاحب نفح الطيب ، مصيرا سيئا على أيدى المرينيين ، ووقعت مدينة المسيلة ضحية لموقعها شبه الامامى بين مراكز النزاع بين الحفصيين والمرينيين فبدأت تضمحل ، وتفقد حيويتها ونضارتها وهدوء الاوضاع فيها .

ان المدينة الوحيدة من بين مدن الحضنة ، التى قاومت عوامل التخريب والفناء وسط أسوارها الحجرية الحصينة ، انما هى مدينة نقاوس المحروسة ، وقد بدت مظاهـــر حيويتها وازدهارها ، كما أوضح الرحالة المتأخرون نسبيا ، فى جامعها الشامخ ، ومعهدها ، وحماماتها المتعددة ، وينابيعها المتفجرة ، وبساتينها الفيحاء ، وزروعهـــا الباسقـــة .

وهكذا غدت مدن الحضنة باستثناء نقاوس ، بين مخربة تخريبا كاملا ، مثل طبنة ومقرة ، التى تعيش اليوم نهضة عمرانية جددت شبابها ، وحيويتها ، واهميتها ؛ أو فى حالة اضمحلال مثل المسيلة التى نراها اليوم تبنى معالم نهضتنها بعد قرار السلطة الثورية بترقيتها الى ولاية · وبقيت طبنة ، التى ورثتها بريكة ، تسير نحو مستقبل مشرق بالآمال ، والامانى ، فى تحقيق نهضتها فى ظل تعديل وتنشيط أوضاعها الادارية والاقتصادية ، والعمرانية ؛ بفضل عناية السلطة الثورية بكامل جهات البلاد ، لا سيما، المحرومة منها ·

لقد ظل البدو هم سادة منطقة الحضنة ، منذ القرن 13 م الى القرن 16 م أى حتى ظهور الاتراك العثمانيين حماة للاسلام ، والمسلمين فى كامل المغرب الاسلامى ·

7 ـ طبنة ومنطقة الحضنة فى العصور الحديثة :

نلاحظ عن هذه الفترة أنها تميزت بظاهرتين بارزتين هما :

أ ـ تبعية المنطقة كلها لنظام بايليك الشرق ، الذى كان مركزه قسنطينة واستمر الامر كذلك ، بعد الاحتلال الفرنسى ؛ حيث أصبحت المنطقة ضمن عمالة قسنطينة والاوراس ·

ب ـ أما الظاهرة الثانية فهي ما كان يلاحظ من تأرجح ولاء سكانها وقبائلها ، بين عائلتين كبيرتين هما :

أ ـ عائلة المقرانى وكان مقرها فى قلعة بنى عباس ، بمجانة من جهة ·

ب ـ وعائلة بوعكاز ، شيخ منطقة الزيبان ، وحفيد عرب الذواودة من بنى هلال من جهة أخرى ·

وسياسة الاعتماد على شيوخ القبائل وعلى الاسر الكبيرة فى الحكم المحلى سنها الاتراك العثمانيون ، وتبناها الفرنسيون عموما ، حتى الالقاب الشائعة من قبل استخدموها طيلة استعمارهم للبلاد ·

والحادث الذى رجح الكفة لفائدة عائلة بوعكاز الصحراوية ، وجعل الغلبة النسبية لهم ، هو فشل ثورة المقرانى فى السبعينات من القرن 19 م (1871 م) ومدينة بريكة

التى ورثت مكانة طبنة ، وبنيت بعض مبانيها ، ومصالحها الادارية بأنقاضها . حديثة النشأة نسبيا ، بحيث لا ترقى الى أكثر من القرن 11هـ/17 م ، وقد وردت عند الرحالة الورتيلانى ، كمركز هام من مراكز أولاد دراج الذين ينتمون مثل أولاد رحمة ، ومقدم ، وأولاد خلوف الى ربيعة ... وفى عصر الورتيلانى كان أمير ركب الحجاج . من أولاد سيدى محمد الحجاج ، وهو محمد المسعود ابن السيد الموهوب ؛ وهم من مدوكال بلدية تابعة لدائرة بريكة ، وتوجد فيها قرية اشتراكية ؛ ومشهورة أيضا بكثرة النخيل . وبتربية المواشى فى ساحاتها الشاسعة .

ومستقبل دائرة بريكة ، كغيرها من دوائر الاوراس الاخرى وهى : باتنة (مقر الولاية) وآريس ، ونقاوس ، ومروانة ، وقايس ، وعين التوتة يتوقف على تنشيط مشاريع الرى ، واستصلاح الاراضى ، واقامة معالم الحياة الصناعية . والتحديث العمرانى ، وبذل مزيد من العناية بالريف ، وبالمناطق الجبلية ؛ لترقية الانسان هناك ، ولحمل مشاعل النمو والحضارة اليه .

والذى يلاحظ أن الثروة المائية فى منطقة الحضنة ، وبريكة خاصة ، لم تستغل استغلالا كافيا رغم الجهود المكثفة فى هذا السبيل . وامكانيات المنطقة تصبح هائلة لو وجدت عناية أكثر ، بموضوع توفير المياه للزراعة والغراسة ، وتربية المواشى . والامل معقود على وزارة الرى واستصلاح الاراضى فى ظل توجيهها الجديد .

ومنطقة الحضنة والاوراس ، قامت شهرتها قديما ، على الزراعة وعلى تربية المواشى، وعلى جودة أصناف المزروعات وأنواع المواشى . فالجغرافيون القدماء لاحظوا مثلا : توفر اللحوم وكثرة الانعام فى أفق المسيلة ، وكثرة الاشجار المثمرة فى أفق نقاوس حتى كان لوزها ، يصدر فى القرن 11 م الى حاضرتى قلعة بنى حماد ، وبجاية ، مثل المشمش فى الوقت الحاضر ، الذى يغطى أغلب أرجاء البلاد . بسبب جودته ، وطيب مذاقه .

أما سفرجل المسيلة ، فكان يصل فى القرن 11 م الى القيروان . ومثله تمور طبنة ، ومحاصيلها الزراعية . وزيتون سوبلا ، ومزروعات مقرة . فقد كان نخيل طبنة يكفى

بانتاجه المنطقة كلها ؛ واشتهرت منطقة سوبلا بأجود أنواع الزيتون بعد جرجرة ؛ ومزارع القمح والشعير وحقول القطن كانت تحف بطبنة ، وتملأساحاتها وضواحيها . وحول مدينة مقرة وحدها كانت تنتشر سبع قرى زراعية ورعوية .

ولاريب أن هذه المحاصيل الزراعية كانت نتيجة لعناية الانسان ونشاطه وارتباطه بالارض ، ورغبته فى تحسين الانتاج ، واستغلاله لكل الامكانيات البشرية والطبيعية المتوفرة . ان كل هذا يراد تقويته وتدعيمه الآن بفضل الثورة الزراعية .

وكانت مدينة طبنة وحدها ، تتوفر على خزان كبير (صهريج) يحفظ المياه لاستعمالها فى رى الحقول والمزروعات . ولقد أفاد السكان من مياه الخزان ، كما أفادوا من مياه وادى بيطام ، وبيطام كما سبق بلدية ريفية جديدة فى دائرة بريكة ؛ وبجوارها ستقوم قرية رعوية قريبا ـ ان شاء الله .

وسكان بريكة ، والمزارعون منهم بنوع خاص ، يستفيدون كثيرا من مياه وادى بريكة خاصة عند الفيضان . وقد اقتضى الامر ، حصر هذه المياه وتجميعها فى شبه سد ، يعرف بسد العطعوطة ؛ لينتفع بها عند الحاجة . وحتى لا تضيع البقية فى السباخ ، شرع فى بناء سد صغير يعرف بسد « بوشيبة » .

عناصر السكان فى طبنة ونواحيها :

سكن طبنة وبقية مراكز وحصون الرومان والبيزنطيين فى الحضنة ، جنود الحاميات العسكرية ، وموظفون كانوا ينتمون الى مختلف جنسيات البحر الابيض المتوسط ، وعنصر الافارقة هذا فضلا عن سكان الجهة الاصليين . ولقد تكاثر فيها فى العهد الوندالى المضطهدون المسيحيين الكاثوليك كما اسلفنا .

أما الفترة التى تميزت بحركة بشرية قوية ، فهى الفترة الاسلامية بدءا من القرن 7 م . فالفتح العربى الاسلامى جلب عناصر شرقية جديدة ومتنوعة الجنسيات كما جذب مجموعات امازيغية محلية كثيرة ، ومن ذلك ان قبيلة ورفجومة الصفرية ، وهى من قبيلة نفزاوة الكبرى ؛ اختارت فروع منها مدينة طبنة كمركز قرار وسكنى ، ثم ذلك بعد اخراجهم بالقوة من مدينة القيروان على يد أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى الاباضى ، أحد حملة الدعوة الاباضية ومؤسس أول دولة اباضية بافريقية (فى طرابلس

الغرب) كما التجأ اليها جند العباسيين الذين كانوا تحت امرة عمر بن حفص هزارمرد المهلبى ، لما اشتد عليهم ضغط الخوارج فى مدينة القيروان ، واحرجوهم منها قسرا بظباء السيوف ، وحد الرماح ٠

وبدون شك فانهؤلاء الجنود الذين ترسبوا فى الجهة ، كان بينهم عناصر شرقية مختلفة، فارسية، وعربية ؛ من شبه الجزيرة ، أو من بلاد الشام ومصر والعراق واليمن ٠

ومعنى ذلك ان سكان مدينة طبنة كانوا خليطا من جنسيات شتى ٠ سامية ، وآرية ، وقد بقى هذا الوضع حتى القرن الخامس الهجرى (II م) ، وقد سجله الرحالة والجغرافيون الذينزاروا المنطقة ، بدءا من اليعقوبى صاحب كتاب البلدان ٠

وفى هذا القرن 5 هـ/11 م نقل جانب كبير من سكان (المسيلة) (المحمدية) بالقوة ، كى يعمروا قلعة بنى حماد الصنهاجية بعد تمصيرها على يد القائد حماد بن بلكين ابن زيرى بن مناد ؛ كما نقل جانب من سكان قرية حمزة (البويرة) ايضا لنفس الغرض ٠

وقد شهدت طبنة ومنطقتها فى هذا القرن (11م) حركة تنقل عجيبة لجماعات محاربة ، ولعصابات مسلحة ، ولفروع قبائل ، عبرت هذه الجهة لسبب أو لآخر ، ومن دون ريب ، فقد ترسب من هذه المجموعات بعض أفراد ، أو أسر ، أو عشائر ، أو قبائل بأكملها ، فاصبحت ، جزءا من سكان المنطقة ٠

وقد صارت الغلبة فى هذا القرن ، لعرب بنى هلال وهم : الاثبج ، ورباح وزغبة ، وسليم ، حيث نلاحظ بين سكان الحضنة ، ومنطقة طبنة الآن قبائل هامة ترفع نسبها الى أعراب بنى هلال ومن أهمها : قبائل السحارى فى بلدية بيطام ، الذين ينتسبون الى فرع زغبة ، ويكونون فى الوقت الحاضر أغلب سكان منطقة طبنة ٠ والسحارى : مزارعون ، وأبالة ويربون المواشى فى سهول ، ومراعى ومزارع بيطام وطبنة وعلى جانبى وادى بيطام ٠

ومن فروع السحارى فى هذا الوقت ، أولاد منصور ، والمزاريق ، والاعراف وتجاورهم بيوتات قليلة من قبيلة الصمامات ، ومن قبائل أولاد سحنون ٠

ومنذ القدم ، تسببت المجاورة ، والماء وحدود الارض فى حدوث مشاكل بين هذه القبائل · مثلما كان قد حدث ويحدث فى عالم البدو فى العصر الوسيط · ويقف الى جانب كل مجموعة فى نزاعاتها ؛ حلفاء وأنصار ·

ويلاحظ أن سياسة التفرقة وتغذية النزاعات التى سار عليها الفرنسيون فى المنطقة ، اسوة بالرومان ، مع قلة الوعى الثقافى والدينى والقومى · بسبب الفراغ الفكرى وتغلب النزعة الفردية هي المسؤولة قديما عند هذه النزاعات بين قوم تجمعهم روابط اللغة ، والدين ، والوطن ، والآمال المشتركة · وهذا ما أدركته هذه القبائل ، أخيرا ، بعد حركة اليقظة الكبرى التى خلفتها الحركات الاصلاحية ، والحركة القومية التى مهدت لقيام الثورة الكبرى فى نوفمبر 1954 م التى صهرت كل القوى وكانت حدا فاصلا بين عهدين ، عهد الظلام ، الذى ولى ، وعهد النور والحرية والاستقلال الذى أقبل ؛ ومعه وبعد حركة التصحيح التحرر من جميع أنواع التبعية ؛ سياسات التطوير للبيئة وللانسان والتكافل ، والتوازن ، بين جهات البلاد وارساء معالم الدولة الوطنية الاشتراكية الحديثة ؛ التى تعتمد على قواعد الثورات الوطنية الثلاث : الزراعية، والصناعية ، والثقافية ؛ التى يعتبر ملتقى الفكر الاسلامى السنوى أحد مظاهرها الحية والايجابية ·

9 ـ معالم العصر الذهبى لمدينة طبنة :

كانت مدينة طبنة فى عهد ازدهارها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى (8م) مدينة كبرى وحاضرة الاقليم واسعة الارجاء هو «اقليم الزاب» كان عاملها ، وقاضيها ، وقائد حاميتها ، يشرف كل فى اختصاصه على نواحى الاقليم كله ·

كانت مسورة شأن الحواضر الكبرى · وكان لاسوارها عدة أبواب تذكارية كل منها ينفذ الى ضاحية من ضواحيها منها : باب خاقان ، وباب تهودة (قرب سيدى عقبة ولاية بسكرة الآن) . وباب الفتح ، والباب الجديد ، وباب كتامة ·

وكان للمدينة مقبرتها التى توجد الى الشرق منها على مسافة غير بعيدة من أحد ينابيعها المشهورة باسم منبع فرغان ، الذى كان يجرى وسط مصلى العيد ، وهو أيضا أحد معالم المدينة فى العصر الوسيط ·

وقد اخترقت المدينة عدة طرق رئيسية يسمى كل منها (سماطا) ، تشقها جداول الماء • وكانت أسواق المدينة كثيرة على عدد أحيائها • وأول ما كان يلاحظه الزائر الى المدينة عند اقترابه منها . هى المزروعات وأشجار الفواكه ، والنخيل • ولهذا لا غرابة اذا وجدنا كل الرحالة والجغرافيين الذين زاروها منذ عهد ابن واضح اليعقوبى (ق 3هـ/9م) الى عهد الشريف الادريسى (ق 6هـ/12م) يتفقون على القول بأن طبنة مدينة مستبحرة العمران ، وحاضرة كبرى ، تقع وسط اقليم واسع المساحة ، بيد أن حال المدينة تغير بعد هذا العهد ، فصارت منذ أواخر القرن 12 م ، وبداية القرن 13 م، عبارة عن مجموعة من الانقاض والاكوام والرسوم ، كان لم تغن ، ولم تزدهر بالامس •

وتغطى الاكوام مساحة كبيرة ، قد تصل الى حوالى خمسين هكتارا • وقد اهتم رجال الآثار باجراء الحفريات فيها ، بيد أن مجالها ما زال فيما يبدو قابلا لاجراء مزيد من الحفريات خاصة عن المدينة الاسلامية لتحديد مكانها وابراز بعض معالمها • ويبدو هذا الامر هاما • لان المدينة الاسلامية جددت بأنقاض المدينة الرومانية القديمة ، ومديرية الآثار والمتاحف بوزارة الثقافة عازمة على المضى فى احياء مشروع الحفر من جديد على آثار مدينة طبنة ، وغيرها من المدن الاسلامية فى البلاد كلها •

10 ـ رجالات طبنة المشهورون :

لقد أنجبت بيئة طبنة فى عصرها الذهبى ، اي منذ أن جددت فى عهد ولاية عمر ابن حفص المهلبى ، الى ما بعد تأسيس المحمدية فى القرن 4 هـ/10 م أعلاما فى الفقه ، والادب ، واللغة والعلوم التقليدية والفنية . ازدانت بهم السنة ، وارتفع بعلمهم لواء المذهب المالكى الذى بقى مرتفعا حتى فى عهد الشيعة الفاطميين ، الذين حاولوا بعد استقرار نفوذهم السياسى والعسكرى فى المنطقة ، النيل من اشعاعه ، وتاثيره على الجماهير السنية ؛ وذلك بواسطة المناظرات المذهبية لتخذيل الناس عنه ، وبواسطة الاغراء بالمال ، أو جبر الناس على اعتناق المذهب الشيعى ، ولكى يتمكنوا من عامة الناس ويفتنونهم عن مذهبهم السنى ، كانوا يضطهدون زعماء السنة ، ويعملون على تشريد فقهاء المالكية خارج حواضر افريقية الكبرى ؛ ولهذا السبب مع أسباب أخرى فيما يبدو نجد عدة أسر طبنية تنتقل باكملها

من موطنها اما الى الاندلس ، السنية المالكية ، أو الى مصر ، أو الى بغداد · وليس ببعيد ان يكون بعض علماء ، وفقهاء طبنة قد انتقلوا مثل غيرهم من بعض علماء السنة فى القيروان ورقادة الى المشرق العربى ، بعد معركة الاريس ، وقرار زيادة الله الاغلبى من رقادة اليــــه ·

وعلى ذلك فكتب التاريخ والطبقات ، تتحدث عن عدة اسر طبنية فى مصر وفى الاندلس فضلا عمن بقى فى افريقية من علمائها ونبهائها حتى بعد قيام دولة الفاطميين ونوابهم الزيريــــين ·

ومن هذه الاسر التى استقرت فى مصر :

أ ــ أسرة أبى محمد القاسم بن علي الطبنى ،

ب ــ وأسرة علي بن منصور الطبنى أيضا ·

أما أشهر رجال الاسر الطبنية فى الاندلس ، وفى قرطبة خاصة فهم :

1 ــ أبو مضر زيادة الله الطبنى (ق 5 هـ/11) وقد سكن قرطبة واشتهر برواية الحديــث ، والتبحر فى اللغــة والآداب ، وبالتفنن فى صناعة الطرائــف وقرض الاشعار .

وقد روى الحديث عنه أكبر أبنائه ، وأشهرهم على الاطلاق ، وهو :

2 ــ عبد الملك بن الطبنى (ق 457 هـ) الذى حفظ كثيرا من طرائف أبيه وأشعاره ومن ذلك رسالته اليه من مصر وقد تضمنت شوقا وحنينا الى قرطبة ومفاضلة بين أدب المشارقة وأدب الاندلسيين والمغاربة · وجاء فيها قوله :

يا أهــل أندلس مــا عنــدكم أدب ... بالمشرق الادب النفــاح بالطيــب
يــدعى الشبـاب شيوخا فى مجالسهم ... والشيـخ عندكـم يــدعى بتلقيــب

ومن أبناء أبى مضر زيادة الله :

3 ــ أبو الحسن عبد الرحمن (ت 401 هـ) ، وعبد العزيز (ت 326هـ) ، وأبو مروان عبدالملك السابق الذكر · وهو أوضحهم شخصية ، وأكثرهم نباهة ، وعلما ، لا يكاد يشبهه فى لقانته غير ابن عمه وهو أبو محمد ابراهيم بن يحيى (ت 461هـ) والاثنان معا من معاصرى أبى محمد بن حزم الاندلسى الظاهرى صاحب كتابى : الفصل فى الملل

والنحل وطوق الحمامة · وبينما قامت شهرة ابراهيم بن يحيى على البراعة فى علم الطب ، عرف عبد الملك كما اسلفنا ، بالعناية بالسنة ، والشعر ، والطرائف والعلوم اللغوية ، والقرآنية ، تاثرا بأبيه أبى مضر زيادة الله . وبشيوخه الاعلام الذين أخذ عنهم لفترة طويلة ، أو قابلهم سواء فى مصر ، أو الحجاز أثناء رحلاته الى المشرق العربى ، وكان هؤلاء كثيرين ، ولكثرتهم ، وتاثره بهم ، واعجابهم به سجل لقاءاته معهم ، فى شبه مذكرات ·

أما عن رجال الطبنة الآخرين ، فمنهم مثلا :

أحمد بن فروخ الطبنى ، وقد عاصر الفتح الشيعى لمدينة رقادة والقيروان ؛ واسندت اليه بعض المهمات فى هذا العصر فيما يبدو ، ثم ابراهيم بن الطبنى وكان شريكا لسحنون بن سعيد فى قضاء القيروان لفترة ؛ ثم أبو الفضل عطية بن على بن الحسين وكان راوية للحديث ، وشاعرا مجيدا ؛ ومن أشعاره المحفوظة وملحه قوله فى آثار المشيب :

قالوا التحى وانكسفت شمسه	وما دروا عذر عذاريه
مرآة خديه جلاها الضيا	فلاح منها فى صد غيه

11 ـ بعض معالم طبنة والاحداث

توجد بقرب طبنة معالم اثرية ، وتذكر بأحداث تاريخية هامة فأما المعالم غير المعروفة الآن فمن أهمها حسب كتب الرحالة :

ـ فج زيدان ، وهو ممر مرتفع يشرف على المدينة من بعيد · ومنه نفذ أبو عبد الله الداعى الشيعى . لاخذ مدينة طبنة فى أواخر القرن الثالث هـ/9 م ـ واليه يشير بقوله :

من كان مغتبطا بلين حشية	فحشيتى وأريكتى سرج
من كان يعجبه ويبهجه	نقر الدفوف ، ورنة الصنج
فانا الذى لا شىء يعجبنى	الا اقتحامى لجة الوهج
سل عن جيوشى اذ طلعت بها	يوم الخميس ضحى من (الفج)

وأما الاحداث التاريخية التي نذكرها بذكر طبنة فمن أهمها :

أ ـ معركة تهودة (63هـ) في عصر الفتح الاسلامي لافريقية ؛ التي ذهب ضحيتها الصحابي عقبة بن نافع الفهري ؛ وأبو المهاجر دينار ؛ بتدبير كسيلة بن لمزم البرنسي واحلافه الافارقة ، اذ عند طبنة ، فرق سيدي عقبة جيشه اطمئنانا بما حصل عليه من نتائج في حملته الكبرى . وأرسل معظمه الى القيروان لحمايتها من الاخطار . فكانت النتيجة سيئة على سير الفتح الاسلامي في افريقية ، وعلى مسلمي المنطقة كلها طيلة خمس سنوات .

ب ـ حملة القائم بأمر الله الفاطمي ضد زناتة وقبائل المغرب التي لم تعلن طاعتها للفاطميين ونوابهم على الجهات والاقاليم ، وقد سجل مراحلها بتفصيل احمد المروزي الشيعي في شبه ملحمة ، تحاكي ملامح العصور القديمة والوسطى . وعن طبنة قال المروزي :

سرنا وقد حل بقرب طبنة وصار منها أهلها في محنة

فأعظم الله العزيز المنة وبدلوا من بعد نار جنه

والسبب في هذا الوضع ، أن طبنة ، ونواحيها ، كانت مسرحا لنشاط القبائل المعادية للفاطميين وعلى رأسهم قبيلة زناتة ، وزعيمها محمد بن خزر المغراوي .

ج ـ أما الحدث الآخر الذي يذكر بمناسبة ذكر طبنة فهو حركة الثائر الاباضي النكاري مخلد بن كيداد المشهور في التاريخ بأبي يزيد ، وبصاحب الحمار ؛ في العصر الفاطمي أيضا . وقد سجل أحداثها بتفصيل أيضا، هذا الشاعر الشيعي السابق الذكر؛ وهنا ابلت طبنة بلاء حسنا الى جانب الخليفة الفاطمي المنصور بالله ، الذي أقام فيها فترة طويلة لملء صفوفه ، واعداد خططه ، وتفريق الارزاق ، والهدايا استجلابا للاحلاف والانصار .

ـ واخـــيرا ...

فسماحة أهل طبنة وكرمهم ، المستمر فى قبـائل السحارى الآن وجودة أنـــواع المزروعات ، والانعام ، فيها وفى أفقها ، بسبب نشاط السكان ، فى عملية الانتاج ، وفى تجويد الاصناف ، ثم بسبب نهر بيطام ، الذى يبدو حاضره متواضعا بالنسبة لماضيه ، ان هذا كله قد أوحى بمثل عربى أصبح سيارا فى الجهة لذلك حفظه الرحالة والجغرافيون فى كتبهم وهو : « بيطام بيت الطعـام » .

شخصـــيات لامعــــة مــــن الاوراس

عبد الرحمن الجيلالى
مـؤرخ جـزائرى



الاوراس علم لسلسلة اعلام راسية شاهقة ، واطواد سامقة باذخة ، وقنن عالية الذرى شـــامخة ، واغوار ومغارات ذات مضائق ومعاطف وشعاب ملتوية سحيقة ، وتلك هى ما يعبـر عنه الجغرافيــون باســم الاطلس الصحراوى القائم بجنـوب ولاية قســـنطينة من ارض الجزائر ، وتشتمل هذه السلسلة الصخرية الهائلة على طائفة من شوامخ الجبال ذات الروعة والجمال ، فتخترق كامل القطر الجزائرى من اقصاه الى اقصاه بحيث تكون هذه الجبال مثل جبل احمر خدو ، وجبل كاف المحمل ، وجبل عيدل ... نقطة اتصال بين جبال الحضنة وبين جبال الجنوب ؛ وهى تشكل فى وضعيتها الطبيعية شكلا رباعيا طوله من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب نحو 65 ميلا وتغطى فى جنوب اقليم قسنطينة مساحة قدرها 3600 ميلا ، وتعد هذه الجبال هى اضـــخم واعلى كتلة جبلية جزائرية فى هذه البلاد ، بحيث يرتفع اعلاها المعروف باسم (قمة الشلية) 2328 مترا ، وقاعدة هذه الولاية اليوم هى مدينة (باتنة) التى ينعقد فيها هذه السنة (1398 هـ / 1978 م) الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى .

ففى القديم كانت تسمى هذه الجبال او قل الاعلام ، باسم « اوريس » او « اورايوس اوروس » وهذا الاسم كما نراه هو قريب جدا مما نسميه به اليوم وينطق بـه الناس (اوراس) وذكره البكرى فى القرن الخامس باسمه الحاضر : (اوراس) ، قال : « وهو مسيرة سبعة أيام ، وفيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة ·· الخ ··· ، وكذلك هو مسمى بنفس هذا الاسم عند الادريسي ـ وسط القرن السادس ، فهو يقول : « وجبل اوراس قطعة يقال انها متصلة من جبل درن المغرب وهو كاللاّم منحنى الاطراف ، وطوله نحو من 12 يوما » · وهكذا ذكره بهذا الاسم ياقوت الحموى (626 هـ) فى معجمه وابن خلـــدون (808 هـ) فى تاريخه ·

وليس عندنا اليوم لكلمة « أوراس » هذه معنى معروف ، والراجح انها تكون كلمة بربرية لها معناها عند قدماء البربر ، اما كلمــــة « الاطلس » التى كانت معروفة عند اليونان فالظاهر انها محرفة عن كلمة « ادرار » أو « ادرارن » البربرية والتى معناها : الجبـــل ·

وبينما كان علماء التاريخ والجغرافيا على هـــذا الرأي اذا بصاحب الرحلة ـ نزهة الانظار ··· المعروفة بالرحلة الورثيلانية (آخر القرن الثانى عشر) يقول : ان هـــذا الجبل كان يسمى « جبل الرس » هكذا بالسين وبالصاد ، وزاد الى ذلك فقال بانه هو موطن خالد بن سنان ، ناقلا ذلك عن الخفاجى شارح الشفاء ؛ وقال عن خالد هذا بانه نبى ورسول أرسل بجبل الرس الملقب الآن : أوراس · وعبارته كما يلى : « ··· عام مشينا لزيارة النبى سيدى خالد عليه السلام على القول بنبوته (1) وقد شهر غير واحد من المتاخرين رسالته بجبل الرس الملقب الآن أوراس » ·

على ان الذى نعرفه من خلال كتب اللغة والتفسير لمعنى كلمة الرس : انه الأثــر القليل الموجود فى الشىء · يقال سمعت رس الخبر ، وعندى رس حديث ، وفى جسمى رس من حمى ، أى أثر · كما جاء أيضا فى معانى الرس انها البئر ، والمعدن ، أو الجب ، وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية ان الرس هو النهر المشهور الذى عرفه القدماء باســم

1) راجع ما جاء حول هذا الموضوع فى كتابنا : تاريخ الجزائر العـــام ، ج 1 ، ص 161 و 285 ، ط 3 الجزائر 1971 م ·

« أراكسيسس » وكل هذا كما ترى لا يمت بصلة الى ما نحـــن فيه من الكلام على جبال أوراس بالجـــزائر ؛ اللهم الا اذا أريد به ـ عند الورتيلانى معنى البئر التى يقال انها موجودة بالأوراس ونعنى بها : « بئر الكاهنة » ، اذ كل بئر رس ؟ او يكون المراد بـه معنى المعدن ، فيحتمل ؟٠٠ اذ ليس هنالك شك فى وفرة ما بهذه الجبـــال والصخور الشاهقة المشمخرة من معادن ٠٠٠

وورد فى « الرس » انه علم على مواطن وامكنة متعددة مفترقة ، وليس فيها إشارة الى مكان واحد منها انه يوجـــد بأرض المغرب ، بل ولا فى القارة الافريقية بأسرها : فليت شعرى من أين لصاحب نزهة الانظار ان جبل الرس هو الملقب الآن « أوراس » ؟٠٠

يتكون سكان هذا الجبل من عناصر مختلفة بالاضافة الى سكانه الاصـــليين وهم البربر ؛ فلقد انضم اليهم فى أحقاب متقدمة سلائل من غزاة الرومان والروم البزنطيين والوندال ؛ وفى أيام الفتح الاسلامى كانت تسكنه قبائل من زناتة ، (اوربة وجراوة) ، ثم حل به قبائل هوارة ولواته لا سيما فى أيام اشتداد الحرب بين حسان بن النعمان وجيوش الكاهنـــة ؛ على ان اغارة الهلاليين (442 هـ/ 1050 م) قد غيرت من موقف الشعوب بهذا الجبل ، فجعلت من بنى دريد وهم فرع من الاثبج يسكنون التلال الشمالية منه ؛ ـ والأثبج من الهلاليين وهم أوفر عددا واكثر بطونا ، كما عند ابن خلدون ٠ ثم تقدموا نحو الجنوب فسكنوا هذه الأطواد الشامخة من جبال اوراس ونزلوا بتلك التلال والهضاب والاعضاد المحيطة بها ٠

والسبب فى نزوح قبائل هوارة البربرية الى هذا الجبل بعد ما كان موطنها الاصلى هو اقليم طرابلس والجزء الذى يجاوره من اقليم برقة فهو كما يقول ابن خلدون : انه لما ذهب عنهم ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات ، وقد صاروا عبيدا للمغارم فى كل ناحية وقع منهم هذا الافتـــراق فى الاودية بسبب القلة فانصرفوا لرعى الغنم وسكنوا بهذه الجبال ونزلوا بتلك السفوح وما حولها من المدن والقرى وما احاط بها من البلاد ، مثل مدينة باغاية ، وطبنة ، وخنشـــلة ، ومنعة ، والريس ، ولامباسييس ، اولامبيس ـ لمبيز ، ونقاوس ، وبلزمة وتيمقادى ، الى حدود بسكرة وتهودة ٠٠٠ فامتزج هنالك يومئذ العنصران امتزاج الماء بالماء فتبربر العرب وتعرب البربر واصطبغ كل

منهما بصبغة الآخر ، وعرف الجميع حينئذ باسم الشـــاوية ـ جمع شاوى اى راعى الغنم ، ثم أصبح هذا النعت او الوصف اسم جنس على عدة جماعات تقطن أرض هــذا المغرب العربى ، أهمها هؤلاء شاوية أوراس ـ بالقطر الجزائرى ، وشاوية (تامسنا) بأرض المغرب الأقصى . ومن ثم انتهى الامر باطلاق اسم الشاوية على بربر زناتة وهوارة وكل من امتزج بهم من العرب أو مساكنيهم فى مواطنهم هذه ، وهم اليوم منقسمون الى احدى عشرة عشيرة متكونة من نحو 36 دوار أو تزيد ، تختلف كثافة السكان بها بين مكان وآخر . فمن هذه الجبال التى قال عنها الشاعر الثورى : من جبالنا طلع صوت الاحرار، ينادينا للاستقلال .

ففى هذا الاقليم من القطر الجزائرى : ـ اقليم جبـــل اوراس الاطلس الصحراوى الواقع الى الشرق من مدينة بسكرة ، وفى عصور مختلفة من التاريخ الاسلامى لمع فى ميدان الثقافة والعلم جمع من ابناء الجزائر الاوراسيين ، ازدان بهم تاريخ الجـــزائر وطفحت بذكر اسمائهم كتب التراجم والسير ؛ وها نحن اليوم بمناسبة انعقاد الملتقى الثانى عشر للفكر الاسلامى بقاعدة الاوراس ـ باتنة ، نلقى بنظرة تاريخية خاطفة على حياة ثلة من رجال الفكر الاسلامى بهذه الناحية من أرض الجزائر للتدليل على طيبة هذه التربة المباركة وسير الحركة العقلية بها .

ففى أواسط القرن الثالث من خير القرون نجد عالما أوراسيا يلمع اسمه ويتردد ذكره فى بلاط ملوك وامراء بنى الأغلب ـ الدولة التى ملكت تونس والجـــزائر (184 ـ 296 هـ / 800ـ909 م) ذلك هو اسحاق بن عبد الملك الملشونى ـ وملشون قرية من احدى قرى المدن الكثيرة المطل عليها جبل أوراس ؛ فعن هذا العالم الاوراسى كان أمراء الدولة يتلقون دروسهم فى الأدب والفقه والتاريخ وأخبار الامم ... وعنه وعن والده كان يحمل العلـــم .

قال أبو العرب : كان أبو القاسم بن شبلون الفقيه رضى الله عنه يروى فيما كان يرويه ان الامام سحنون بن سعد دخل على الامير محمد بن الاغلب أول يوم من شـــهر رمضان ، فوجده خاليا بنفسه ، فقال له : اراك أيها الامير خاليا ، فقال نعم ، انفردنا فى هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل ، فقال سحنون : فأيـن

أنت ايها الامير من اسحاق الملشونى يحدثك بأخبار الامم السالفة والأعوام الماضية ؛ فأمر محمد بن الأغلب باحضاره ، فكان يحضر عند محمد بن الأغلب فى كل يوم يحدثه بذلك حتى انقضى شهر رمضان . قال أبو العرب : وسمعت بعض المشائخ ممن يروى البرىء من الأخبار يحدث عن اسحاق بن عبد الملك الملشونى انه قال : لم يدخل افريقيا نبى قط ، وأول من دخلها بالايمان بعض حواريى عيسى بن مريم عليه السلام . وهذه منه فائدة جليلة تنير لنا الطريق حول البحث عن وجود (خالد بن سنان) على القول بنبوته ـ بهذه البلاد .

وفى حديث للبكرى يذكر فيه وصف جبل أوراس وما اودع الله فيه من خصائص وما احاط به من البلاد ... وكان فيما ذكره منها ان ذكر مدينة باغاية ـ وهى باغاى ، الموجودة حاليا بشمال خنشلة ، فقال : هى مدينة جليلة أولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح ، وهى على مقربة من جبل اوراس . ففى نفس هذه المدينة ولد العالم المحدث المقرىء أبو العباس احمد بن محمد بن عبد الله الربعى الباغائى سنة 345 هـ/956 م ودخل الاندلس سنة 376 هـ/986 م وقدم للاقراء بالمسجد الجامع فى قرطبة ، واستأدبه أمير الاندلس المنصور ابن ابى عامر لابنه عبد الرحمن ، ثم عتب عليه فأقصاه ، ثم رقاه المؤيد بالله هشام بن الحكم فى دولته الثانية الى خطة الشورى بقرطبة مكان أبى عمر الاشبيلى الفقيه ؛ وكان كما ذكره ياقوت : من أهل العلم والفهم والذكاء ، وكان لا نظير له فى علوم القرآن والفقه على مذهب مالك ، روى بمصر عن ابى الطيب بن غلبون وابى بكر الادفوى وتوفى لاحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة 401 هـ/16 جوان 1011 م .

وفيما بين القرن الرابع وأوائل الخامس نجد طائفة من سراة العلماء والادباء كلهم يحمل لقب « الطبنى » أى الانتساب الى مدينة طبنة ، وطبنة هذه هى من أهم المراكز الحيوية باقليم الزاب يومئذ ، بل هى عاصمة الزاب ، وثيقة الاتصال بالاوراس وقريبة منه جدا حيث ان خرائبها على بعد ثلاثة أميال جنوبى « بريكة » .

كان فيمن اشتهر بهذا البلد أسرة بيت ابى مضر زيادة الله بن على الطبنى فكان هذا البيت من ألمع وأنبه بيوتات هذه المدينة فى العلم والرئاسة ؛ ولم يقتصر حسن صيت

اعضاء هذه الاسرة على بلادهم فقط ، بل تعداها الى خارج الوطن ، ففى بلاد مصر نجد اسم الطبنى ذائعا ، وفى الاندلس كذلك أيضا نلقاه شائعا ، وبأرض الحجاز مستفيضا . وكان ابو مضر هذا مشتهرا بعلم الحديث والأدب ، كما اشتهر كذلك ابنــاؤه الثلاثة بثقافة واسعة : أبو مروان عبد الملك ، وأبو الحسن عبد الرحمن ، وعبد العزيز ؛ وكان أجلهث علما وأدبا هو أبو مروان (457 هـ/1064 م) · قال الصفدى : انه امام فى اللغة له رواية وسماع ، رحل الى المشرق وحدث عن ابراهيم بن الافليل ؛ وهو من بيت جلالة ورئاسة ومن أهل الحديث والأدب ·

كما ذكره ابن بسام فى الذخيرة أيضا فقال : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة الوية الاقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر ، اراهم طرؤوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار شمل الطاعــة ، وأناخوا فى ظلها ، ولحقوا بسروات أهلها ، وســمع ـ أبو مروان من جماعة من المحـدثين بمصر والحجاز ؛ ولما عاد من المشرق الى قرطبة واجتمع حوله الناس فى مجلس الاملاء انشد :

انى اذا حضرتنى الــف محبــرة ... تقول حدثنى طــورا وأخبــرنى
يا حبــذا السن الأقــلام ناطقــة ... « هــذى المكارم لا قعبان من لبن »

قال ابن بسام : وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم ورفع بالأندلس صوته بنباهة سلفهم ·

ومن أهل طبنة أيضا ابو عبد الله محمد بن حسين الطبنى علا صيته فى الأندلس أيام سنة 323 هـ/935 م 0 وكان شاعرا عظيما ، قال ابن شكوال : لم يصل الى الأندلس أشعر منه ، ومنهم أحمد بن الحسن الطبنى (390 هـ/1000 م) وابراهيم الطبنى ، وأبو الفضل عطية بن على الطبنى (532 هـ/1137 م) وهو القائل :

قالوا التحى وانكسفت شمســه ... ومــا دروا عــذر عــذاريــه
مــرآة صــدغيه جلاها الصــبى ... فــلاح منــهـا فى خــديــه

ومن نبغاء الادباء بالاوراس فى القرن السابع الأديب الكبير والشاعر المفلق محمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى ـ وهذا اذا حققنا انه من بلدة الريس الاوراسية ، والا فهو على كل حال جزائرى من بلد جبال أوراس ·

كان يسلك فى شعره كما يقول الغبرينى سلوك المتنبى وينحو نحوه ، فلقد كان حسن النظم والنثر مليح الكتابة حسن الوراقة فى البطاقة ، سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف ، ولأجل ذلك حسن نظمه ، وكان مليح التوشيح ، ان طال فى شعره أعرب ، وان اقتصر واقتصد أعجب ، وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر ، ومنه قوله :

يا من على جوده المعهود أتكل | ويا ملاذى اذا ضاقت بى الحيل
غرقت فى بحر آثامى فخذ بيدى | وامنن بعفو فانى خائف وجل

وكان فى علمه نظير العالم المؤرخ ابى عبد الله محمد بن الحسن القلعى شيخ الغبرينى . تولى رئاسة « كتبة الديوان ببجاية » وتوفى سنة 673 هـ/1274 م .

ومن الشخصيات العالمة اللامعة بالاوراس فى أواسط القرن الثامن : الشيخ أحمد بن العباس النقاوسى المنسوب الى مدينة نقاوس غربى مدينة باتنة عروس الاوراس ، والقرية من طبنة ، كان رحمه الله مشاركا فى علوم التفسير والفقه والحديث والأصول واللغة والمنطق والبيان ... لقيه أبو النقاء خالد بن عيسى البلوى الأندلسى فترجم له فى رحلته وقال :

كان حافظا مجيدا ، وحافلا مجيدا ، وناقلا سديدا ، وناقدا شديدا ، وعارفا مديدا ، ومدرسا مفيدا ، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقل من كرمه الطل والوبل ، رحل من تلمسان قبل الحصار ، وتلاقى ريحها بالاعصار ، فدخل تونس مشمرا عن الجد ، وقائدا بالجد ، فطلع فى آفاقها كوكبا ، وسار فى ساحاتها كبكبا ، ولم يزل يفحص عن الكمال ، ويستسقى من عذبة منالها الزلال ، حتى بلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، فهو الآن أحد مدرسيها الامام ، وأوحد من برع فى علمى البيان والكلام ، وأوجد الناس للدر اذا خاض بحر العلوم بسوابح الاقلام ، أديب العصر ونحويه وبيانيه وحكميه ومنطقيه ... الى الاحاطة بالتفسير والحديث ، مع المطالعة والمذاكرة فى القديم والحديث ، وكذا الفروع والاصول ... الى ان قال : قرأت عليه تاليفه المسمى : « الروض الأريض فى علم القريض » ، وتاليفه فى الأدب ؛ و « حديقة الناظر فى تلخيص المثل السائر » فى

البيان ؛ و « شرح المصباح » لابن مالك ؛ و « ايضاح السبيل الى القصد الجليل فى علم الخليل » وهو شرح على عروض ابن الحاجب ؛ وله تآليف غيرها عرف قدرها واشتهر ذكرها ؛ توفى سنة 765 هـ /1364 م ٠

وهذا نقاوسى آخر أيضا ، من أهل القرن التاسع ، يسمى محمد بن محمد النقاوسى ، أخذ علمه أولا عن والده قاضى نقاوس وعن علماء بلده ، ثم ارتحل الى مدينة قسنطينة ثم تونس ودخل مصر فاخذ عن الشمنى والكافيجى والسخاوى وأضرابهم من علماء القاهرة ٠٠٠ وتولى قضاء العسكر لحفيد المولى مسعود ، ثم عاد الى بلده نقاوس ، وهاجر فسكن مصر وانتقل منها الى الحجاز فجاور الحرمين الشريفين وجلس هنالك للاقراء والتدريس ٠

وكان من مشايخ الامام عبد الرحمن الثعالبى الذين أخذ عنهم العلم ببجاية الشيخ احمد النقاوسى ، قال الثعالبى : هو شيخنا الامام المحقق الجامع بين علمى المعقول والمنقول ، ذو الأخلاق المرضية والأحوال الصالحة السنية ٠٠٠

ويحيى الشاوى غنى بنسبته هذه الى التعريف بنسبه ، فهو ابو زكرياء يحيى بن محمد الشاوى المولود بمدينة مليانة (1030 هـ/1621 م) ، من مشائخه الجزائريين الشيخ سعيد قدوره شارح سلم الاخضرى فى المنطق ٠

حج الشاوى سنة 1074 هـ/1663 م ونزل القاهرة فتصدر للتدريس بالأزهر ، ورحل الى تركيا ثم عاد بعدها الى القاهرة وحج للمرة الثانية (1096 هـ/1684 م) وتوفى بالقاهرة ومن تآليفه شرح التسهيل » لابن مالك ، وله شروح وحواش ومصنفات فى النحو والاعراب والتوحيد الخ ٠٠٠ ومن تلامذته : محمد أمين المحبى صاحب « خلاصة الاثر » (مطبوع) والشيخ على النورى صاحب كتاب « غيث النفع » فى القراءات والروايات السبع ، (مطبوع) ٠

ومن اعيان علماء الاوراس فى القرن الحادى والثانى عشر العالم الفاضل المدرس الشيخ عثمان الاوراسى ، أخذ عن علماء بلده ثم ارتحل الى تونس فاخذ عن الشيخ محمد المغراوى ، وحميدة المفتى ، وعلى شعيب ، ومحمد بن عمران وابى القاسم بن سليمان وغيرهم ٠٠٠ ومثله فى ذلك الشيخ على الاوراسى ٠٠٠

وبما ان مدينة بسكرة تقوم على السفح الجنوبى من جبل اوراس ، واوراس يقوم الى الشرق من مدينة بسكرة ويطل عليها كما يقول ابن خلدون ، فهى معتبرة من أهم المدن المرتبطة بالأوراس والمتصلة به اتصالا وثيقا ، لا سيما وانها كانت طيلة هذه العصور التى مررن بها تضم بين جدرانها طائفة من كبار العلماء الذين اخترق ذكرهم الآفاق ، مثل الشيخ عبد الرحمن الاخضرى البسكرى الطائر الصيت . وابى القاسم بن جبارة البسكرى ، وابى زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، والشاعر المكثر عبد الله بن عمر البسكرى ، والشيخ احمد بن الفاكهة اللياني فى آخرين ... وعليه فلا أقل من ان نشير ولو بايجاز الى بعض علمائها المحققين ومن كان منهم من اهل الاجتهاد الراسخين .

فهذا ابو القاسم يوسف بن على بن جبارة البسكرى ولد سنة (403 هـ/1012 م) وشد رحلته فى طلب العلم وتخصص فى علوم اللغة والنحو والقراءات فطاف البلاد شرقا وغربا ، فدخل بغداد ونيسابور واصبهان وغيرها من حواضر العلم يومئذ ولقى بها جمهورا من جلة العلماء ؛ قال : « فجملة من لاقيت فى هذا العلم 365 شيخا ـ بعدد ايام السنة ، من آخر المغرب الى باب فرغانة ، يمينا وشمالا ، جبلا وبحرا ، ولو علمت ان احدا تقدم على فى هذه الطريقة فى جميع بلاد الاسلام لقصدته » ؛ وكان فيمن اخذ عنهم من كبار علماء المشرق الاستاذ ابو نعيم احمد بن عبد الله الاصبهانى ، صاحب الحلية ، والاستاذ ابو القاسم القشيرى صاحب الرسالة الصوفية المشهورة ، وكان هذا يراجعه ويحاوره فى مسائل من النحو والقراءات مراجعة مستفيد ، حيث كان لمترجمنا هذا استقلال فى آرائه واختيارات وترجيحات اختص بها دون غيره من أهل التقليد ، فكان مجتهد متخصصا فى فنه ـ القراءات والنحو ، قال ابن الجزرى : لا أعلم احدا فى هذه الأمة رحل فى القراءات رحلته .

استدعاه الوزير نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلجوقى للتدريس بمدرسته التى أسسها فى نيسابور ، مثل ما استدعى لها امام الحرمين الجوينى بل اسسها من اجله ، وبها قرأ وتعلم الامام الغزالى وعلم بها ، فانتصب يومئذ شيخنا ابن جبارة البسكرى لنشر علمه بين جدران هذه الجامعة الطائرة الصيت فى مدينة نيسابور التى يقول عنها الحموى (626 هـ/1229 م) هى مدينة عظيمة ، ذات فضائل جسيمة ، معدن

الفضلاء ، ومنبع العلماء ، لم ار فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ٠٠٠ وهناك وضع الشيخ ابن جبارة البسكرى كتابه«الكامل» وهو معلمة كبرى فى فن القراءات ضمنه خمسين قراءة بالفين ومائتين وتسعين طريقا ٠ قال يصفه : « الفت هذا الكتاب فجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة ونسخت به مصنفاتى كالوجيز والهادى » ٠ وعلق امام القراء ابن الجزرى على كلمة المؤلف هذه فقال : كذا ترى همم السادات فى الطلب ٠

ويبدو ان هذه المدارس النظامية ـ المنسوبة لنظام الملك كانت رسمية تحت رعاية الحكومة ، بدليل ما أشار اليه بعض المؤرخين بان مدرسا صدر له التعيين بها ولكنه لم يؤذن له بالتدريس الى ان جاءت موافقة الخليفة على تعيينه ٠

ومن ادباء بسكرة وفقهائها فى القرن الثامن : عبد الله بن عمر البسكرى ، كان فقيها اديبا شاعرا ، ارتحل الى المشرق فحج واستقر بالمدينة المنورة ملازما للحافظ المحدث المؤرخ الشيخ عبد الله بن محمد المطرى ، وكثيرا ما كان المطرى نفسه ينشد قصائد عبد الله البسكرى هذا ويرددها من حفظه اعجابا بصاحبها ٠ توفى البسكرى الشاعر سنة 765 هـ/1364 م ٠

واما ابن مزنى الذى أشرنا اليه فيما سلف فهو العالم المقرىء المؤرخ ابو زيان ناصر بن مزنى البسكرى ، المولود فى المحرم سنة 781 هـ/1379 م ، فنشأ فى بيت علم وامارة ، والى هذه الاسرة كان مرجع التصرف والحكم بناحية الحضنة والزاب ، انصرف ابو زيان الى الاشتغال بالعلم ولقاء العلماء ، فاخذ عن جماعة من بنى وطنه ومن علماء تونس مثل الامام ابن عرفة ، وعبد الرحمن التوزرى ، وابى فارس عبد العزيز بن يحيى الغسانى البرجى ، ومحمد بن على بن ابراهيم الخطيب ، وعيسى بن احمد الغبرينى فى آخرين ٠٠٠

ثم انتقل الى مصر فنزل بها سنة 803 هـ/1400 م وكان بها يومئذ وحيد افريقيا العلامة ابن خلدون وقد جمعتهما أواصر العهد القديم ببسكرة ، فاكرمه واسكنه بخانقاه ومدرسة الشيخونية ، وبها اسمع ابن مزنى صحيح البخارى ولازم الامام ابن حجر ٠٠٠ وهناك عكف على وضع كتابه الكبير للرواة ، لم يكمله ، قال ابن حجر : انه لو اتمه لكان مائة مجلد ، فانه جمع منه فى مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت حد ، ومات فتفرقت

مسودته شذر مذر ، ولعل أكثرها عمل بطائن مجلدات ؟!!٠٠ وكان رحمه الله جماعة للكتب ضابطا متقنا حريصا على جمع الفوائد والشوارد ٠ واصيب فى آخر عمره ببصره فانتقل من الشيخونية الى مدرسة خانقاه الظاهر برقوق ـ بالقاهرة ، وعاجلته المنيـــة فتوفى سنة 823 هـ/1420 م 0 اثنى عليه المقريزى فى كتابه درر العقود ، وأثبت بانه كان يتردد عليه ، وقال : رحمه الله ماذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة

وأما العلامة الأخضرى فهو أشهر من نار على علم واسمه عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الشهير بالاخضرى ، ورغم شهرته بهذه النسبة نراه ينكرها فى شرحه على سلمه فى المنطق ، فيقول : « ان هذا نعت لنسبنا على ما اشتهر فى السنة الناس ، وليس كذلك ، بل المتواتر عن أعالى أسلافنا واسلافهم ان نسبنا للعباس بن مرداس السلمى (الصحابى الجليل) ٠ وامه رحمها الله اسمها (حدة) من قرية تيفلفال ـ من صميم الاوراس ـ ولد عبد الرحمن سنة 910 هـ/1504 م وكان ابوه رجلا صالحا وعالما جليلا فاخذ عنه ولده النجيب وعن من لقيه من مشائخ بلده ٠٠٠ وامتاز بالنبوغ المبكر ، ولازم الدرس الى ان برع فى اكثر الفنون العربية والعلوم الاسلامية ، وألف فيها مصنفاته العديدة النافعة المفيدة ، فكتب فى الفقه والتوحيد والمنطق والنحو والبيان والفرائض والحساب والفلك والتصوف الخ ٠٠٠ نظما ونثرا ، وفيها ما هو مطبوع ٠٠ وانتشرت كتبه فانتفع بها الناس شرقا وغربا وترجم بعضها الى لغات اوروبا ، ومنها الفرنسية ، واعتقد انه ليس هناك اليوم أحد من أفراد العلم والادب ـ أو أقول معظمهم ـ بالجزائر وتونس والمغرب ومصر ٠٠٠ الا ولمصنفات الشيخ عليه فضل ومنة ٠ توفى رحمه الله سنة 983 هـ/1575 م ودفن بزاوية قرية (بنطيوس) جنوبى غرب مدينة بســكرة ، وضريحه مشهور بها ٠

مراجع البحث

اعلام الجزائر : عادل نويهض ، ط بيروت ، 1971 م
بغية الوعـــاة : جلال الدين السيوطى ، ط ، القاهرة ، 1326 هـ
تاريخ الجزائر العام · عبد الرحمن الجيلالى ، ط 3 ، الجزائر 1971 م
تعريف الخلف ··· : أبو القاسم الحفناوى ، ط الجزائر 1906 م
دائرة المعارف الاسلامية : النسخة العربية ، ط مصر ، 1971 م
الذخــيرة ··· : ابن بســام ط بيروت ، 1975 م
ذيل بشائر أهل الايمان : حسين خوجة ، ط تونس 1908 م
شجرة النور الزكية : محمد مخلوف ، ط تونس ، 1349 هـ
طبقات علماء افريقية : ابو العرب محمد التميمى ، ط باريس ، 1915 م
العبـــر ··· : عبد الرحمن ابن خلدون ، ط بولاق 1274 هـ
عنوان الدراية ··· : أحمد الغبرينى ، ط الجزائر 1910 م
المسالك والممالك : عبد الله البكرى ، ط الجزائر 1857 م
نزهــة الانظـــار ··· : الحسين الورثيلانى ، ط الجزائر ، 1108 م
نزهــة المشتاق ··· : الشريف الادريسى ، ط ليدن ، 1864 م
نيل الابتـــهاج : أحمد بابا التنبكتى ، ط القاهرة ، 1329 هـ

الانســـان الاوراسى وبيئتـــه الخاصـــة

دراســـة فى التاريـــخ الاقتصـــادى والاجتماعى لمدينـــة الاوراس قبـــل وأثنـــاء العهـــد العثمانى

د. ناصر الدين سعيدونى
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجـزائر



تتميز منطقة الاوراس بكونها احـــدى الكتل الجبلية الحصينة التى يسهل الدفاع عنها ولكن يصعب اختراقها والتغلغل داخلها ، وهذا ما جعل الاحداث التى عرفتـها منطقة الاوراس عبر العصور تكتسى أهمية بالغة ، جعلتها تؤثر بصفة محســـوسة ، ليس فقط على الجهات الشرقية من البلاد الجزائرية ، ولكن على جزء كبير من بلاد المغرب العـــربى .

فاذا رجعنا الى الفترة القديمة من تاريخ الاوراس نجد أن توطيد الاستعمار الرومانى المرتبط باستغلال الارض وتوسيع زراعة الحبوب والزياتين بجهات نوميـــديا الجنوبية (الهضاب العليا القسنطينية) قـد تطلب مرابطـــة الجيش الرومانى الثالث بالمراكز

العسكرية المتاخمة للاوراس ، والتى كان يتشكل منها خط اللمس الرومانى الشهير ، انطلاقا من تيفست Théveste (تبسة) ومسكولة Mascula (خنشلة) وباغاى Bagaï وتمغاد ، ولمبيز Lamaesis (تازولت) ـ مركز قيادة هذا الجيش الرومانى ـ ومروزا بطبنة Thubunae ، وذلك قبل ان تعرج تحصينات اللمس هذه على كل من فسكرة Vescera (بسكرة) وجميلى Gemellae وتهودة Thaudeos وبادس Badis وميدياس Medias (تديرت) ونقرين Aa-mu-Javes (1)

وفى نفس الفترة نجد ان الثورة الدوناتية التى حدثت فى عهد متاخر من الحكم الرومانى (القرن الرابع الميلادى) كانت هى الاخرى لها قواعد راسخة بمناطق الاوراس ، انطلق منها الثائرون لاجتياح المستعمرات الرومانية بالهضاب العليا القسنطينية ٠

أما بعد الغزو الوندالى فان محاولة ارجاع السيادة الرومانية ـ المسيحية ، فى شكل الادارة البيزنطية فى النصف الاول من القرن السادس الميلادى ، لم تحقق الهدف المرجو منها ولم تنته الى نتيجة حاسمة ، رغم تعقب القائد البيزنطى صولومون داخل الاوراس لزعيم الثائرين يبداس Yabas ، والتجاء هذا الزعيم الثائر عام 539 م الى موريطانيا حسبما تفيدنا بذلك كتابات المؤرخ البيزنطى بروكوب Procope (2)

وفى هذا السياق من الاحداث الهامة التى عاشتها الاوراس نشير الى ذلك العون الذى وجده كسيلة من أهالى المنطقة الاوراسية ، والذى سمح له بتحقيق نصر أولى على الجيش العربى الفاتح بقيادة عقبة بن نافع الفهرى ، الذى أستشهد بسفوح الاوراس الجنوبية اثر معركة ضارية بالقرب من مدينة تهودة كما هو متداول فى كتب الفتح الاسلامى ، ثم تلا ذلك تزعم الكاهنة للمنطقة وتجنيدها لسكان الاوراس وفى مقدمتهم قبيلة جراوة التى كانت تنتسب اليها ، وقد أدى ذلك ـ كما هو معروف ـ الى هزيمة حسان بن النعمان على ضفاف نهر مسكيانة (3) عام 69 هـ (688ـ689 م) ، وذلك قبل أن ينتهى أمر هذه الزعيمة على يد حسان بن النعمان نفسه بعد مدة قصيرة لم تتجاوز خمس سنوات ٠ بعدها لم تسكن منطقة الاوراس لحكم ولاة القيروان على عهد بنى أمية ،

اذ وجد بها الخوارج التأييد والمساندة فى ثوراتهم المتكررة (القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى) التى أعادت الى الذاكرة انتفاضات الدوناتيين ، وأثارت التساؤل عن مدى مقارنة الحركة الخارجية فى المغرب بالدعوة الدوناتية فى نوميديا ، من حيث موقف الحركتين من الحكم المركزى ، ونظرة دعاتهما الى المذهب الرسمى للحكام ، لا سيما وان الثورة النكارية بزعامة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، الملقب بصاحب الحمار ، ضد الحكم الفاطمى (القرن العاشر الميلادى) كانت انعكاسا صادقا لمثل هذا الموقف الذى ظل يقفه سكان المنطقة من مذهب الحكام .

على ان ما يجدر ذكره فى هذا الصدد ان مثل هذا الموقف المعارض للحكام تحول مع الزمن الى عداء مستحكم وصراع مستميت بين طرفى النزاع الرئيسيين بالمغرب الاوسط ، وهما حلف كتامة المتشيعة وصنهاجة المتزعمة ، وحلف زناتة الثائرة التى يتركز قسم منها بمناطق الاوراس . ولم ينته هذا النزاع المرير الا بمجيء الاعراب الهلاليين واحداثهم تغييرات فى البنية السكانية والطابع الحضارى للبلاد المغربية .

لكن بعد كل هذه المقاومة العنيفة والثورات المدمرة التى سبقت الاشارة الى بعضها لم تلبث الاوراس ان تحولت بعد هذا الماضى المضطرب الى منطقة فاقدة الحركة ، وذلك ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، اذ لا نجد الا ما ندر من أخبارها فى الكتب التاريخية ، لا سيما ما يتصل منها بالفترة العثمانية مدار هذا البحث .

وعلى كل فان هذا الوضع الذى أصبحت عليه الاوراس يدفعنا الى طرح عدة تساؤلات علنا نجد جوابا مقنعا لهذا التحول الذى عاشته الاوراس ، ولعل أكثر الاحتمالات تواردا ما يلى :

1 ـ احتمال يرجع تغير أوضاع الاوراس بهذا الشكل الى نوعية العلاقات الاجتماعية التى أدت الى اضمحلال المنطقة اقتصاديا وبشريا ، وبالتالى انطبق عليها حكم ابن خلدون ، الذى مفاده ان كل قبيلة رئيسية من المغرب العربى ، غالبا ما تتعرض للتلاشى والذوبان اذا ما تحملت عبء قيام دولة أو نشر دعوة أو تزعم حركة مناهضة او التصدى لغزو او الدخول فى حروب مستمرة ، مما يترتب عن ذلك ذوبان مثل هذه القبائل

وتشتتها عبر مواطنها الاصلية او الهجرة نحو مناطق أخـــرى ، مع العلم بأن تاريخ الاوراس حافل بمثل هذه الاحداث ، وخير شاهد على ذلك ثورة بيداس ومقاومة كسيلة وتزعم الكاهنة وانتفاضة صاحب الحمار التى سبقت الاشارة اليها والتى قامت على كاهل المجموعات السكانية الرئيسية بالمنطقة كجراوة وزناتة وبنى يفرن وضريسة ومزاتة ولواتة وهوارة ومكناسة وغيرها ·

لكن هذا الاحتمال مع وجاهته لا يقنـــع الباحث ولا يرضى المؤرخ ما دامت المنطقة الاوراسية كما نعرف ظلت طيلة تاريخها الطويل منطقة تؤثر فيما جاورها دون ان تكون للجيوش او الدول تأثير واضح عليها ، نظرا للمنعة الطبيعية والتكوين الاجتماعى المتميز بحب الاستقلال وعدم الخضوع لأى قوة غازية ، مما أبقى على تماسك المنطقة بشريا وحال دون تلاشى قوتها الحربية وامكانياتها الاقتصادية ·

2 ـأما الاحتمال الثانى لتفسير هذا الركود ، فيدخل فى نطاق التحولات السياسية التى أصبحت تعيشها الجزائر مع باقى اقطار المغرب العربى ، والتى سمحت باستقرار نظم الحكم المركزى على يد الحماديين وما اعقبهم من موحدين وحفصيين وزيانيين ، وقد أدى هذا الحكم المركزى بالخصوص الى ازدهار الحواضر الكبرى مثل بجاية وتلمسان وفاس وتونس وقسنطينة وبونة (عنابة) والجزائر ، بحيث أصبح مدار اهتمام المؤرخين لا يتعلق بالمناطق الداخلية ، وانما يتركز على شؤون الحواضر الكبرى ، وهذا ما جعـــل المنطقة الاوراسية يلفها النسيان ويكتنفها الغموض وتستبد بها العزلة ، لا سيما وان ابتعاد طرق المواصلات الرئيسية عن المنطقة نحو جهات التل عبر مدن تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس ، او الى داخل الصحراء انطلاقا من تافلالت ومرورا على توات وورجلان وسـوف ، كان هو الآخـــر عاملا مسيـــاعدا على اهمال المؤرخين والرحالة فى المنطقة الاوراسية ·

على أن هذا الاحتمال مع مطابقته للواقع السياسى للمنطقة وانعكاسه على الاوضـــاع المحلية للاوراس ، فانه لا يقدم لنا الدليل الكافى عن هذا التحول ، فهو يكاد يكتفى بعرض الوضع دون التطرق الى الاسباب البعيدة التى أدت الى هذا الوضع بالذات ، مما يجعلنا لا نسلم به ولا نطمئن اليه فى بحثنا هذا ·

3 ـ وهناك احتمال ثالث يكمن في الظروف التي اثرت على الوضع الاجتماعي وتحكمت في الحالة الاقتصادية، التي تنعكس بالخصوص في اختلال التوازن بين الانسان الاوراسي وبيئته الخاصة ، مما ترتب عن هذا الاختلال ان أصبحت الاوراس من أكثر الجهات الجزائرية انزواء وانغلاقا ، اذ لم تخرجها من هذه السلبية سوى ردود الفعل الوطني العنيفة ضد التوسع الاستعماري وسياسته الجائرة ، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر وانتهاء بالثورة التحريرية التي وجدت في الاوراس حصنا منيعا وقاعدة راسخة ٠

وما دامت هذه الحالة من اختلال التوازن تكاد تشكل الميزة الرئيسية للاوراس طيلة العهد العثماني ، فاننا نميل الى تأييد هذا الاحتمال الاخير ٠ والاخذ به في دراستنا هذه ٠

وهذا ما يفرض علينا التعرف على الاوراس في آخر مراحل ازدهاره في الفترة الاسلامية التي تعود الى ما قبل القرن الثاني عشر الميلادي ، اذ بدون هذا الوصف لا يمكن لنا أن نتعرف على اختلال التوازن بين الانسان الاوراسي وبيئته الخاصة الذي اتصف به الوضع الاجتماعي وتميزت به الحالة الاقتصادية اثناء الفترة العثمانية ٠

وفي هذا الصدد نجد ان كتب الجغرافيين والرحالة العرب تقدم لنا وصفا حيا وصورة دقيقة للاوراس في آخر عهده بالتوازن الاقتصادي والاجتماعي ، سواء عن طريق المشاهدة أو بواسطة الرواية ، ولعل الانطباع الاول الذي نأخذه من هذه المصادر هو ان منطقة الاوراس كانت قبل القرن الثاني عشر تشتهر بازدهار حواضرها الواقعة بمحاذات السفوح الشمالية والجنوبية على حد سواء ، كما كانت تشتهر بخصبها وكثرة زياتينها وتنوع ثمارها وتعدد اسواقها ، وأمن مسالكها ، فابن حوقل يصف الاوراس في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) بقوله : « وجبل أوراس ٠٠٠ فيه المياه الغزيرة والمراعي الكثيرة والعمارة الدائمة ٠ » (4) بينما الادريسي (القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي) ينعت الاوراس : بأن « مياهه كثيرة وعماراته متصلة » (5) ٠

واذا تجاوزنا هذا الوصف العام ، فان المصادر العربية تقدم لنا معلومات أكثر دقة وتفصيلا واقرب الى الواقع من خلال ذكرها لمسالك منطقة الأوراس ، هذه المسالك التي نوردها حسب الترتيب التالي حتى تكتمل الصورة الحضارية للاوراس في فترة ازدهاره :

أ ـ **طريق السفوح الشمالية** : الآتى من القيروان ، والمار على كل من سبيبة ومجانة وتبسة ومسكيانة ، قبل ان يبلغ باغاى ليصلها بسوق ابن خلف والدوفانة ، ولينتهى بعد ذلك عند كل من سوق حمزة (البويرة) وأشير (6) (بجوار عين يوسف الحالية) ٠

ويتميز هذا الطريق الرئيسى المتاخم للهضاب العليا القسنطينية ، بأنه كان يتحـول فى الشتاء شمالا فى محاذات الشطوط المالحة (السباخ) ، بينما فى فصل الصيف يظل مرتبطا بسفوح الكتل الجبلية ، فهو فى هذا الفصل كان يمر على مركز مرمجانة ويجتاز نهر ملاق حيث ينفصل عنه طريق تجيس ، ثم يتجه اثناء هذا الفصل نحو مسـكيانة ومنها الى باغاى ثم دفانة ، فدار ملول ، ومنها الى طبنة فالمسـيلة ، مرورا على كل من بلزمة ونقاوس ومقرة (7) ٠

وهذا الطريق الشمالى هو الذى أشار اليه البكرى ـ عندما ذكر ان المسافر عبره ـ يتوجه من باغاى نحو فاساس ومنها الى قبر مادغوس ومنها الى بلزمة فنقاوس فطبنة (8)؛ فالطريق بهذا التحديد يكاد يساير فى أغلب مراحله الطريق الرومانى القـديم ، الذى سلكه عقبة بن نافع الفهرى عندما هاجم باغاى وتصدى لمقاومة لمبيز (لمبسة) ليمر بعد ذلك بأراضى الزاب (الحضنة) فى طريقه نحو تلمسان وطنجة (9) ٠

ومما يلاحظ على هذا الطريق أنه أصبح فى هذه الفترة يتحاشى كتلة بلزمة الجبليـة بحيث يلتف حول سفوحها الشمالية ـ الغربية ، مما جعلـه يبتعد بعض الشىء عن خط التحصينات الرومانية « اللمس » المعهود ، بعد أن فقدت مدن ماسـكولا وتمغاد ولمبيز وزانة اهميتها العمرانية وتحولت مع الزمن الى مجرد أنقاض وخرائب ٠

أما أهم المراكز الحضارية الواقعة على هذا الطريق فهى حسب الاهمية ما يلى : **باغاى أو باغاية** ، تعود أهميتها التاريخية الى عهد جستنيان البزنطى ، وقد تعززت مكانتها فى أوائل الفتح بعد ان استقر بها الاروام وجماعات البرابر مع عائلات الجند العربى قبل أن يستولى عليها عبد الله الشيعى عام 294 هـ/906 ـ 907 م ، وقد ذكرها المقدسى ، بقوله : « مدينة كبيرة مسورة تحت جبـل يقال له أوراس يجرى اليـها منه ماء ، كثـيرة البساتين » (10) ، وقد أضاف الى هذا الوصف ابن حوقل العبارات التالية : « وهى

كبيرة وعليها سور أزلى من حجارة ، ولها ربض وعليه سور والاسواق فيه ، وكانت الاسواق قديما فى المدينة فنقلت ، ولها ماء جاء من واد يأتيهم [كذا] من القبلة ومنه شربهم مع آبار لهم عذبة ، ولهم من البساتين الكثيرة مرحلة ، وهو بلد بربرى البادية وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير » (11) . ونفس الاوصاف أثبتها لها البكرى (القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى) ، عندما ذكر باغاي بقوله : « فهى مدينة جليلة أولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح » (12) .

لكن باغاى لم تلبث ان انكمش عمرانها وتناقصت أهميتها بعد فترة قصيرة ، اذ نجد الادريسى يذكرها بهذه العبارة : « باغاى مدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض وعليه سور ، وكانت الاسواق فيه ، وأما الآن فالاسواق فى المدينة والارباض خالية بافساد العرب لها » (13) . بعدها يندر ذكر باغاى ، اذ لا نجد من يصفها وصفا دقيقا ، باستثناء صاحب الاستبصار (القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى) الذي اكتفى بعبارات نقلها من مصادر سابقة مما جعل وصفه لباغاى سطحيا ، فهو يقتصر على هذه العبارات التالية : « مدينة باغاى وهى مدينة عظيمة جليلة فيها آثار للاوائل ولها انهار عامرة وعيون ومزارع ومسارح وهى تحت جبل أوراس » (14) .

نقاوس : حسب وصف الجغرافيين العرب ، تعتبر المركز الحضارى الثانى بمنطقة الاوراس اذ تاتى بعد باغاى من حيث الاهمية والشهرة ، وقد حضيت نقاوس بأوصاف حسنة لدى أغلب الرحالة العرب فالمقدسى ينعتها بقوله : « نقاوس باردة بلد الجوز والثمار الجبلية » (15) ، وابن حوقل يتعرض لها بهذه العبارات التى تدل على المكانة التى كانت لها : « مدينة نقاوس مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة ازلية وبها مياه كثيرة واجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجوز والكروم وزرعهم غزير كثير » (16) .

وبذلك يتضح لنا أن أهمية نقاوس تكمن فى خصب اقليمها وجودة محاصيلها ، ولهذا نجد الادريسى بعد وصف ابن حوقل لها بحوالى قرن ، يوردها بهذه العبارة « نقاوس صغيرة » رغم انها حسب وصفه ظلت تشتهر « بكثرة البساتين والاشجار المثمرة كالجوز الذى يتجهز به الى ما جاورها من الاقطار » ، كما أن بها نظرا لهذا الخصب « سوق قائمة

ومعايش كثيرة » (17) . وهذا الوصف الاخير يؤكده لها صاحب الاستبصار بعد ذلك بقوله : « نقاوس كثيرة الانهار والثمار والمزارع كثيرة شجر اللوز ، منها يحمل الى قلعة بنى حماد والى بجاية والى اكثر تلك البلاد والله أعلم » (18) .

ولعل أحسن وصف لنقاوس نجده لدى حسن بن الوزان المعروف بليون الافريقى (القرن الخامس عشر الميلادى) الذى أطنب فى وصفها وذكر مميزاتها ، فهى حسب وصفه كانت مدينة محاطة بالاسوار القوية ، يجرى بجوارها نهر عليه مزروعات النبي وأشجار اللور . وقد عقب على هذا الوصف بقوله : « ان تين هذه البلاد مشهور بجودته فى مملكة تونس وهو يحمل الى قسنطينة ، كما ان بقرب تلك البساتين تمتد سهول القمح الخصبة ، أما سكان نقاوس فهم ـ حسب ليون الافريقى ـ اغنياء يشتهرون بالكرم والاناقة مما جعل ملابسهم تشبه ملابس حضر بجاية من حيث الجمال والجـودة ، كما أصبحت مدينتهم محطة للغرباء الذين طالما وجدوا باحدى مدارس المدينة ضرورات العيش من ماوى ولباس ومأكل ، وهذا ما جعل الكثير من المسافرين والرحالة يأسفون لمغادرة نقاوس والارتحال عنها نظرا لخصال الكرم وحسن الاستقبال الذى تميز به سكان نقاوس .

بعد هذا الوصف يطنب ليون الافريقى فى وصف عمـران نقاوس مبتدئا بذكر مسجدها الذى كان يتميز بسعة مساحته وحسن تجهيزاته ، ومتطرقا الى الاشارة الى منازلها التى كانت تجمع بين جدرانها حدائق الازهار والورود ، ومعقبـا على ذلك كله بالاشارة الى جمال نســاء نقاوس اللاتي كن يتميـزن ببياض بشرتهن وسـواد شعورهن (19) .

بلزمة : تأتى فى درجة ثالثة من حيث الاهمية ـ وهى مدينة محصنة تشرف على المناطق المجاورة لها ، وتتحكم فى الجهات القريبة منها ، وهى لذلك كثيرا ما وصفها الجغرافيون العرب بأنها حصن ، مثل وصف ابن حوقل لها بقوله : « مدينة بلزمة حصن لطيف فيه رجال جلد وله ماء جار وهى فى وسط فحص عليه سور وتراب وزروعهم تسقى بمائهم ... وهو من الرخص والسعة وكثرة الكراع والماشية والعز والمنعة فى غاية حسنة » (20) ؛ ونفس الوصف يثبته لها البكرى اذ يقول : « بلزمة حصن أولى ، وهى فى بساط من

الارض كثيرة الانهار والثمار والمزارع والقرى » (21) ؛ لكن أحسن وصف لها نجده لدى الادريسى الذى يخصها بهذه العبارات التالية : « حصن بلزمة ··· وهو حصن لطيف وفى أهله عز ومنعة ولها ربض وسوق وبها آبار طيبة وماؤها أيضا غدق ، وهو فى وسط فحص أفيح وبناؤه الحجارة الكبار القديمة ، ويذكر أهل تلك الناحية أنه من أيام السيد المسيح ، وهذا السور يراه الراؤون من الخارج عاليا والمدينة ذاتها مردومة بالتراب والاحجار ، فاذا نظر الناظر الى السور من خارج رأى سورا كاملا واذا دخل المدينة لم يجد لها سورا لأن أرض الحصن مساو للشرفات وهى مردومة كما ذكر وهذا غريب فى البناء » (22) ·

كل هذه الاوصاف تؤكد لنا ان بلزمة كانت اقرب الى حصن للمراقبة منها الى المدينة العادية ، ولعل هذا ما جعلها تلعب دورا هاما فى احداث العصر الوسيط ، فحولها تقرر مصير الدولة الاغلبية اثر المعركة الكبيرة التى سمحت لابى عبد الله الشيعى ان يهزم القائد الاغلبى ابن حبيش ويستولى على حصن بلزمة ، وبالتالى التمكن من اخضاع باغاى وطبنة ودفع فلول الاغالبة الى الشرق (292 هـ ـ 907 م) (23) ·

دار ملول : وهى من المراكز العمرانية التى لم تحافظ طويلا على ازدهارها ، بحيث انها ما لبثت ان تحولت الى خرائب ، حتى اننا الآن لا نعرف موقعها بالضبط ، رغم ان الادريسى يحدد موقعها بمرحلة كبيرة الى الشرق من مقرة وسط سهول زراعية فسيحة ، وقد وصفها ابن حوقل بأنها : « مدينة قديمة رزحت أحوالها وصارت منزلا ينزله المجتازون » بحيث أصبح قبل اندثارها عبارة عن حصن مراقبة ومحطة للقوافل بدليل ان ابن حوقل يعقب على وصفه السابق بهذه العبارة : « وفيها مرصد قديم على جميع ما يجتاز بها وماؤها من عين بها مرحلة » (24) ، كما أن الادريسى يذكرها بهذه العبارات : « دار ملول كانت فيما سلف من الدهر مدينة عامرة وأسواق قائمة ··· وفيها حصن مطل فيه مرصد من البلد ينظر الى مجال العرب فى بلادهم ويتطلع منه الى ما بعد من الارض . وشربهم من ماء عيون بها جارية ، وجبل أوراس منها على مرحلة » (25) ·

دوفانة : تعود أهميتها الى كونها احدى محطات طريق السفوح الشمالية ، ولهذا أغفل ذكرها أغلب الجغرافيين العرب ، فلم يتعرض الى ذكرها سوى القليل منهم مثل

ابن حوقل الذى أشار اليها فى معرض وصفه لمراحل طريق السفوح الشمالية بقوله : « دوفانة قرية فى جبل أوراس لها سكان من اللهان ، وكان البلد لهم ولبنى عمهم من اللهان مرحلة » (26) .

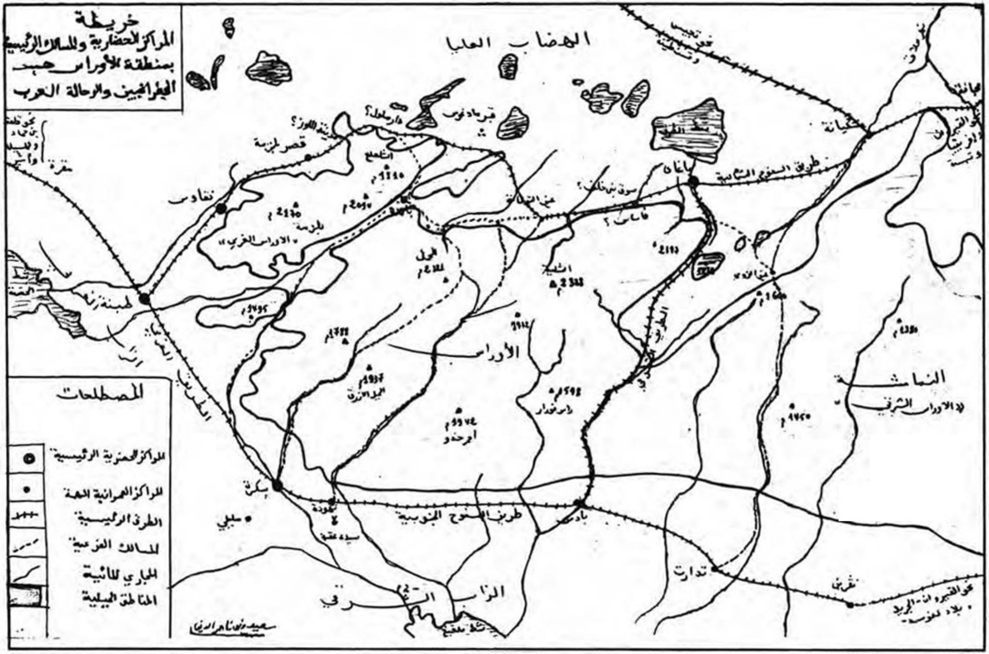
ومن المراكز العمرانية الاخرى على طريق السفوح الشمالية، مدينة فاس التى أشار اليها البكرى بقوله : « مدينة فاساس على نهر فى غربها جبل شامخ » (27) ، وهذا ما يرجح ان موقعها الحالى كان قريبا من قرية قايس الحالية ، لا سيما وان البكرى يحدد هذا الموقع بانه يقع ما بين باغاى وبلزمة ؛ ويضاف الى هذه المدينة مراكز عمرانية أخرى مثل سوق بن خلف وعين العصافير وقصر مادغوس « مدراسن الحالية » ومدينة اللوز الواقعة الى الشرق من حصن بلزمة حسب ما يورده البكرى فى سياق عرضه عن الاوراس (28) .

ب ـ طريق السفوح الجنوبية المتاخمة للزيبان :

يساير هذا الطريق فى أغلب مراحله الطريق الرومانى الذى يلتف حول الاوراس من الجهة الجنوبية المتاخمة لمنخفضات الزيبان . مشكلا فيما مضى خط تحصينات اللمس «Limes et Fossotum africae» الذى بلغ أقصى توسعه فى المناطق الجنوبية من الاوراس عند انشاء المعسكر الكبير بجمليلي «Castellum Dimmidi» جنوب واحة ورلال الحالية ، وذلك فى عام 126 م على عهد الامبراطور الرومانى هدريان (29) .

ويربط هذا الطريق الجنوبى حسبما نستنتجه من كتب الرحالة العرب مدن طبنة وبسكرة وتهودة وبادس وتامديت (تديرت) ومدالة وأخيرا نفطة بالجريد (30) ؛ وقد ذكر بعض اجزائه البكرى بقوله : « الى مدينة بنطيوس ـ وبجوفى بنطيوس طولقة ـ ومن بنطيوس الى بسكرة الى تهوذا مدينة السحر ، الى مدينة بادس الى قيطون أول بلد سماطة الى نفطة » (31) .

أما أهم المراكز العمرانية الواقعة على هذا الطريق فهى حسب الاهمية بسكرة وتهودة وبادس ، ورغم ان هذه المدن تقع بمنطقة الزيبان التى وصفها صاحب الاستبصار بأنها مدن كثيرة وانظار واسعة وعمائر متصلة فيها المياه السائحة والانهار والعيون الكثيرة » (32) ؛ الا أننا نذكر عنها بعض الاوصاف حتى يكتمل الاطار الحضارى للاوراس



خريطة
المراكز الحضارية والمسالك الرئيسية
بمنطقة الأوراس حسب
الجغرافيين والرحالة العرب
الهضاب العليا
الأوراس
النمامشة
الأوراس الشرقي
الأوراس الغربي
بلزمة
طبنة
نقاوس
قصر بلزمة
بسكرة
تهودة
سيدي عقبة
بادس
باغاي
تدارت
نقرين
طريق السفوح الشمالية
طريق السفوح الجنوبية
الزاب
الزاب الشرقي
المصطلحات
المراكز الحضرية الرئيسية
المراكز العمرانية الهامة
الطرق الرئيسية
المسالك الفرعية
المجاري المائية
المناطق الجبلية

بسكرة : التى ذكر عنها البكرى بأنها : « كورة فيها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة ... وتعرف ببسكرة النخيل » (33) وقد خصها ياقوت الحموى بهذه العبارة : « بسكرة هى مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات ، وأهلها علماء على مذهب اهل المدينة ، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل ، وتعرف ببسكرة النخيل » (34) .

وعقب على ذلك ابو الفداء اسماعيل صاحب حماة فى تقـويم البلدان نقلا عن ابى سعيد المغربى : « ان بسكرة بلاد ذات نخيل وزروع كثيرة ومن بسـكرة يجاب التمر الطيب الى تونس وبجاية » (35) .

طبنة : مركز الزاب الغربى وهى تماثل بسكرة فى الاهمية والشهرة ، ولهذا نكتفى بوصف صاحب الاستبصار لها بقوله : « طبنة تشتهر ببساتينها وكثرة نخيلها وثمارها ، كما كان يتخللها نهر يجرى وسط غاباتها » (36) .

تهودة : ثانى مدن الناحية ، وصفها صاحب الاستبصار بقوله : « حديقة أزلية عليها سور عظيم مبنى بالحجر الجليل ولها رياض كثيرة ولها ارباض كثيرة ، يدور بجنبها خندق ولها نهر كبير ينصب اليها من جبل أوراس » (37) . بينما البكرى ، يذكر عنها بأنها : « مدينة السحر ، واعداؤها هوارة ومكناسة ، اباضية وهم بجوفها » (38) . وعلى كل فان تهودة لم تحافظ على عمرانها بعد القرن الحادى عشر تاركة مكانتها لقرية سيدى عقبة القريبة منها والواقعة حول ضريح المجاهد عقبة بن نافع الفهرى «ض» .

أما باقى المراكز العمرانية بالاقاليم الجنوبية للاوراس والتى يرتبط أغلبها بطريق السفوح الجنوبية ، فنذكر منها حصـن بادس الذى عـرفه ياقوت الحمـوى ببادس الزاب ، (39) وحصن بنطيوس الذى ذكره المقدسى بقوله بنطيوس تقيوس مدينـة القصر (40) ، وكذلك مليلى وجمونة وملشون وطولقة ، وهذه المراكز الاربع الاخيرة تقع على مسالك متفرعة من طريق السفوح الجنوبية .

جـ ـ المسالك الرئيسية الرابطة بين شمال وجنوب الاوراس :

أهمها مسلكان أحدهما شرقى يصـل باغاى ببادس والآخـر غربى يربط نقاوس ببسكرة ، وقد ذكر الطريق الاول من طرف البكرى بهذه العبارة : « وبين باغاى الى بلدة بسكرة أربعة أيام ... وفى الطريق الى بسكرة جبل يعرف بزيغيزى ، فى وسطه كهف

فيه رجل قتيل لم يغيره قدم الزمان ولا تقادم الدهور » (41) · وهـــذا المسلك الشرقى حسب هذا الوصف يكون نفس الطريق الرومانى الذى كان يحاذى واد العرب ، كما ان جبل زيغيزى لا يعدو ان يكون جبل شاشار أو جبل برقة المقابل له من الجهة الغربية ·

أما المسلك الآخر الواقع الى الغرب والـرابط بين نقاوس وبســـكرة ، فقد ذكره الادريسى فى معرض كلامه عن المنطقة بقوله : « ومن مدينة نقاوس الى حصن بادس وهو فى أسفل جبل أوراس » (42) مكتفيا بهذه الاشارة الخاطفة ، مما يجعل الباحث يتساءل عن تحديد هذا المسلك ، هل انه يربط نقاوس بحصن بادس مباشرة دون المرور باحدى المراكز العمرانية الهامة ، ام انه يمر على طبنة وبسكرة قبل ان يبـلغ بادس ، وعلى كل فانا نرجح الإحتمال الاخير لا سيما وان المسلك المباشر عبر خوانق القنطرة لم تعد تشير اليه المصادر منذ نهاية العهد الرومانى ، فضلا على أن الادريسى يقدر المسافة بين نقاوس وبسكرة ثلاث مراحل (43) مما يرجح ان المسلك لابد ان يمـر أولا عـلى كل من مدينتى طبنة وبسكرة قبل ان ينتهى عند بادس الزاب ؛ باعتبار المدينتين من المراكز العمرانية الرئيسية بالمنطقة التى لا يمكن لاى مسافر ان يتحاشاهما فى طريقه هذا ··

ويضاف الى هاذين المسلكين مسالك فرعية أخرى لم تتناولها المصادر ولم يشر اليـها الرحالة ، كانت تربط شمال الاوراس بجنوبه بدليل ان جلها كان مستعملا منذ العهد الرومانى ، وهذا ما جعلنا نثبتها فى الخريطة الملحقة بالمقال ·

بعد هذا العرض الموجز للاطار الجغرافى والحضارى لمنطقة الاوراس عشـــية تعرضها لتحولات اثرت على المقومات الاقتصادية والشروط الطبيعية والنشاط البشرى لا ســيما أثناء الفترة العثمانية التى تبتدىء بالقرن السادس عشر وتستمر لغاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر الذى عرفت فيه الجزائر الاستعمار الفرنسى الذى زاد الاوضاع سوءا فى المنطقة الاوراسية ، مما ترك آثارا سلبية لا زالت يشكو منها الاوراس حتى الآن رغم جهود التنمية الوطنية وسياسة محو الفوارق الاقليمية ·

وهنا نحاول ان نتعرف أولا عن العوامل التى أدت الى هذا التحول الســـلبى الذى أصبحت تعيشه الاوراس ، هذه العوامل التى نوجز بعضها فى ما يلى من النقاط :

أولا : **الأثر المدمر للحروب والثورات التى اجتاحت منطقة الاوراس** : منذ عهد قديم ، والتى بدأت آثارها السلبية على المنطقة تنعكس على نوعية الحياة مع مرور الزمن لا سيما بعد ان تكاثر عددها وزادت حدتها منذ انهيار الحكم الرومانى وحتى قدوم الهجرة الهلالية ، وقد سبق ان ذكرنا بعضها فى مستهل هذا البحث نظرا لاهميتها فى تاريخ المقاومة الوطنية بالمنطقة مثل ثورة بيداس التى نشرت الخراب والدمار واشاعت النهب والفوضى خاصة بالمناطق المحيطة بالاوراس. وكذلك أعمال الكاهنة التىأرادت من خلالها حسب رواية أغلب المؤرخين ، ابعاد الخطر العربى بتدمير المنطقة واشاعة الخراب بها ، ويضاف الى ذلك اسلوب ابى يزيد صاحب الحمار فى مقاومة الحكم الشيعى الفاطمى ، والذى انجر عنه تخريب قرى وسهول المنطقة الاوراسية وبالخصوص نواحى باغاى منها (44) . هذا بالاضافة الى طبيعة النزاع العشائرى لقبائل زناتة المتحالفة مع العشائر الهلالية الذى ترك هو الآخر آثارا مدمرة على اقتصاديات المنطقة ، بدليل ان بعض الجغرافيين أشاروا الى ذلك كالادريسى مثلا ذكر : « ان ارباض باغاى كانت خالية بافساد العرب لها » (45) ، وكانت هذه الجهات قبل ذلك قرى وعمارات متصلة .

ثانيا : **تغلب طابع البداوة على أغلب جهات أوراس** ، لا سيما الجهات الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية ، وقد كان هذا الوضع المضر بالحياة الحضرية نتيجة حتمية للسياسة التى انتهجها الرومان عند احتلالهم للمنطقة ، هذه السياسة المتميزة بأسلوب الاستعمار الزراعى المعزز بسلسلة من الحصون والخطوط الدفاعية (اللمس) والتى كانت تهدف اساسا الى طرد البدو من مناطق الهضاب العليا وتعقبهم حتى تخوم الزيبان، وهذا ما نتج عنه مع مرور الوقت تكاثر جموع البدو وراء خط اللمس الرومانى ابتداء من جنوب تونس وطرابلس وحتى حصن مسعد Castellum Dimmidi وهذا ما شكل ضغطا بشريا هائلا وجد فى انهيار السلطة الرومانية تدريجيا بالمنطقة فرصة سانحة للتزحزح نحو الشمال وتحويل جهات شاسعة من الاوراس الى سهوب رعوية ، لا سيما بعد أن تزعمت هذا التحرك البشرى قبيلة لواتة وعلى رأسها زعماؤها مثل انتلاس وكوتريناس (46) ، وبالفعل بدأت آثار هذه الهجرة البشرية السلبيه تظهر للعيان عندما تحركت عشائر كثيرة من زناتة أثناء العهد البيزنطى لتحتل الجهات الشرقية والجنوبية من

الاوراس ولتتجاوزها نحو الجهات الشمالية والغربية ، يساعدها فى ذلك الفراغ السياسى الذى أصبح يعيشه الاوراس ، وهكذا تغلب طابع البداوة بصفه خاصة على نواحى الحضنة (الزاب الغربى) وعلى جزء كبير من الهضاب العليا (السباخ) حيث تتوفر الظروف الملائمة للحياة الرعوية ٠

ورغم الفتح العربى وسياسة الولاة العرب والحكام الاغالبة الرامية الى ابقاء الاوضاع كما هى قدر المستطاع الا أن تحرك زناتة الذى عززته انتفاضة الخوارج ، استمر حتى القرن السابع الميلادى ، الذى شهد بلوغ هذه العشائر البدوية المناطق الوسطى من الاوراس والانحدار منها نحو سهول باغاى الذى استوطنها آنذاك بطون هوارة الاباضية من ضريسة ومزاتة واصبحت مجالا للرعى تنتقل عبره هذه البطون بين جهات الصحراء ونواحى الهضاب العليا (47) ٠

كل هذا يدفعنا الى طرح الفكرة الشائعة التى ليس لها أساس من الصحة والقائلة بأن الهجرة الهلالية هى السبب الرئيسى فى تغلب الطابع البدوى على الجهات المتاخمة للصحراء من بلاد المغرب العربى ؛ لان كل ما فى القضية هو أن عشائر الهلاليين التى بلغت المنطقة فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت خير سند للقبائل الزناتية فى تعزيز سيطرتها على المراعى والوقوف فى وجه منافسيها من صنهاجة وكتامة ، وقد كان لهذا الحلف الواقعى المستمد قوته من طبيعة الحياة اليومية خير وسيله لتسهيل عملية امتزاج الهلاليين بالزناتيين مكونين بطون رئيسية اسمها عربى وأصولها مغربية بطون الاثبج التى أصبحت لها السيادة على الحضنة والزيبان ، وفروع الدواودة المنتمين الى رياح والذين أصبحت لهم الكلمة المسموعة على مناطق شاسعة تمتد من واد ريغ والزيبان الى نواحى مجانة فى أقصى الشمال الغربى للهضاب العليا ، هذا فى وقت أصبحت فيه اسرة بنى مزنى تحكم بسكرة وجهات واسعة من الزيبان من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر ، كل هذا عمل على تغيير الاوضاع بالاوراس ، وبالتالى لم يعد هناك مجال للأخذ بالفكرة التى ترى ان هناك تغيرا مفاجىء للشروط الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والتى حاولها بعض الدارسين الاخذ بها من خلال دراساتهم الجغرافية ذات الطابع التاريخى مثل بيار سلامة ، صاحب اطروحة المسالك الرومانية بافريقيا الشمالية (48) ، وقوتى

صاحب كتاب العصور المظلمة من تاريخ افريقيا الشمالية (49) ، وجـان دى بوا الذى أرجع هو الآخر هذا التغير فى الآثار المدمـــرة للحملة الهلالية فى دراســـته الجغرافية والتاريخية للمنطقة المتاخمة للصحراء الشرقية (50) ·

ثالثا : **شيوع الحياة العشائرية بالمنطقة الاوراســية** ، مما جعل العلاقات الاجتماعية تتصف بالخشونة والقسوة ، وتتميز بالعداء والتناحـــر الذى جعل أهالى الاوراس على استعداد دائم لمواجهة المهاجمين دفاعا عن استقلالهم وذودا عن مواطنهم ، وهذا الواقع الذى أصبح يعيشه سكان هذه الجهة هو الذى دفع بعض الكتاب الى الصـــاق الصفات المستهجنة واطلاق العبارات القاسية التى كثيرا ما تجاوزت جادة الصواب ، مثل وصف ابن حوقل لسكان الاوراس : « بأنهم قوم سوء ··· وبانهم متسلطون على من جاورهم من البربر وغيرهم ··· فهلكوا وأتى الله بنيانهم من القواعد » (51) ونفس الفكرة يحملها عنهم الادريسى الذى وصف طبيعة الحياة العشـــائرية لاهالى الاوراس بقوله : « جبل أوراس ··· وفى أهله نخوة وتســـلط على من جـاورهم من الناس » (52) ، أما ليون الافريقى فانه يتحامل عليهم كثيرا بسبب اسلوب معيشـــتهم فهو يصــفهم بانهم كانوا مشهورين بالسرقة وارتكاب اعمال القتل رغم ان ذكاءهم محدود » (53) ·

لكن الواقع عكس ذلك ، لان الوضعية الاجتماعية والحالة الاقتصادية التى كانت عليها الاوراس جعلت المحافظة على المياه وحيازة مجال الرعى ضمن رباط العشيرة أمر حيوى بل شىء مقدس فى حد ذاته لا يمكن التفريط او التســـاهل فيه دون الالتجاء الى القتال واستعمال القــوة ·

رابعا : **تلاشى السلطة الادارية وغياب الحكم المركزى بمنطقة الاوراس** :

وذلك منذ عهد مبكر قد يعود الى فترة الحـكم الفاطمى للمنطقة (906 ـ 969 م) مما أدى الى تعزيز النزعة الاستقلالية لدى ساكنى الاوراس ، وبالتـــالى ساهم فى اضعاف الصلات التجارية والروابط البشرية بين الاوراس وبقية الجهات الاخرى ، وهذا ما لفت انتباه بعض الرحالة والجغرافيين الذين أشاروا الى ان باغاى مع كونها المركز الرئيسى للمناطق الشرقية من الاوراس كانت منذ عهد باكر مستقلة بشؤونها ، فابن حوقل فى

هذا الصدد يذكر بأن : « باغاى عاملها على صلاتها ومعادنها ووجوه أموالها عامل بنفسه لا من تحت يد أحد » (54) ، كما أن الادريسى هو الآخر يذكر بعد ذلك بقرن « أن باغاى ، قبض معادنها وتصرف أحوالها لمشايخها » (55) ؛ اما ليون الافريقى فانه يشير الى أن سكان الاوراس قد اعتادوا التستر على الطرق والمسارب المؤدية الى مواطنهم الجبلية الحصينة ، بعد ان امتنعوا عن عقد أى صلات مع سكان المناطق المجاورة لهم ، وذلك خوفا من تعسف الامراء وظلم الحكام المعادين لهم (56) .

وهكذا تعزز استقلال المنطقة الاوراسية ، بحيث ان الحفصيين رغم مد نفوذهم الى كل من بجاية ودلس وبسكرة ، الا أنهم لم يتمكنوا من بسط نفوذهم على الاوراس ، وذلك رغم المحاولات المتكررة التى انتهى أغلبها بالفشل الذريع ، مثل الحملة التى قام بها الحاكم الحفصى أبو فارس احمد بن أبى العباس ، التى أوردها ابن قنفد القسنطينى فى فارسيته بهذه العبارات : « وفى هذه السنة (ثمانمائة هجرية) كانت وقيعة الاوراس بوصول امير المؤمنين (أبو فارس أحمد) الى مكان لم يصله ملك غيره وهو اقصى الجبل ، وأخطا المنصرفون من الجند طريق الخروج وراصدهم البرابر فى الشعب وفى بطن الوادى لولا ان أمير المؤمنين ثبت حتى انصرف أكثر الناس » (57) .

بمثل هذه المقاومة بقيت المنطقة الاوراسية ممتنعة حتى أثناء العهد العثمانى الذى شهد هو الآخر شن حملات سواء من بايليك قسنطينة او من الايالة التونسية وذلك للحد من الغارات التى كان يتعرض لها العديد من المسافرين والحجاج فى طريقهم من المغربين الاقصى والاوسط نحو بلاد الجريد ومنها نحو اقطار المشرق العربى ، ونذكر فى هذا السياق احدى الغارات التى تعرضت لها المنطقة على يد أحد حكام الايالة التونسية من أجل تامين الطرق التجارية ، وتتلخص أحداث هذه الغارة فى أن عشائر النمامشة امتنعوا عن تقديم رسوم مقابل اختلافهم الى البلاد التونسية وتعاملهم مع اسواق الجريد ، ثم انتهى بهم الامر ان تعرضوا لركب حجيج فاس سنة 1164 هـ (1750ـ1751) ، وهذا ما دفع على باشا بن على التركى حاكم تونس الى تجهيز حملة انتقامية ضدهم بعد ان استغاث به هؤلاء الحجاج حتى يرد لهم ما سلب النماشة من خيل وابل وأحمال وأموال ؛ وقد اثبت ابن ابى الضياف فى كتابه الاتحاف وصفا دقيقا لهذه الغارة نقتبس منه هذه

العبارات : « وامتلأت ايديهم (يعنى النمامشة) من أموال بيت الله ومسكن رسالته وتوزعوه بينهم ··· فارسل اليهم وفدا فحبسوه وامتنعوا واغلظوا فى الرد ··· فعزم على غزوهم فخرج اليهم بمحلة عظيمة استوعب فيها المزارقية ، ومحلة الترك عليها ابنه سليمان ، وابنه يونس فى محلة صغيرة ··· وطار لهم من توزر وصبحهم ، واجفلوا أمامه والخيل تأخذ باعناقهم وتجافلهم حتى الخنقة فسرح لهم الاعراب والجنود فآستأصلتهم » ···
وقد مدح ابو عبد الله الورغى بهذه المناسبة الباى بقصيدة جاء فيها :

دعتـــه جبـــال الزاب لما تبســـطت يـد الظـلم فى أوسـاطها والجوانب ·
شكت ناعم الاعشــــاش أقوام غلظة وبأس شـــديد بالحليـــقة واصب ·
وقد جرعوا الاقيال فى الحرب غصـــة لـوت بصيـاصى تركهـم والاعـارب ·
فما رفعوا رأســـا لهم بعـد وقعـــة أشابت بفج «أمغيل» سود الذوائب(58)

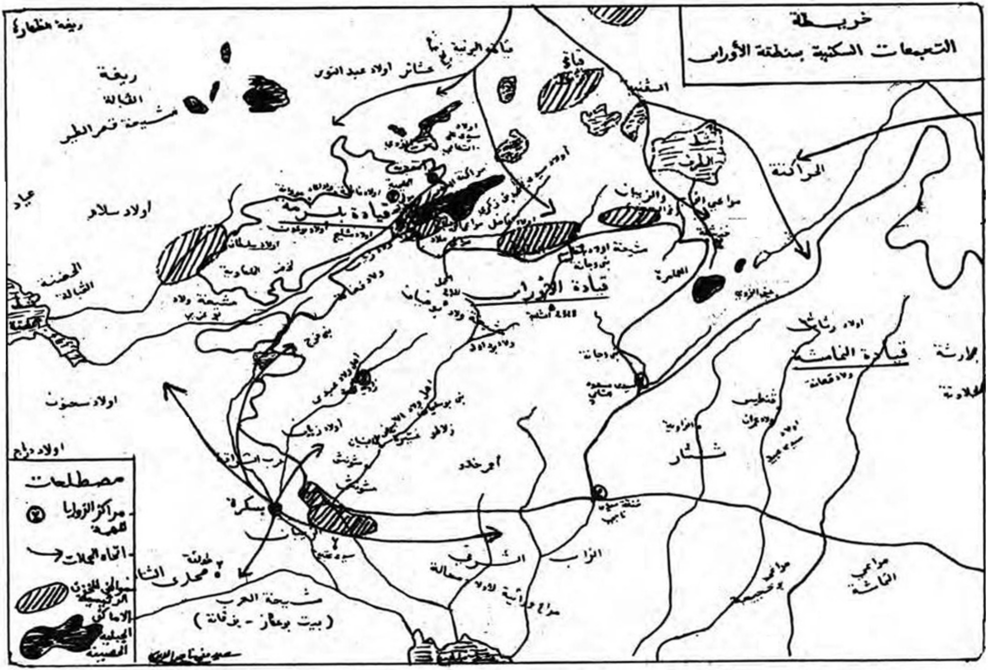
كل هذه العوامل السابقة عملت على ابقاء الاوراس محتفظا بوضـــعه الخاص المتميز باستقلال داخلى ، مما جعل الادارة التركية لبايليك الشرق تلجأ لاقرار هيبتها وتأكيـد سيطرتها على المناطق الجبلية من الاوراس الى انتهاج عدة أســاليب ادارية واجــراءات حربية نجملها فى هذه النقاط :

1 ـ **اقرار الحاميات العسكرية** المكونة من الجنود الاتراك « النوبة » بالمدن الرئيسية القريبة من اقليم الاوراس ، مثل حامية تبسة المكلفة بمهمة مراقبة تحركات النمامشة ، وحامية بسكرة التى خولت لها صلاحيات مراقبة الجهات الجبلية حول المنعة ومشـــونش والخنقة والقنطرة ، بالاضافة الى حامية مركز البايليك بقسنطينة التى كانت تقوم باقرار الهدوء بالهضاب العليا الجنوبية « السباخ » وبالتوجه الى الجهات الشـــمالية والشمالية الشرقية من الاوراس بحملات تأديبية عرفت عند السكان بمحلتى الخريف والربيع ·

2 ـ **العمل على تنصيب عشائر المخزن فى الاماكن المهمة بالاقليم** ، قصـــد مراقبة السكان والحيلولة دون اندلاع ثورة قد يكون فيها خطـر على ســلطة البايليك بالمناطق الاخرى من الشرق الجزائرى ، وقد تأكدت أهمية هذه القوة الحربية التى يتكون اغلب فرسانها من العشائر الحليفة للاتراك ، التى أصبح لها دور هام بالمنطقة منذ عهد صالح

باى (1792/71) اذ حسب المعلومات المتوفرة نذكر من بين هذه القبائل المخزنية : مخزن قبيلة الزمول التى اقتطعت الاراضى الصالحة للزراعة والرعى ليتمكن من حراسة الممرات الجبلية بنواحى باتنة حتى تظل طريق بسكرة مفتوحة امام تحركات الحاميات التركية ، فضلا عن ان هذا المخزن كان يشرف على مراقبة كتلة بلزمة الجبلية الحصينة ؛ وكذلك قبيلة مخزن الصحارى التى كانت تحرس الجهات الشمالية والشرقية لبسكرة ، ومخزن عشيرة الاعشاش بزعامة عائلة بن سديرة الذى كان يجوب السفوح الشمالية للاوراس ابتداء من رأس أسرذون « بمحاذاة خنشلة الحالية » الى نواحى بوعريف موطن هذه العشيرة المخزنية التى طالما وجدت المساندة للقيام بمهمتها لحراسة هذه الجهات من فرسان الحراكتة وأولاد فاضل (59) أما فى الجهات الغربية للاوراس ، فهناك فرسان مخزن ابن دايخة الذى كلف بحراسة السفوح الجنوبية ألغربية حيث تنتشر قبائل أولاد سلطان القوية (60) · يعاضدهم فى ذلك رجال قبيلة بنى يفرن الذين منحوا الاراضى الواسعة لهذا الغرض من طرف البايليك (60 مكرر) ·

3 ـ **تدعيم المشيخات الوراثية المتعاملة مع البايليك** ، هذه المشيخات التى أصبحت الطابع المميز لارياف الشرق الجزائرى بعد أن هيمنت منذ عهد متقدم من الحكم التركى على ثلثى بايليك الشرق بما فيها الاوراس ، مما اضطر معه حكام البايليك ان يتعاملوا معها لصالحهم ، ففى المنطقة الاوراسية نجد العديد من هذه المشيخات مثل مشيخة أولاد بوعزيز ، بجهات بلزمة الى الشرق من بريكة ، ومشيخة أولاد عبدى بجهات المنعة ، ومشيخة أولاد بوضياف بالاوراس الاوسط والشمالى ومشيخة أولاد بلقاسم بنواحى الشلية ، هذا بالاضافة الى الاحلاف القبلية الكبرى بالمناطق الجبلية مثل حلف البرابر بنواحى مشونش الذى وجد المساندة والتأييد من بيت بوعكاز بالزيبان ، وحلف الاعشاش وحلف أولاد خيار · وذلك فضلا عن المشيخات المجاورة المرتبطة بالحكام الاتراك مثل مشيخة العرب « بيت بن قانة » بالزيبان ، ومشيخة قصر الطير بالهضاب العليا الغربية ، واحلاف اولاد عبد النور والحراكتة التى كان على رأس فرسانها بعض القادة من رجال البايليك المشهورين مثل صالح باى الذى تولى قيادة حلف الحراكتة قبل ان ينصب بايا على قسنطينة ·


خريطة
التجمعات السكنية بمنطقة الأوراس
مصطلحات
مراكز الزوايا المهمة
اتجاه الحملات
الأماكن الجبلية الحصينة
قيادة بلزمة
قيادة الأوراس
قيادة النمامشة
أولاد سلام
أولاد سحنون
أولاد دراج
ريغة
الحضنة
الحراكتة
بسكرة
الزاب الشرقي
الزاب
أم خدو
ششار
مراعي النمامشة
مشيخة العرب
(بيت بوعكاز - بن قانة)

4 ـ **السعى للحصول على تاييد ومساندة شيوخ الزوايا ومرابطى الطرق الدينية ،** نظرا لما كانوا يتمتعون به من نفوذ قوى وكلمة مسموعة فى الجهات الجبلية داخل الاوراس ، وذلك عن طريق منح الامتيازات لمثل هؤلاء الشيوخ والمرابطين مثل اسقاط المطالب المخزنية ومنح الاقطاعات وتقديم الهدايا واصدار الفرمانات ، ولعل أحسن شاهد على ذلك نجده فى رسالتين عثرنا عليهما مؤخرا ، احداهما اصدرها الباى محمد (سنة 1241 هـ ـ 1825 م) والاخرى وجهها الحاج أحمد باى فى عام (1242 هـ ـ 1827 م) الى احدى العائلات ذات النفوذ والتأثير بمنطقة بلزمة (61) ، مما يظهر لنا طبيعة العلاقات بين رجال البايليك وشيوخ الزوايا بالاوراس ، ففى مقابل الامتيازات كان هؤلاء المرابطين يحرصون على تقديم خدمات للادارة التركية ، والقيام بدور المدافع عن مصالح البايليك ، ففى هذا الصدد نورد على سبيل المثال ان مرابطى زاوية بن عباس بالمنعة كانوا يعملون على تأمين الطريق عبر مضايق واد عبدى ، حتى تتمكن الحامية التركية ببسكرة « النوبة » من تجديد أفرادها بعد انتهاء مدة الخدمة العسكرية وذلك رغم حالة التمرد التى كان عليها سكان تلك الجهة (62) .

5 ـ **شن الحملات الانتقامية المفاجئة فى بعض الاوقات** ، وذلك عندما لا يجد الحكام مفرا من استعمال هذا الاسلوب لفرض نفوذهم على السكان واستخلاص بعض الرسوم والضرائب ، فبغض النظر عن الحملات الفصلية الاعتيادية « المحلات » كان بعض البايات يقومون بحملات واسعة النطاق يتعقبون اثناءها العشائر الممتنعة ، وغالبا ما تنتهى هذه الحملات بالحصول على الغنائم الوفيرة والثروات الطائلة ، مثل حملة شاكر باى عام 1817 ، على مناطق النمامشة ، مما اضطر هؤلاء السكان الى الهروب امامه وبالتالى لم يتمكن من اللحاق بهم مما دفعه الى الانتقام من جيرانهم قبائل سيدى عبيد (63) ، وحملة الباى ابراهيم بن على عام 1822 ، على قبائل النمامشة كذلك ، وقد تمكن هذا الباى من الاستحواذ على أربعين ألف رأس من الغنم حسب بعض المصادر (64) . كما نذكر من هذه الحملات ، حملة الباى مصطفى الوزناجى عام 1797 على عشائر الحراكتة والتى انتهت باخضاعهم والحصول منهم على غنائم ضخمة ، ولم يكتف بذلك بل أعاد الكرة عليهم مما مكنه من الاستحواذ على مغانم أخرى (65) وقد كانت هذه الحملات الكثيرة سببا مباشرا

فى اعلان العصيان والقيام بثورات عديدة من طرف بعض القبائل الاوراسية فى أواخر العهد التركى ، مثل الثورات المتكررة التى عرفتها الجهات الشرقية والوسطى من الاوراس من 1818 الى 1823 ، والتى نتج عنها اضعاف سلطة البايليك فى هذه الجهات .

وعلى كل فان هذه الوسائل التى اتبعها الحكام وما نتج عنها من ثورات جعلت الوجود العثمانى بالاوراس يتميز بفترتين متعاقبتين ، أولاهما ابتدأت مع تحكم الاتراك ببايليك الشرق وانتهت بتولى صالح باى مقاليد بايليك قسنطينة سنة (1771 م) ، والمرحلة الثانية تبتدىء مع حكم صالح باى وتستمر حتى سقوط قسنطينة فى يد الفرنسيين (13 اكتوبر 1837) ، ولعل أهم ما يميز الفترة الاولى ـ التى لا نعرف عنها الا القليل لندرة مصادرها ووثائقها التاريخية ـ هى محاولة أغلب البايات اقرار الاوضاع فى المناطق الجبلية كما كانت عليه قبل ذلك ، وذلك بانتهاج سياسة مهادنة معتمدة على خلق احلاف محلية تستند الى نفوذ العائلات الاقطاعية ورجال الدين نظرا لكون مصالح هذه العائلات تتماشى مع مصالح الحكام الاتراك ، أما المرحلة الثانية ـ التى لا تخلو من المصادر ـ فانها تتميز بانتهاج سياسة تعتمد فى أساسها على الوسائل العديدة التى التجأ اليها الحكام والتى سبقت الاشارة لها .

أما الاطار الادارى الذى مارست بواسطته هذه السياسة صلاحياتها فهو يتمثل فى خلق قيادات محلية تشمل جهات شاسعة من الاوراس ، وهذه القيادات هى كالتالى :

ا ـ **قيادة الاوراس** ، تتالف من الجهات الجبلية الوسطى الواقعه الى الجنوب من بلاد الحراكتة والزمول ، وهى تضم احدى عشر قبيلة رئيسية هى على التوالى : الاعشاش ، أولاد بوحالة ، بنى وجانة ، العمامرة، أهل الواد الابيض ، أهل واد عبدى، المعافر، أولاد سعيد ، أولاد فاضل ، بنى مومنين ، أولاد زيان (66) ، ويتولى أمر هذه القيادة شيخ برتبة قائد يعرف بشيخ الخلعة يتسلم منصبه مقابل حق التولية الذى يتعهد به لادارة بايليك قسنطينة ، والذى كان يقـــدر فى أواخر العهد العثـــمانى بثلاثة آلاف بوجو « ريال فضـــة » (67) .

هذا ويمارس قائد الاوراس « شيخ الحلعة » صلاحياته الادارية بمعاضدة قوة مسلحة من الفرسان المسلحين بالبنادق والمعروفين بالمزارقية ، وقد جرت العادة ان تتكفل قبائل أولاد فاضل وبنى مومنين وأولاد سعيد ، بتوفير هذه القوة من الفرسان المشكلة من مائة وخمسين فارسا (68) ، والتى كانت تستخدم خاصـــة فى استخلاص الضرائب وفرض الغرمات وتنفيذ أوامر البايليك ·

اما اسناد منصب القيادة فغالبا ما يكون من نصيب رجال أظهروا اخلاصهم وتبعيتهم لادارة البايليك مثل عائلة بن بوضياف التى تولى بعض أفرادها منصب شيخ الحلعة . وكان آخرهم حسب تقارير الفرنسيين سيدى العربى بن بوضياف ، الذى اســـتولى الفرنسيون فى عهده على اقليم الاوراس ، ثم اعادوا تنصـــيبه من جديد قائدا تحت سلطتهم عام 1842 (69) ·

ب ـ **قيـــادة بلـزمة** :

تتكون من المناطق الجبلية الغربية الممتدة من تخوم الصحراء جنوبا حتى بلاد أولاد سلام شمالا ، حيث تتاخم قبائل عبد النور وعلمة البحر كما تمتد من كتلة جبال اوراس المركزية الى بلاد اولاد سلطان بالقرب من منخفضات الحضنة ، وتشتمل هذه القيادة على الكثير من القبائل المنعزلة داخل الجبال بالاضافة الى بعض العشائر الاخرى مثل اولاد فاطمة والاخضر والحلفاوية وأولاد هليح والعليفية (70) ·

ويشرف على هذه القيادة « شـــيخ بلزمة » الذى يماثل شـــيخ الاوراس من حيث الامتيازات المخولة له والاجراءات المتعلقة بمنصبه ، فهو ينال « الحلعة » الخاصة بالمشيخة مقابل مبلغ مالى يقدر بحوالى ثلاثة آلاف بوجو فضة ، كما أنه كان يمارس ســـلطته على قيادته نيابة عن البايليك بمعاضدة فرسان «المكاحلية». المنتمين الى قبيلة بوعون، وذلك مقابل اعفاء هذه القبيلة من المطالب المخزنية من ضرائب وغرامات ورسوم مختلفة (71) ·

ج ـ **قيادة النمامشـــة** :

تخضع لها المناطق الشرقية من الاوراس ، ويتولى شؤونها قائد مقابل تقديمه حقّ التولية المقدر عادة بالفى بوجو فضة « ريال » ، ومما يلاحظ على هذا القائد أن سلطته

ظلت فى أغلب الاوقات سلطة اسمية أكثر منها سلطة عملية ، فهو يستعين بمحلة البايليك الفصلية لاستخلاص الضرائب وأخذ الرسوم من سكان قيادته ، أما فى أوقات غياب هذه المحلة التى قد تطول لعدة سنوات فى بعض الاحيان ، فانه لا يجسر ان يتجول فى قيادته ، وان هو حاول ذلك فانه غالبا ما يعرض نفسه لخطر محقق (72) ٠

ولعل هذا الوضع الذى كانت عليه قيادة النمامشة يعود الى كون سكانها كانوا يعيشون حياة قوامها الترحل والانتقال وراء قطعان المواشى بحثا عن مصادر المياه وطلبا للمراعى ، الامر الذى ساعدهم كثيرا على التهرب من سلطة البايليك والامتناع عن الخضوع للقياد الذين يمثلون السلطة التركية بتلك القيادة ٠

وعلى كل فان قيادة النمامشة كانت تشتهر بكثرة خيامها وشجاعة فرسانها ووفرة قطعان مواشيها ، فحسب احدى الاحصائيات التى تعود الى أوائل عهد الاحتلال ، نجد ان الجهات الشرقية من قيادة النمامشة ، كانت تضم 4500 خيمة يحرسها 3600 فارس و 2150 رجل قادر على حمل السلاح ، أما الجهات الغربية من نفس القيادة ، فهى تقدر بـ 22500 خيمة تتوفر على 1500 فارس و 2000 رجل قادر على الحرب (73) ٠

لكن المهم فى هذه التنظيمات الادارية المتمثلة فى القيادات الثلاث ، انها كانت تتماشى ومصالح سلطات البايليك ، فهى كانت تعمل على توفير مصادر دخل دائمة لخزينة بايليك الشرق ، كما أنها كانت ترمى الى توثيق الروابط الاقتصادية والسياسية بين مركز الحكم بقسنطينة وبين بقية جهات الاوراس ٠

فبالنسبة للهدف الاول المتمثل فى ايجاد مصادر دخل قارة لحكومة البايات ، فاننا نذكر أن قيادات الاوراس الثلاث كانت توفر مبالغ مالية وعوائد عينية ضخمة فقيادة النمامشة كانت تساهم بما يقدر بـ 3000 رأس غنم كلما توجهت لها المحلات الفصلية ، هذا فضلا عن رسم التولية « الفرح » الذى يقدمه القائد مقابل خلعة التولية والذى يتجاوز 3000 بوجو فضة ، ليبلغ فى بعض الاحيان 6000 بوجو فضة « ريال » حسبما تفيدنا به بعض وثائق الارشيف (74) ٠

ويدخل فى هذه المصادر القارة ما تقدمه قيادة الاوراس (الوسطى) عندما تتعرض لمحلة الباى ومزارقية القائد ، من كميات هامة من خشب البنـــاء ومن الفواكه الجبلية كالجوز مثلا ، مع العديد من قطعان المواشى واعداد كبيرة من الخيل والبغال ،. ولاخذ مثال على ذلك نذكر ان اهالى بنى فرح كانوا يدفعون كل ســـنة 30 دورو « ريال » لحاميـــة بسكرة . وعندما تقصدهم المحلة فانهم يضيفون الى ذلك سبعين حصيرا (75) .

اما اذا توجهت المحلة الى أولاد عبدى فانها تستفيد من ضيافة الاهالى بالمنعة حيث تجد التأييد من زاوية بنى عباس ، ولا تتحرك من هناك الا بعد التاكد من خضوع السكان واستخلاص الغرامات المؤلفة من كميات كبيرة من البرانس والحصر تضاف الى 30 دورو « ريال » أى ما يقدر بـ 150 فرنك فى أوائل عهد الاحتلال (76) .

ولا تكتمل هذه المصادر التى كان يحصل عليها البايليك من قيادات الاوراس الا بذكر ما توفره قيادة بلزمة ، التى تزود البايليك هى الاخرى باعـــداد هامة من الخيل والبقر والغنم وبكميات ضخمة من الاخشاب الصالحة للبناء ، زيادة عما تقدمه من رسوم نقدية تساهم بها خاصة العشائر الجبلية اثناء توجه الحملات العسكرية لها (77) .

على ان ما يلاحظ على هذه المداخيل انها غير محددة ، اذ غالبا ما ترتبط كميتها بقوة المحلة الفصلية وفعالية فرسان المكاحلية ، كما ترتبط ايضا بالوقت الذى تتوجه فيـه هذه الحملات الى المناطق الجبلية ، اذ كلما زادت قوة المحلة وبرهن الفرسان على فاعليتهم فى الوقت المناسب ، كلما تضاعفت كميات هذه المصادر النقدية والعينية التى تزود خزينة البايليك بقسنطينة . وكلما ساءت المحاصيل ولم تتمكن المحلة والفرسان المعززين لها من التوجه فى الوقت الملائم كلما قلت تلك المحاصيل واختصرت على أعداد محدودة من المواشى وحمولات قليلة من اخشاب البناء حسبما لاحظه روسو فى تقريره المالى عن بايليك الشرق (78) .

اما بالنسبة للهدف الثانى الذى كانت ترمى اليه سلطات البايليك من وراء تنصيب قيادات الاوراس ، فهو يتلخص فى محاولة الحكام المستمرة لربط المنطقة الاوراسية سياسيا واقتصاديا بمركز البايليك ، وذلك بتسهيل التعامل التجارى لاهالى الاوراس

مع الاسواق التى يشرف عليها البايليك سواء الواقعة بالهضـــاب العليا كاســـواق السقنية والعثمانية او التى تقع داخل المدن الرئيسية مثل بسكرة ، بالنسبة لمناطق الاوراس الجنوبى وقسنطينة بالنسبة لمناطق الاوراس الشـمالى ، لا ســـيما وان هذا التبادل كانت تفرضه الحاجة اليومية والانتاج المتكامل بين جهات التل واقليم الصـحراء من جهة وبين اقليم الاوراس من جهة أخرى . فبفضل هذا التشجيع للتبادل التجارى أصبحت قسنطينة بمثابة سوق رئيسى تصرف عن طريقه منتوجات الاوراس من صوف وحبوب وجلود وتمور وفواكه واخشاب ، مقابل الحصــول على المـــواد الضرورية من مصنوعات جاهزة ومحاصيل زراعية لا تتوفر بمنطقة الاوراس ، وهذا ما تؤكده بعض التقارير الفرنسية التى تفيد بأن السلطات الفرنسية القت القبض على شيوخ الاوراس فى شهر اكتوبر ـ نوفمبر 1837 عندما قدموا الى قسنطينة لتقديم فروض الطاعة وتسلم خلعة التولية من الباى الحاج أحمد ، وقد اتهمهم الفرنسيون بالتآمر والجوسسة على جيش الاحتلال وبذلك انقطع أهالى الاوراس عن التردد على أسواق مدينة قسنطينة كما كانوا يفعلون سابقا ، بل أصبحوا يقصدون أسواق السقنية بالهضاب العليا التى لم تحتل بعد ، ان لم يتوجهوا رأسا الى تونس لتصريف انتاجهم من الصوف والحبوب والتمور (79)، مما يسمح لنا بالقول بأن هذا النوع من العلاقات التجارية والاتصالات الادارية التى عمل البايات جاهدين على تنميتها وتطويرها ، وجدت فى الاحتلال الفرنسى عائقا لها مما زاد فى عزلة الاوراس وانكماشه .

بعد هذه التنظيمات الادارية وتلك الاساليب السياسية التى سبقت الاشارة اليها ، يجدر بنا ان نتعرض الى الحالة الاقتصادية التى كانت تتميز بانها كانت تقوم على تلبية مطالب البايليك المادية وسد الحاجات الضرورية لاهالى المنطقة الاوراسية وهذا ما عمل على خلق توازن اقتصادى سلبى يعتمد على نشاط زراعى ـ رعوى مزدوج ، يغلب عليه الطابع الاستهلاكى المحلى ويهدف الى ايجاد علاقة متكافئة بين البنية الخاصة للاوراس وبين امكانيات الانسان الاوراسى ومستواه الحضارى ، وهذا ما تعكسه لنا الاصناف التالية للنشاط الاقتصادى لتلك الفترة من تاريخ الاوراس .

أ ـ **المحافظة على زراعة بسيطة ، معززة بنشاط رعوى محدود :**

فى السفوح الشمالية المتاخمة للهضاب العليا وفى بعض السهول الصغيرة المحصورة داخل الكتل الجبلية ، بالاضافة الى بطون الاودية الغنية بمصادر المياه حيث تتوفر الشروط المناخية الملائمة لقيام زراعة الحبوب البسيطة المعروفة بالشارة ولانتاج بعض الكميات من الخضر والفواكه ، على ان الشىء الجدير بالذكر ان سكان هذه الجهات غالبا ما يزاولون بجانب زراعة أراضيهم تربية المواشى ، وهذا ما يضطرهم الى الارتحال الموسمى المحدود الذى لا يتجاوز نطاقه السفوح الجنوبية للاوراس ، وأحسن مثال على هذا النشاط الزراعى ـ الرعوى المتكامل نجده فى أسلوب حياة قبيلة أولاد داوود هذه القبيلة التى كانت تقضى فصل الشتاء فى فلاحة سهول المدينة وتحمامات القريبة من جبلى اشمول والشلية ، لتنتقل بعد ذلك بقطعانها نحو أعالى الجبال ، أما فى فصل الخريف فان رجال هذه القبيلة يتوجهون بمواشيهم نحو الاودية الجنوبية حتى يبلغوا فى رحلتهم الفصلية هذه قريتى البنيان ومشونش حيث يحصل رجال القبيلة على ما يحتاجونه من التمور . بعدها يعودون نحو الشمال بأحمال التمر وقطعان المواشى حتى لا يفوتهم العمل فى حصاد حقولهم فى أوائل الصيف ، قبل ان يتوجهوا من جديد نحو مرتفعات الجبال طلبا للكلا المتوفر هناك (80) ، وهكذا تعيش هذه القبيلة مثل غيرها من قبائل الاوراس الاخرى فى رحلة موسمية دائمة لا يتخللها سوى العمل الزراعى المؤقت والتبادل التجارى المحدود .

2 ـ **التحول الى الرعى الموسمى فى بعض المناطق** التى تتميز بعدم ملاءمتها للزراعة مثل هضاب النمامشة ومنخفضات السباخ والسهول المتاخمة لاقليمى الحضنة والزيبان التى أصبحت تؤلف بفعل هذا الرعى الموسمى مجال تلاحم بشرى يقرب أهالى جبال أوراس من سكان الجهات المجاورة من الزيبان والهضاب العليا . وقد عرف هذا المجال الرعوى توسعا ملحوظا أثناء العهد العثمانى حتى أصبح يغطى مساحات شاسعة من الاوراس أصبحت مع مرور الزمن بمثابة قطاع خاص لعديد من العشائر البدوية التى تمتهن تربية المواشى وتزاول حرفة الرعى .

ويمكن تصنيف العشائر التى كانت ترتبط بمجال الرعى الموسمى حسب المراعى الشتوية أو الصيفية · فمن أهم العشائر التى كانت تقيم بالمراعى الصيفية نذكر :

- عرب الشراقة المقيمين بنواحى الوطاية وبلزمة والسهول القريبة من قايس ·
- عرب الزاب الشرقى الذين يفضلون الجهات الممتدة من خنشلة الى سريانة ·
- عرب الصحارى الذين كانوا ينزلون جهات تازولت وباتنة والنواحى الشرقية لبريكة
- أولاد ملاد وأولاد زيان الذين كانوا يقصدون السفوح الشمالية القريبة من تمغاد وبنى مناصر وباغاى ·
- العلاونة والبرارشة ، المنتشرون فى البطاح الممتدة من خنشلة حتى باتنة ·

أما العشائر التى كانت تنزل المراعى الشتوية ، فهى فى أغلبها عشائر جبلية تنحدر من معاقلها الحصينة نحو جهات الجنوب طلبا للدفء وبحثا عن الكلا فى فصل الشتاء مثل :

- بنى سليمان وأهالى مشونش وتوات وأحمر خدو الذين يستقرون شتاء بالسفوح الجنوبية الممتدة من خنقة سيدى ناجى الى ناحية سيدى عقبة ·
- أولاد رشاش الذين يقصدون المراعى الشتوية الواقعة الى الشرق من خنقة سيدى ناجى ·
- أولاد زيان : يقصدون الشتاء بسهول الوطاية ، تاركين بساتينهم بقرى قديلة وجمورة وسويق وبرانيس التى يشتغل فيها بعض الخماسين الاجراء ·
- البرارشة والعلاونة وقد كان الاولون ينزلون فركان أما الاخرون فهم يترددون على مراعى تقرين ·
- عرب الصحارى وعرب الزاب الشرقى يقيم الاولون بالقرب من بسكرة بينما يفضل الآخرون نواحى الخنقة ·

وقد كان لهذا الاقتصاد الرعوى الزراعى تاثير مباشر على الاوضاع الاجتماعية بحيث أصبحت العلاقات الاجتماعية تتميز بعدة مظاهر مثل شيوع فكرة الصف وهجرة بعض الاهالى خارج المنطقة الاوراسية ·

فبالنسبة لظهور الاحلاف العشائرية المعتمدة على فكرة الصف والمستمدة قوتها من واقع الحياة اليومية للانسان الاوراسى آنذاك ، التى جعلت فى مقدمة المطالب الضرورية للحياة حيازة مجال ملائم للرعى مع ضمان مصادر مياه كافية · وقد وجد سكان الاوراس فى هذه الاحلاف « الصفوف » وسيلة فعالة لحماية القبيلة من أى اعتداء قد تتعرض له من القبائل المجاورة · فى وقت لم يكن فيه للحكومة المركزية « البايليك » مصلحة فى اقرار الهدوء وحفظ النظام ، لا سيما بعد أن وجد بعض الحكام الاتراك فى هذا الصراع العشائرى والتنازع القبلى فرصة للتدخل فى شؤون القبائل وعاملا مساعدا لابقاء نفوذهم بالجهات الجبلية التى يصعب السيطرة عليها ·

وعلى كل فان هذه الصراعات العشائرية يجب ان ينظ راليها من الجانب الاقتصادى وما يترتب عليه من وضع اجتماعى دون ان نعطى أى قيمة للخصائص العرقية وهذا عكس ما دأب عليه بعض الدارسين المغرضين لا سيما مؤرخى الاستعمار الفرنسى فى الجزائر الذين كانوا يرمون من وراء دراستهم التاريخية الى ابعاد المنطقة الاوراسية عن الواقع الوطنى الجزائرى المتكامل ·

فمن خلال مفهوم التكامل الاقتصادى والاجتماعى لاقاليم الجزائر نذكر أهم الاحلاف التى عرفها الاوراس فى أواخر العهد العثمانى :

- صف الغرابة المؤلف من أولاد زيان ونارة وتاغوست وبوزينة والفضالة وبعض الفرق من بنى فرح ومشونش ، الذى كان فى صراع مستمر مع صف أولاد عبدى المشكل من أهالى الرحا من أولاد عبدى والارباع وبعض الاسر من المعافة وأولاد عزوز ، وبنى بوسليمان وأولاد ملول وأولاد جانة والاغشاش (81) ·

- صف أولاد سلطان المعادى لصف أولاد خيار ، من أجل حيازة أراضى تاريتشة التى أخلتها قبائل النمامشة عندما تحولت الى الهضاب الواقعة الى الشرق (82) ·

- العشائر المتنازعة على سهول نارة ومنعة والمؤلفة من أهالى نارة فى الشرق وأولاد داود فى الشمال وأولاد عبدى فى الوسط (83) ·

ـ الصفوف المتنافسة على حيازة سهول المدينة وتاحمامات . والمشكلة من أولاد داود « التوابة » وبني بوسليمان والوجانة وأولاد عبدي وأولاد زيان (84) .

أما ما يخص ظاهرة الهجرة التي تأثرت بها بعض العشائر الاوراسية فانها تعود الى سببين رئيسيين أولهما كون المنطقة الاوراسية ظلت طيلة الفترة العثمانية منطقة « طرد بشري » تفتقر الى توفير الغذاء الكافي لسكانها نتيجة فترات الجفاف والمجاعات والحروب الاهلية ، وهذا ما دفع كثيرا من السكان من التحول من ممارسة الزراعة الى مزاولة الرعي في وقت أصبحت فيه المناطق المجاورة للاوراس تمثل مناطق جذب بشري لتوفرها على المراعي الملائمة والاراضي الخصبة . أما السبب الثاني لظاهرة الهجرة ، فهو يكمن في نتيجة الصراع العشائري ، الذي يؤدي في كثير من الاحيان الى ارتحال القبائل المنهزمة عن مواطنها بحثا عن اماكن خارج الاوراس يتوفر فيها الامن والهدوء .

وقد عمل هذان السببان على حدوث عدة هجرات بشرية افقرت الاوراس بشريا واضعفته اقتصاديا ، فرغم سياسة البايليك الرامية الى اقرار العشائر في مواطنها وخلق نوع من التوازن البشري والاقتصادي بالمنطقة حدثت هجرات عديدة من الاوراس نحو الجهات الشمالية حيث مزارع التل الخصبة « الصرا » ومراعي الهضاب الغنية « السباخ » ، وهذا ما جعل بعض الجهات من الهضاب العليا تتاثر بالاوراس من حيث نوعية الحياة وأسلوب الزراعة وطريقة البناء فضلا عن التشابه في العادات واللهجات المحلية .

ومن أهم هذه الهجرات التي حدثت أثناء العهد العثماني نذكر بالخصوص هجرة العيشاوية نحو الجهات الواقعة بين ايدوغ وسطورة ، وكذلك هجرة عشائر عبد النور والتلاغمة وأولاد سلام واولاد لخضر واولاد سلطان والسعيد واولاد معوش نحو جهات الهضاب العليا القسنطينية القريبة من جبلي نيف النسر وقريون (85) . ويضاف الى هذه الهجرات ، انتقال النمامشة الى الشرق والممتدة من الشريعة شمالا الى نقرين جنوبا ، ولعل اقرب هذه الهجرات الى الذاكرة الشعبية هي هجرة عائلة العباس بن خير الدين الى مواطني يحي بوطالب بعد انهزامها على يد منافسيها من اسرة بلقاسم بن بوعون المعروفة ببوضياف (86) ، وكذلك هجرة اولاد عزيز الى نواحي الزمول وسلاوة بالهضاب العليا بعد ان انهزموا في صراعهم المرير مع أولاد زيان ، وتذكر الروايات الشعبية التي

اوردها ماسكوراي فى كتاباته (87) بهذا الصدد : أن فرســـان أولاد زيان تمكنوا من مباغتة حصن أولاد عزيز بتاغوست شمال جبل النواصر بالاوراس ، مما مكنهـــم من الاستيلاء عليه ، وتعريض ساكنيه الى الاسر والقتل ، وعندها لم يجد الناجون بدا من مغادرة مواطنهم ، بعد ان ظلوا يتمتعون لمدة طويلة بالسيادة على قسم كبير من الاوراس ، مما سمح للقبائل المجاورة اقتسام أراضيهم بوادى عبدى والاحمر ، وذلك فى فترة متقدمة من حكم البايات قد تعود الى القرن السابع عشر ·

وتضاف الى هذه الهجرات ظاهرة اجتماعية اخرى تتمثل فى تزايد نفوذ المرابطين وشيوخ الزوايا ، الذين أصبحوا منذ مطلع الفترة العثمانية يحظون بالاحترام والتقدير من قبل سكان المناطق الجبلية بالاوراس لما كانوا يقومون به من خدمات اجتماعية وثقافية كالتوسط فى النزاعات واقرار احكام الشريعة الاسلامية والقيام بشـــؤون العبادات والتعليم ، وقد دفع هذا الوضع الذى كان عليه رجال الدين بالمنطقة حكام البايليك الى منحهم الامتيازات وتقديم الهدايا لهم ، وذلك حتى يجعلوا هؤلاء الشيوخ والمرابطين واسطة بينهم وبين الاهالى ، وأداة طيعة يستخدمونها فى بسط النفوذ والتحكم فى القبائل القوية بالمنطقة ·

ومن أهم هذه الزوايا التى ظلت بمثابة رباطات اسلامية تعمل لغرس الروح الدينية وتعميق الحضارة الاسلامية ـ العربية بالمنطقة نذكر بالخصوص :

ـ زاوية بن عباس بالمنعة المعروفة ـ بمول السبيل ـ والتى يعود تأسيسها الى أوائل العهد العثمانى ، عندما تمكن المرابط محمد الشيخ بن سيدى ابراهيم بن موسى ، التى تذكر عنه الروايات الشعبية انه ينتسب الى الشيخ عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانية ، وقد أتى من نواحى الساقية الحمراء ليستقر بالمنعة ، تاركا مشيخة الزاوية لعقبه الذين ما فتؤوا يقدمون خدماتهم الثقافية والدينية للعشائر المجـاورة ، ولحكام البايليك على السواء ، ومما يجدر ذكره أن آخر شيوخ هذه الزاوية فى العهد العثمانى ، هو سيدى محمد بن عباس الذى استضاف بزاويتـــه كلا من الحاج أحمد وأحمد بلحاج البسكرى أثناء مقاومتهما للتوسع الفرنسى فى مناطق الجنوب (88) ·

ـ زاوية سـيدى أحمد بن بوزيد ، المعـروفة بزاوية مولى القرقور ، التى يعود تأسيسها الى الولى الصالح سيدى أحمد بن بوزيد الذى انزوى بدشرة القرقور بجبل تلات للعبادة والذكر ، بعد أن قضى شبابه فى خدمة العلم عند عشـائر الحراكتة ، وقد أكتسب عقبه سمعة كبيرة واحترام فائق لدى أهالى بلزمة ، وكان آخر شيوخ هذه الزاوية قبل الاحتلال هى سيدى محمد بن سى بلقاسم مقـدم الطريقة الرحمانيـة بنواحى بلزمة (89) ٠

ـ زاوية أولاد سيدى يحيى بن زروق ، على وادى فضالة بالقرب من دشرة بنى معافة ، وقد كان آخر شيوخ هذه الزاوية فى الفترة العثمانية هى سيدى أحمد الزروق مقـدم الطريقة الرحمانية بالجهات الوسطى من الاوراس ، التى تقطنها عشائر بنى فرح وأولاد عبـدى (90) ٠

ـ زاوية بلقاضى : يعود تأسيسها الى احد أبناء ابن القاضى الشهير الذى كان فى آخر العهد الحفصى عاملا على بجاية وبونة قبل ان يتحالف مع الاخوين بربروسة (خير الدين وعروج) للوقوف فى وجه الاسبان ، لكن ما لبث أن قلب لهم ظهر المجن كما هو معروف ، وانتهى امره بالقتل اثر معركة ثنية بن عائشة ، وقد ترك ثلاثة أبناء ، احدهم بقى بمنطقة جرجرة ، والثانى نزل الحضنة ، أما الثالث فهو الذى قصد جهات الاوراس ، وأسس زاوية بناحية جرمة (بين سريانة ونانة) عرفت فيما بعد بزاوية بلحاج ، وأصبح عقبه يتمتعون بالنفوذ والاحترام بتلك الجهات ، مما مكنهم أخيرا من تنصيب أنفسهم حلقة وصل بين الاهالى وسلطات البايليك ، وقد كان آخر شيوخ هذه الزاوية قبـل دخول الفرنسيين للمنطقة هى سيدى بلقاسم بلقاضى ، الذى ترك شؤون الزاوية عند الاحتلال لابنه سى محمد بلقاضى ليواجه الاوضاع الجديدة التى خلقها الاحتلال بتلك الجهات من الاوراس (91) ٠

ـ زاوية سيدى مسعود الشابى ، الموجودة بأراضى بنى بربار والتى يعود تاسيسها الى سيدى مسعود الشابى، الذى عمل جاهدا هو ومن سيخلفه على رأس الزاوية من عقبه، للتحكيم فى النزاعات المستمرة بين قبائل النمامشة وأهالى شاشار (92) ٠ هذا بالاضافة

الى زوايا أخرى أقل أهمية مثل زاوية تمرسين وزاوية خنقة سيدى ناجى ، وزاوية البنيان ، وزاوية سيار على وادى باجر بالقرب من بنى بربار ·

ولا تكتمل هذه الاوضاع الاجتماعية الا بالاشارة الى المظاهر العمرانية التى أصبح يتميز بها الاوراس والتى جعلت من التجمعات السكنية « الدشر » ترتبط بالاماكن المحصنة والنقاط الاستراتيجية ، وذلك حتى يسهل الدفاع عنها والتحصن داخلها أثناء الغارات المفاجئة ، ولعل احسن نموذج لفن العمارة المحصنة بالاوراس نجده فى هندسة مداشر أولاد عبدى وأولاد داوود ، حيث تتخذ المساكن شكلا مستديرا يعلو الاماكن المرتفعة ويشرف على الوديان العميقة ، وهذا الوضع هو الذى دفع أحد الرحالة الاوروبيين الى القول بأن سكان الاوراس لم يروا من الضرورى تحصين مدنهم لكونها ذات مناعة طبيعية (93) ·

على أن هذه المداشر الحصينة لم تكن رغم مناعتها فى مامن من الهجومات والحروب ، وهذا ما تطلب تشييد حصون بجوارها تكون ملجأ أخيرا لسكان هذه الدشر فى فترات الفتن وأوقات الهجوم · وقد تميزت هذه الحصون المعروفة محليا بتاقلميت ، بكونها كانت تقام فوق المرتفعات المشرفة على المنحدرات الغربية للاودية الرئيسية (94) ، فهى من حيث طريقة بنائها وهندستها المعمارية أشبه شيء بقصور جبل نفوسة والجنوب التونسى او باغاديرات الجهات الجنوبية الغربية من المغرب الاقصى ·

وقد كانت هذه القلاع المحصنة عرضة لمحاولات التخريب والتدمير المتكررة سواء من طرف العشائر المعادية او من قبل حاميات البايليك وفرسان المخزن (95) · لأنها كانت بمثابة رمز لاستقلال القبيلة الاقتصادى كما كانت دعامة تلاحمها البشرى ، مما أصبح معه اخضاع القبائل الجبلية مرهون بالسيطرة على هذه القلاع المحصنة ، كما ان سقوط هذه الحصون كان أهم دافع لمغادرة السكان مواطنهم بحثا عن ملجأ جديد ، مثلما فعل أولاد عزيز الذين سبقت الاشارة اليهم ·

بعد هذه النبذة عن ماض الاوراس أثناء وقبل العهد العثمانى يجدر بنا ان نذكر فى ختام هذا البحث بعض النتائج العامة التى تعكس لنا الوضع الاجتماعى والحالة الاقتصادية التى كان عليها الاوراس ، والتى يمكن أن نوجزها فى هذه النقاط ·

1 ـ عرفت الاوراس منذ القرن الثانى عشر الميلادى تحـولات اجتماعية وتغيرات اقتصادية عميقة انعكست خاصة فى اختلال التوازن بين امكانيات المنطقة الاقتصـادية واحتياجات الاهالى ، مما أدى الى تحول قسم كبير من السكان الى الاشـتغال بالزراعة المكملة للرعى الموسمى ، أو التحول نهائيا الى حياة البداوة المعتمدة أساسا على تربيـة المواشى ، وذلك حسب طبيعة المناخ ونوعية الارض ، كما فرض هذا الوضع أيضا علاقات اجتماعية خاصة تميزت بالاحلاف المتصارعة التى غالبا ما دفعت بعض القبائل الى الهجرة نحو مناطق مجاورة للاوراس طلبا للامن وبحثا عن وسائل العيش ٠

2 ـ تميزت ادارة البايليك بمنطقة الاوراس باتباعها سياسـة خاصـة ، يمكن ان توصف بانها عملية فى أسلوبها ٠ واقعيـة فى أهدافهـا ، فهى ترمى الى المحافظة على الاوضاع وخلق حالة من الهدوء والامن النسبى تتمكن اثناءها سـلطة البايليك من الاستفادة من ثروات الاوراس باقل كلفة ممكنة ، وهذه السياسة المعتمدة على عدة عوامل سبقت الاشارة اليها حالت دون تطور المنطقة اقتصاديا وانفتاحها اجتماعيا ، مما جعل علاقات الانتاج تتصف بكونها ذات طابع عشائرى ، يهدف الى الانتاج المحدود الموجه لسد الاستهلاك المحلى ولارضاء حاجة البايليك فى وقت واحد ٠

3 ـ يتضح لنا من خلال نوعية النشاط الاقتصـادى وطبيعة العلاقات الاجتماعية ووضعية النظم الادارية والعشائرية ، ان المنطقة الاوراسية كانت أثناء العهد العثمانى ، تتالف من منطقتين متمايزتين احداهما تخضع مباشرة لسـلطة البايليك وتتالف من السفوح الجنوبية والشمالية وما يتصل بها من سهول وما ينفتح عليها من أودية ، حيث تقيم عشائر المخزن ويسود نفوذ المرابطين ويمارس الحـكام الاتراك نفوذهم التام عن طريق القياد المحليين ٠

أما المنطقة الثانية التى ظلت ممتنعة عـن سلطة البايات فى أغلب الاحيان ، فهى تتكون من الجهات الجبلية الحصينة ، حيث تعيش القبائل الممتنعة فى شبه استقلال تام ، فهى لا تتعامل مع الحكام الا من خلال شيوخها ومرابطيها ولا تتصل بسلطات البايليك الا عند تعرضها للحملات الفصلية التى تقوم بها المحلة المعززة بفرسـان المخزن فى فصلى الخريف والربيع من كل سنة ٠

وهذا ما يسمح لنا اعتمادا على التصنيف السابق الذكـــر ان نعرف المنطقة الاولى « الخاضعة » بأنها تمثل الاوراس النافع الـذى يعرف بأراضى المخـــزن ، بينما المنطقة الثانية « الممتنعة او المتحالفة » فهى بمثابة الاوراس التقليـــدى غير النافع . الذى هو أقرب شىء الى أرض السيبة التى غالبا ما تنعت بأنها أرض الخلا او البارود .

وهكذا يتضح لنا مما سبق . أن الدراسة التاريخية لمنطقة الاوراس سواء ما يتصل منها بالحياة الاقتصادية والاجتماعية ، أو ما يتعلق منها بالوضع السياسى ، تخضع لظروف خاصة وشروط محددة ، تتلخص فى علاقة الانسان الاوراسى ببيئته الخاصة ، دون اعتبار للنواحى الاثنوغرافية والقضايا العرقية والوضع الاقليمى الذى اهتم به بعض الدارسين المغرضين والاوروبيين المتحيزين لخدمة اغراضهم تحت غطاء النـزاهة العلمية والبحث الموضوعى ، متناسين ان هذه النزاهة وهذا البحث لا يمكن ان يتحقق الا من خلال ابراز مساهمة الاوراس التاريخية فى نطاق التكامل الوطنى الجزائرى ، الذى يفرض على الباحث ان يتصور الماضى حسب مفهوم الحضارة الاسلامية ذات الطابع العربى والروح الجزائرية الطموحـــة .

ملحق : قائمة باهم القبائل التى كانت تقيم بالاوراس فى أوائل عهد الاحتلال (96) .

اعتمادا على تقديرات المكاتب العربية بتاريخ 15 جويلية 1856 التى تجمل السكان بما يربو على : 192199 نسمة ، يتوزعون على القيادات بالنسب التالية :

1 ـ قيادة باتنة (★)

الأخضـــر	9828
أولاد سيدى يحى بن زكرى.	3752
أولاد شليح	10520
الحـــراكتـة	5152
التـــلات	1456
ولاد على متاع منصور	1792
أولاد سيدى أحمد بن السعيد	420
أولاد سيدى أحمد بن بوزيد	896
أولاد القــاضى	1650

2 ـ قيادة أولاد سلطان :	أولاد سلطان	11428
	بني يفــرن	1260
	أولاد سي خسن	677
	أولاد ســـلام	10696
	أولاد علي بن صابر	12012
	أولاد دراج	30520
3 ـ قيادة أولاد بوعون :	أولاد بوعــون	1392
	أولاد مهنــة	1536
	أولاد سيدي حملة	144
	الهـــواورة	672
	أولاد اوجـــرتان	600
	أولاد سيدي عبد الرحمن	960
	الحلـــيمية	2888
	أولاد سيدي الحاج بن عمر	1392
	حيدوســـــة	2256
	أولاد فاطمــة	2352
	أولاد منــــاح	240
4 ـ قيادة الأعشاش :	الاعشـــــاش	2286
	أولاد فاضــل	3470
	أولاد فضــالة	2784
	بــني معافـــة	1152
	أولاد سي منصر	980
5 ـ قيادة أولاد داوود :	أولاد داوود	16242
6 ـ قيادة بني وجـانـة :	بــني وجــانــة	11648
	المناصــــــر	1020

٣ ـ **قيادة العمامرة :**	أولاد سعيد	5376
	أولاد زرارة	1790
	العمامــــرة	8276
٤ ـ **قيادة أولاد عبـدى :**	أولاد مومن	3122
	أولاد عزوز	2050
	بوزينــــة	1080
	العــــرابـة	950
	تـاقـوست	920
	أولاد عبـــدى	8275

★ **ملاحظة** : مع العلم أن قرية باتنة المعروفة فى العهد العثمانى بالعين الكبيرة أصبحت مركز الادارة العسكرية بالمنطقة عندما احتلت من طرف الدوق دومال أثناء حملته على الزيبان فى شهر فيفرى 1844 لتتحول بعد ذلك الى مركز ادارى وعاصـــمة اقليمية للاوراس .

المــراجـــع

1 ـ لزيادة الايضاح راجع :

— (René) cagnat l'armée romaine d'afrique et l'occupation de l'afrique sous les empereurs paris, imp. nationale, 1892. p. 562-600 et 753-759.

2 ـ اعتمادا على :

— Courtois christian les vandales et l'afrique paris p. 342.

3 ـ الراجح ان هذه المعركة وقعت على وادى نينى الذى يبعد عن باغاى بحوالى 18 كلم · اعتمادا على طبيعة الوضع الجغرافى للمنطقة ·

4 ـ ابن حوقل (أبو القاسم ، النصيبى) المسالك والممالك والمفاوز والمهالك ، المعروف بصورة الارض ـ بيروت دار الحياة ، بدون تاريخ ، ص 84

5 ـ الادريسى : (الشريف) وصف شمال أفريقيا والمقتبس من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق من طرف هنرى بريس ، الجزائر ، 1957 ، ص 66

6 ـ المقدسى : (تـ 375 هـ ـ 985 م) ، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، نشر دى غوية ، طبعة ليدن 1906 ، ص 217

7 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 85

8 ـ البكرى ، ابو عبيد الله : (487 هـ) المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب وهو جـزء من كتاب المسالك والممالك ، نشر دى سلان ـ الجزائر ، 1857 ، ص 50 ·

(9) Fournel (H.) les berbères, Etudes sur la conquête de l'afrique par les Arabes paris, imp. nationale. M.D.CCC.2 XXV, tome 1, p. 166-167.

10 ـ المقدسى : نفس المصدر ، ص 227

11 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 84

12 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 50

13 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 74

14 ـ مجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار ، يعود تاليفه الى عام 587 هـ ، نشر الفيرد دى كريمر ، طبعة فيينا ، 1852 ، ص 50

ننعته بصاحب الاستبصار لكون مؤلفه مجهولا .

15 _ المقدسي : نفس المصدر ، ص 230

16 _ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 91

17 _ الادريسي : نفس المصدر ، ص 66 و 74

18 _ صاحب الاستبصار : نفس المصدر ، ص 61

(19) Léon l'Africain (J.) description de l'afrique, publiée par H. Epaulard. paris, A. Maison neuv, 1956, tome 2, p. 363.

20 _ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 91 و 92

21 _ البكري : نفس المصدر ، ص 50

22 _ الادريسي : نفس المصدر ، ص 71

(23) Vonderheyden, la berbérie orientale sous la dynastie des benoû-L-Arlab. 800-909 paris, P. Genthner, 1927, p. 293-305.

24 _ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 85

25 _ الادريسي : نفس المصدر ، ص 66

26 _ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 85

27 _ البكري : نفس المصدر ، ص 50

28 _ المصدر السابق ، ص 50

(29) Albertini (E.) l'afrique romaine, mis à jour en 1949 par L. Leschi. Alger, imp. officielle, 1955, p. 23 et 27.

30 _ راجع الخريطة الملحقة بالمقال والخاصة بطرق المواصلات في الفترة الاسلامية

31 _ البكري : نفس المصدر ، ص 72

32 _ صاحب الاستبصار ، ص 59

33 _ البكري : نفس المصدر ، ص 52

34 ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ـ مطبعة السعادة ، ط 1323 هـ ـ 1906 م ، الجـــزء الثانى ، ص 182

35 ـ أبو الفداء اسماعيل ، صاحب حماه ، تقويم البلدان ، القســـم الخاص بذكــر بلاد المغرب ، نشر سولفى ـ الجزائر ، 1839

36 ـ صاحب الاستبصار : نفس المصدر ، ص 61

37 ـ المصدر الســـابق ، ص 62

38 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 72

39 ـ ياقوت الحموى : نفس المصدر ، ج 2 ، ص 29

40 ـ المقدسى : نفس المصدر ، ص 218

41 ـ البكرى : نفس المصدر ، ص 51 و 52

42 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 66

43 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 66

(44) Fournel, op. cit, tome 2 p. 228-229.

45 ـ الادريسى : المصدر السابق ، ص 74

46 ـ لزيادة التعرف على هذا التزحزح البشرى راجع : شنيتى (محمد بشير) سياســة الرومنة فى بلاد المغرب اطروحة غير مطبوعة ، الجـــزائر ، 1975 ، فصلى وضـــعية الارض وسياسة الاستيطان (ص 101/136)

(47) Idris, H. R. la berberie orientale sous les Zirides de X au XII siècle. paris, A. Maison neuve, 1962, tome 2, p. 475 et 476.

(48) Salama, Pierre-Albert, les voies les Romaines de l'Afrique du nord. Alger, imp. officielle, 1951, p. 103.

(49) Gautier (E.F.) le passé de l'Afrique du nord, «les siècles obscurs». nouvelle édition, paris, Payot. 1952.

(50) Despois (J.) la bordure saharienne de l'Algérie orietale, in. Revue Africaine, 1942, p. 116-117.

51 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 84 و 85

52 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 66

(53) Léon l'Africain, op-cit, tome 2 p. 407.

54 ـ ابن حوقل : نفس المصدر ، ص 84

55 ـ الادريسى : نفس المصدر ، ص 74

(56) Léon l'Africain, op-cit, tome 2, p. 407.

57 ـ ابن قنفد ، أبو العباس أحمد بن حسين بن الخطيب القسنطينى (تـ 810 هـ ـ 1407 م) الفارسية ، تقديم وتحقيق : محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى ، تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثانية ، 1968 ص 195 ـ 196

58 ـ ابن ابى الضياف : اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ـ الدار التونسية للنشر ـ النشرة الثانية ، الجزء الثانى ، ص 162 و 163

(59) Masqueray (E.) Djebel chechar, in revue africaine, 1878, p. 132.

(60 bis) Archives d'outre mer, à aix-en-province, 10 H. 17.

60 ـ الارشيف الوطنى الجزائرى ، مخطوط فرنسى يعود الى أوائل عهد الاحتلال ، غير مفهرس ، ص 17

61 ـ سوف ننشر نص الرسالتين مع التعليق عليهما بمجلة التاريخ بمركز الدراسات التاريخية العدد القادم ، وذلك لما لهما من أهمية فى مجال العلاقات الاجتماعية فى المنطقة الاوراسيــة .

(62) Masqueray (E.) note concernant les Aoulad-Daoud de mont Aurès Alger, A. Jourdan. 1879, p. 26.

(63) Mercier (E.) Histoire de Constantine — Constantine,1903, p. 346.

(64) Vayssettes (E.) Histoire des derniers Beys de Constantine. in revue africaine, 1863, p. 115.

(65) Mercier (E.) op-cit, p. 303

(66) Archives de Ministère de la guerre, à vincennes (A M G) H. 226. service financier de la province de Constantine dérigé par Rousseau à Mr. Blondel, p. 08. = (A M G).

نشير الى هذا الارشيف فى الهوامش اللاحقة هكذا :

(67) A M G, H. 228 p. 22-23 et X.

68 ـ المصـــدر السابق

69 ـ مخطوط فرنسى يعود الى أوائل عهد الاحتلال ، ص 19

(70) A M G, H. 228, p. 22-23.

71 ـ المصـــدر الســـابق ، ص 22 و 23

72 ـ المصـــــدر الســـــابق ، ص 21

نشير اليه فى الهوامش اللاحقة بهذه الحروف

(73) Archives d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, F 80, 538, Tribu de Nememcha, par le capitaine de l'Etat-major, Dieux.

نشير الى هذا الارشيف فى الهوامش اللاحقة هكذا (A.O.M.)

(74) — A. M. G. H. 228, p. 21.

— A. M. G. H. 226 Ch. 8.

(75) Masqueray, (E) : *Documents Historiques Recueillis dans l'Aurès, Juillet* 1876, in Revue Africaine, 1877, p. 101.

76 ـ المصـــــدر الســـــابق ، ص 122

(77) A. M. G. H. 228, p. 22 et 23.

(78) A. M. G. H. 226 (Rapport Rousseau, p. 109).

(79) A. M. G. H. 228, p. 6.

(80) Masqueray : Note, op. cit., p. 21.

(81) Masqueray : *Voyage dans l'Aurès,* Etudes Historiques, in Bulletin de la Société de Géographie, Juillet 1876, p. 15.

(82) Masqueray : *Dj. Chechar,* op. cit., p. 131.

(83) Busson, (H.) : *Les Vallées de l'Aurès,* Annales de Géographie de Paris, T. I..., année

(83) — Busson, (H.) : *Les Vallées de l'Aurès,* Annales de Géographie de Paris, T. IX, année 1900, p. 49.

— Masqueray : Document, op. cit., p. 122.

(84) Masqueray : Note, op. cit., p. 12.

(85) A. M. G. H. 227, notice sur la Province de Constantine, p. 8 - 9.

86 ـ الارشيف الوطنى الجزائرى ، مخطوط فرنسى ، ص 19

(87) Masqueray : Voyage, op. cit., p. 6 - 7.

(88) — Octave Dupont et Xavier Coppolani : *Les Confréries Religieuses Musulmanes,* Alger. A. Jourdan, 1897, p. 311 - 312.

— Masqueray : Voyage, op. cit., p. 15.

وكذلك مخطوط فرنسى بالارشيف الجزائرى ، ص 22

89 ـ الارشيف الوطنى الجزائرى ، مخطوط فرنسى ، ص 13

90 ـ المصـــــدر الســـــابق ، ص 24

91 ـ المصـــــدر الســـــابق ، ص 17

(92) Masqueray : *Dj. Chechar,* op. cit., p. 143.

(93) Dureau de la Malle : *Recueil de Renseignement, Province de Constantine.* Paris, Gide, 1837, p. 60.

(94) Despois, (J.) : *Les Greniers Fortifiés de l'Afrique du Nord,* in Cahiers de la Tunisie, N° 1, 1953, p. 34.

95 ـ المصـــــدر الســـــابق ، ص 55 و 56 .

(96) A. O. M. 10 H. 17.

مــواقف الرسميــين التونسيــين من ثورة الصبـايحيــة والكبلــوتي فى منطقــة الحــدود الشرقيــة عــــام 1871

د· يحيى بوعزيز
معهد العلــوم الاجتماعية
جامعة وهران



تتالف فرق الصبايحية من المتطوعين الجزائريين الذين يطلق عليهم اسم : الحركة،والاورطة ، والصبايحية · وقد استحدثها الفرنسيون فى القرن الماضى لتساعدهم على فرض سيطرتهم على البلاد ، ويبدو انهم قلدوا فى ذلك نظام (الشواش) الذى كان سائدا فى عهد الاتراك، واهتموا بتنظيمها وتطويرها خـــلال عهد الامبراطورية الفرنسية الثانية ·

ويتكلف الصبايحية بحراسة المناطق التى يسكنونها ، ومراقبة السكان من الناحية السياسية تحت اشراف الضباط الفرنسيين · ويطلق على الثكنات التى يتمركزون بها ، اسم : « الزمالات » · ومعظمهم متزوجون ، ويتقاضون مرتبات شهرية ، ويعملون فى أراضيهم الخاصة ، أو التى تضعها السلطات الفرنسية تحت تصرفهم · وعندما يحدث أي تشويش أو اضطراب فى البـــلاد يدعون لمواجهته تحت ارشـــاد وقيادة الضباط الفرنسيين ·

ولم يكن من العادة تجنيدهم للحرب خارج الجزائر ، غير أن السلطات الفرنسية رأت أن تجند البعض منهم للحرب فى فرنسا أوائل عام 1871 ابان الحـــرب الفرنسية البروسية ، فأصدر وزير الحرب الفرنسى قرارا بتاريخ 18 جانفى 1871 يقضى بتسفير عدد منهم الى أوروبا ، وتسبب ذلك فى ثورتهم بزمالات مجبر ، والطارف ، وبوحجار ، وعين قطار ، بشرق البلاد ، ووسطها ٠

غير أن ثورة الصبايحية هذه فى الحقيقة بدأت قبل هذا التاريخ لاسباب اخـــرى غير قرار التجنيد ، مما يؤكد بأن التذمر والسخط لم يكونا لاسباب شخصية ، وظروف مادية ، وانهما تجاوزا السكان العاديين الى طبقـــة الموظفين الذين كانوا فى نظـــر البعض « محظوظين » ٠

ففى زمالة مجبر على بعد 13 كلم شمال شرق بوغار ، بدأت الحوادث فيها أواخـــر سبتمبر 1870 ، فى شكل فرار بعض الصبايحية من ثكناتهم الى مستغانم لاسباب غـــير معروفة لدينا ، وقد يكونون فعلوا ذلك بسبب تذمرهم من السياسة الاستعمارية ٠ وقد تكون دعاية ابن خدومة قد أثرت فيهم لانه بدأ دعوته ، وحركته فى هذه المنطقة عندما ظهر قبل ان يلتحق بذراع الميزان (1) ، غير ان السلطات الفرنسية عندما اعتقلتهم ، وأعادتهم الى بوغار ، حاكمتهم بتهمة السرقة ، ففر البعض منهم من السجن واختفوا مـــرة أخـــرى ٠

وفى الايام الاولى لشهر نوفمبر فر خمسة وسبعون من جنود الزواف بأسلحتهم وامتعتهم من معسكر بوغار الى المـــدية ، وقصر البخارى ، فلاحقهم رجال الـــدرك والصبايحية ، وأوقفوهم وأحالوهم على محكمة عسكرية ، حكمت عليهم مـــن سنتين الى عشر سنوات سجنا مع الاشغال الشاقة (2) ٠

وعندما وصـــل أمـــر التجنيد الى الجنرال لالمان يوم 20 جانفى 1871 كان جنود الصبايحية فى مجبر ببوغار من الذين شملهم القرار ، فجندوا واقتيدوا الى الجزائر العاصمة يوم 23 من نفس الشهر ليرحلوا الى فرنسا ، ولكـــن ابناءهم ، ونساءهم ، وأهاليهم ، اعترضوهم فى الطريق خارج البلدة ليحولوا دون سفرهم ، فحصل اضطراب

---

1) عن حركة ابن خدومة أنظر المصدر التالى :
Le colonel N. Robin : *L'Insurrection de la Grande Kabylie en* 1871 (Paris 1901) pp. 38 - 43 et 70 - 71.

(2) Ernest Watbled : *Un Episode de l'Insurrection de* 1871 *en Kabylie*. Revue des Deux Mondes (Paris 1873) pp. 43 - 48.

وتشويش فى القافلة ، وأطلق شخص ، قيل أنه أجنبى عن القافلة ، والصبايحية ، النار . وقتل شخصا · فعاد الصبايحية فى الحين الى زمالتهم الى ان حضرت مجموعة مـن فرسان بوغـــار فاقتادهم بالقوة الى الجـــزائر العاصمة ، ولكن الجنرال لالمـان ، ودو بوزى ، أعلنالهم بأن السفر الى فرنسا حر للمتطوعين فقط ، ولا يجبر احد عـلى ذلـــك (3) ·

وفى الوقت الذى كان فيه صبايحية مجبر ثائرين على هذا الشكل ببوغار ، ثـــار الصبايحية ايضا فى زمالات شرق البلاد ، بالطارف على بعد 22 كلم جنوب غــرب القالة ، وبوحجار على بعد 43 كلم شمال شرق سوق أهراس ، وعين قطار على بعد 22 كلم جنوب شرقها · وكانت ثورة هؤلاء أخطر من ثورة زملائهم بمجبر ، لتـدخل أطراف أخرى فيهـا ·

ففى عين قطار رفض الصبايحية الامتثال لاوامر السفر الى فرنسا ، وهرب 135 منهم بأسلحتهم وأمتعتهم الى مزرعة (عمى موسى) على بعد 4 كلم من زمالتهم ، يوم 22 و 23 جانفي 1871 · وتبعهم فى اليوم الموالى 102 آخرون ، وتوالى بعد ذلك تجمعهم حتى اصبحوا حوالى الفي رجل ·

وتجمع حولهم أهاليهم ، والغاضبون والقانطون من السلطات الفرنسية ، وانضم اليهم عدد من أهالى الحنانشة بزعـامة أحمد الصالح بن رزقى والفضيل بن رزقى ، والتحق بهم محمد الكبلوتى بن الطاهر رزقى من تونس وهو شقيق الفضيل بن رزقى ، وبذلك أصبحت الحركة خطيرة وتجاوزت نطاقها المحلى · وقام هؤلاء الثوار بقتـــل ضابط جاويش فرنسى ، وباشعال الحرائق فى بعض مزارع الاوروبيين حـول سوق أهراس ، وقتلوا تسعة منهم ثـم زحفوا على ســـوق أهراس نفسها يوم 26 جانفى ، وحاصروها لمدة ثلاثة أيام ، وقطعوا خطوط أســـلاك الهاتف التى تربطها بقالمـــة ، وخاضوا معركة كبيرة فى عين سنور يوم 30 من نفس الشهر ، ودامت المناوشات حتى اليوم الثامن من الشهر التالى ، وارتفع عدد قتلى الفرنسيين الى حوالى 15 شخصا (4) ثـــم انسحب الصبايحية والكبلوتى واتباعه الى داخـــل الحدود التونسية (5) حيث

(3) Le général commandant de la division : *Rapport sur l'Insurrection de* 1871 *dans la Province d'Algérie* (le 20/01/1871) A.O.M. Carton H. 73.
(4) André Nouschi : *Correspondance du docteur A. Vital avec Ismaïl Urbain* 1845 - 1874 (Paris 1959) pp. 316 - 317.
(5) Le général commandant la division de Constantine : *Rapport sur l'Insurrection de* 1871 (Camp d'El-Hadjira - le 1/01/1872) A.O.M. Carton H. 73.

استقبلهم الشيخ الميزونى بحفاوة فى مدينة الكاف (6) · وهذا مما يؤكد أن ثورة الصبايحية بهذه المنطقة لم يكن سببها قرار الترحيل فقط بل انه كان بمثابة عامل مباشر لقيام الحوادث أما الاسباب الحقيقية فكانت مرتبطة بالتذمر والغضب العام ضد السلطات الفرنسية الاستعمارية · وما مشاركة اللاجئين الجزائريين السياسيين فيها من أفراد عائلة رزقى ، الا دليل على ذلك ·

وقد طبقت السلطات الفرنسية اجراءات قاسية ضد عائلات الثائرين فحاكمت 134 شخصا أمام محكمة عسكرية استثنائية بعنابة أصدرت الحكم بالاعدام على خمسة ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على عشرين ، وبالنفي والاقامة الجبرية على أربعين · وغرمت الثوار بمبلغ 376 ألف فرنك · واعدم الفرنسيون عددا من الناس أمام الجمهور فى الساحة العامة بمدينة سوق أهراس بعد فك الحصار عنها مباشرة ، وصادروا أملاك وأراضى سبعة دواوير بالجملة · وأخذوا رهائن حتى يتم دفع الغرامات المفروضة عليهم · أما الاوروبيون الذين اتهموا ببعض الحوادث فقد برأت المحكمة ساحتهم (7) ·

وهذه القسوة فى المعاملة هي التى جعلت دو بوزى يبرق من العاصمة الى سلطات قسنطينة لتراجع موقفها حتى لا تفلت الامور من أيديها · ويندفع الناس الى الثورة العامة فى الوقت الذى توجد فيه فرنسا فى حالة ضعف (8) · وعلى العكس منه فان فريديك سيمون اتهم الضباط الفرنسيين ونوابهم بالتسامح ، والثقة فى رؤساء الاهالى الجزائريين مما أدى الى ثورة مرؤوسيهم · فقرار التسفير فى نظره ، لم يكن وحده هو السبب فى ثورة الصبايحية وانما هو ما أسماه : «الثقة والتسامح مع رؤسائهم» (9)

وقد أعترف التقرير الذى وضعته سلطات منطقة القالة بأن المشاكل السياسية لها دخل فى حوادث الصبايحية بمنطقة الحدود ، الذين كانوا ممتلئين غضبا · ولم يكن قرار التسفير ، والتجنيد للحرب ، الا وسيلة لاظهار غضبهم ، وتفجيره ، كما اعترف

---

6) أ · ج · ت · صندوق 212 ، ملف 240 ، وثائق رقم 15 و 16 و 31 و 32 و 33 ، حيث راسل الكبلوتى باي تونس المشير مصطفى باشا ، ورئيس وزرائه مصطفى خزندار ، يطلب الحماية ، وتقديم العون له وللصبايحية الذين دخلوا معه الى هناك ، فأذن الوزير بابعادهم عن منطقة الحدود وتقديم الحبوب لهم · فوزعوا على أربعة مناطق فى عرش دريد · وألح الوزير التونسى على ضرورة ابعادهم عن منطقة الحدود ومراقبتهم حتى لا يتسببوا فى مشاكل لدولته مع فرنسا ·

(7) Louis Rinn : *Histoire de l'Insurrection de* 1871 *en Algérie* (Alger 1891) pp. 122 - 127.

(8) Ibid.

(9) Frédéric Simon : *Les Spahis et les Smalas* (Tebessa - le 2/2/1871) pp. 1 - 20.

التقرير بأن أصداء هذه الحوادث امتدت الى المناطق الداخلية البعيدة (10) · ويعنى بذلك أحداث أولاد عيدون بالميلية ، ولربما يعنى كذلك أحداث المقرانى والحداد بعد ذلك فى مارس وأبريل التى امتدت الى مطلع عام 1872 ·

أحـداث ومشـاكل الكبـلوتى :

ينتسب محمد الكبلوتى بن الطاهر بن رزقى الى عائلة رزقى الحناشية التى تقطن فى شرق جبال الاوراس · وكان عمه رزقى الحناشى قد عينه الحاج أحمد باي شيخا على الحنانشة بدلا من الشيـخ الحسناوى الحناشى الذى كـان يتآمـر عليه ويشاغب سلطته · وقد حكى الحاج أحمد فى مذكراته شيئا عن ماضى رزقى ، وعن مشاكـل بوعزيز بن قانه تجاهه (11) ، وأشرنا نحن اليها فى دراستنا بعنوان : جهود الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية (12) ·

ومحمد الكبلوتى من أحفاد هذا الرجل ، وفى أواخر الستينات من القرن الماضى ، أصبح ثائرا ومتمردا على السلطات الفرنسية لاسباب لم نتعرف عليها ، والتجأ الى تونس واتصل هناك بباقى اللاجئين الجزائريين الآخرين ، وأخـذ يشـن الغـارات والهجومات على الفرنسيين وأعوانهم فى منطقة الحدود ، ما بين القالة شمالا عـلى البحر ، وتبسة جنوبا على مشارف الصحراء ·

وقد ذكر رين أنه رفض عام 1871 أن يذهب الى الصحراء ليشارك فى الاحداث التى كان يقوم بها هناك غيره من الثوار والمقاومين الجزائريين لكونه ، كما ذكر رين دائما ، كان يرى ألا قدرة له على الحرب هناك فركز نشاطه الثورى فى الشمال وشارك أحداث زمالة عين قطار مع الصبايحية (13) كما أشرنا الى ذلك آنفا ·

وعندما التجأ مع الصبايحية الى تونس فى النصف الاول من شهر فيفري 1871 ، راسل المشير مصطفى باشا ، ورئيس وزرائه مصطفى خزندار ، طلب منهما الحماية ، والعون له وللصبايحية الذين دخلوا معـه الى هناك ، فأذن الوزير بتقديم مساعدة

(10) Cahen : *Résumé des faits historiques et politiques accomplés pendant l'année* 1871 (Cercle de la Calle - le 21/12/1871). A.M.G. Carton H. 264.

(11) الحاج أحمد باي : مذكرات أحمد بـاي وحمدان خوجة وبوضربة · ترجمة : العربى الزبيرى (الجزائر 1973) ص 69 و 85 ـ 86 ·

(12) أنظر مجلة الاصالة عدد 48 (الجزائر ـ أوت 1977) ص 2 ـ 42 ·

(13) Rinn : Ibid, pp. 614-623.

غذائية لهم وابعادهم عن منطقة الحـــدود ، ووزعتهم السلطات التونسية على أربعة عروش من عروش دريد (14) ٠

ويبدو من الرسائل التى عثرنا عليها فى أرشيف تونس ، أن الكبلونى لم يمتثـل للتعليمات الرسمية للحكومة التونسية ، فأخذ يقوم بنشاط ثورى فى منطقة الحدود ، رغم أن المكان الذى حدد لاقامة عائلته هو الكريب من عمل تبرسق ، وشارك فى عدد من الاحداث والمعارك التى كانت تجـــرى وتدور بالمنطقة بعد اندلاع ثورة المقـــرانى والحداد ، وامتداد آثارها الى المنطقة الشرقية ٠ ومن ضمن المعارك التى اشتـــرك فيها حسبما ذكر رين ، معركة 24 جوان ، ومعركة 30 أوت 1871 التى قتل فيها أخـــوه الفضيل بن رزقى وبقي يتردد بين تونس والجزائر الى أن طرد بصفة نهائية من تونس عام 1875 بصحبة بن ناصر بن شهرة (15) ٠

وقد أفاد تعقيب للوزير ، خير الدين عن رسالة أمير اللواء مراد ، عامل دريد : « بان الكبلوتى هوجنى على نفسه اننا كنا وجهناه أولا الى الشرق وأعناه بالدراهم وغيره ، ثم رجع بدون اذن ورجعناه مرة ثانية على شرط عدم الرجوع بدون اذن الدولة واذا يرجع بدون اذن فانه يسجن وعليه فهو الجانى على نفسه » (16) ٠ أي أنه طرد أكثر من مرة من تونس ٠

والحقيقة أن الكبلوتى بعد التجائه الى تونس قام بنشاط واسع اقلق السلطـات الفرنسية ، والسلطات التونسية التى تعرضت لضغط مـــن طـرف سلطات الاحتلال الفرنسى بالجزائر ٠ فأخذت حكومة تونس تبحث عنه ، وتلاحقه ، وكلفت عددا مـــن أعوانها بتتبع أخباره والتفتيش عنه لاعتقاله ، ومنهم : مصطفى بن قطوم (17) ، ويوسف ابن على اليقرو (18) ، وأحمد عبد بن حميدة (19) ٠ والطيب بن البرانى (20) ، وأمير

14) أ٠ ج٠ ت٠ صندوق 212 وثيقـــة رقم 15 و 16 بتـــاريخ 3 ذو الحجـــة 1287 (جانفي 1871) ٠

15) رين ، نفس المصدر ، ص 614 ـ 623 ٠

16) أ٠ ج٠ ت٠ نفس المصدر ، وثيقـــة رقم 14 بتاريخ 25 جمـــادى الاولى 1289 (31 جويلية 1871) ٠

17) نفس المصدر ، وثيقة رقم 21 بتاريخ 2 صفر 1288 (أواخر فيفرى 1871) ٠

18) نفسب المصدر ، وثيقة رقم 25 بتاريخ 23 جوليت 1871 (4 ربيع الثانى 1288) ٠

19) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) ٠ ووثيقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1872) ٠

20) نفس المصدر ، وثيقة رقم 33 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1871) ٠

اللواء مراد عامل دريد (21) ، الذين كاتبوا الوزير خير الدين برسائل وتقارير عن أخبــاره ونشاطاته ٠

وبسبب هذا النشــاط الواســع والمكثف مــن جانب السلطات التونسية ، أرغم الكبلوتي على مغادرة تونس بحرا من ميناء حلق الوادي خلال عام 1872 ، ولكنه عندما وصل الى مالطة عاد متخفيا الى تونس ، لكونه لم يطق صبرا على فراق أهله وأولاده ، وأمه ٠ ولكن العيون كانت تترصده وتبحث عنه ، فغادر تونس مرة أخرى الى الشام ، وعندما وصل الى مالطة كتب من هناك رسالة الى الوزير مصطفى خزندار أخبره فيها بعودته المخفية الى تونس ، ومغادرته لها ثانيا ، وطلب منه أن يرعى أولاده وأخوانــه كوديعــة لــديه (22) ٠

تدخل الامير عبد القادر والصدر الاعظم لصالحه :

وعندما وصل الى دمشق عرف أن القرانيين حصلوا على اذن للاقامة بتــونس بسعي من الامير عبد القادر (23) ٠ فطلب منه أن يتدخل لصالحه كذلك ليستفيد مــن ذلك القرار أسوة بالقرانيين ، فلبى رغبته ، وكتب رسالة الى الوزير التونسى خزندار شكره فيها على قبوله ايواء القرانيين ، وطلب منه أن يطبق ذلك على الكبلوتى ايضا ٠ وأن يخبره بقراره ، غير أن خزندار اعتذر عن قبول هذا الرجاء بقوله : « يجاب بمــا يناسب وأن الكبلوتى منعت من الاجابة لطلبه موانع سياسية » (24) ٠

وتدخل فيما بعد ، لصالحه ، فى وقت لاحق ، الصدر الاعظم محمد رشدى باشا ، فكتب رسالة الى باي تونس طلب منه أن يأذن له بالاقامة فى تونس (25) ٠

---

21) نفس المصدر ، وثيقة رقم 14 بتاريخ 25 جمادى الاولى 1289 (31 جويلية 1872) ووثيقة رقم 13 بتاريخ 30 جمادى الاولى 1289 (أوت 1872) ، ووثيقة رقم 11 بتاريخ 4 ذو القعدة 1289 (جانفى 1873) ٠

22) نفس المصدر ، وثيقة رقم 12 بتاريخ 26 جمادى الثانية 1289 (سبتمبر 1872) ٠

23) راجع دراستنا عن ذلك بعنوان : وثائق جديدة عن موقف الامير عبد القــادر والدولة العثمانية من الثوار القرانيين عام 1871 ٠ الثقافة ، عدد 39 (يونيو ـ يوليو 1977) ص : 11 ـ 24 ٠

24) ٠أ ج ٠ ت ٠ صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقــة رقم 63 بتاريخ 2 محــرم 1290 (2 مارس 1873) ٠

25) ٠أ ح ٠ ت ٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 4 بتاريخ 26 ذو القعدة 1290 (جانفي 1874) ٠

ويبدو أن السلطات التونسية أجابت طلبه ، أو انه كان ينتظر ذلك منها فحضر الى طرابلس الغرب عام 1876 ، وكتب من هناك رسالة الى الوزير التونسى خير الدين ، أخبره فيها بوجوده هناك ، وطلب منه اعانة مالية ليقوم بفلاحة الارض ، كما طلب منه أن يوصي عليه « وكيل الدولة التونسية بطرابلس ليكون مني ببال » (26) .

ان موقف السلطات التونسية من الكبلوتى ، هو عين الموقف الذى وقفته من محيى الدين ابن الامير عبد القادر عام 1871 ، وقد نشرنا دراسة مستفيظة ووافية عنه بالوثائق اللازمة فى مجلة الاصالة ، يمكن أن تراجع للمقارنة (27) . والاسئلة التى تبقى مطروحة بعد كل هذا للبحث والاجابة هي : كيف بدأ الكبلوتى ثورته قبل عام 1871 ، ومع من ؟ ولماذا ؟ وعندما عاد الى طرابلس عام 1876 ، هل استقدم أسرته اليه ام بقيت بتونس ؟ وهل عاد هو فعلا الى تونس أم لا بعد ذلك ؟ واذا عاد أين استقر ؟ وأين مات ؟ ومتى ؟ وما مصير أمه ، واخوته ، وأولاده ؟

اننا نعرف أن هناك بتونس حاليا أسرة تدعى بأسرة الكبلوتى تستقر بالقيروان ، وقد كلفنا الزميل التونسى محمد مجدوب ، والزميل الباحث محمد أبو الاجفان بالبحث والاتصال بهذه العائلة لمعرفة ما اذا كانت تنحدر من الكبلوتى الذى هو موضوع هذه الدراسة . وقد اخبرنى محمد أبو الاجفان بأنه يعرف زميلا له من عائلة الكبلوتى بالقيروان يعمل فى التعليم ، واشتغل معه فى أواخر الستينات هناك بالقيروان ، وراسله ليقدم له بعض المعلومات فلم يرد عليه . وعلق أبو الاجفان على عدم رده عليه بأنه قد لا يكون من عائلته ، والا لبادر للجواب ، لان البحث عن الاجداد الابطال فى ميدان مقاومة الاستعمار ، أمر مثير يبعث على الجد والتحمس ، بل والفخر .

وعلى أي حال فان أحفاد الكبلوتى اذا كانوا أحياء بتونس ، أو بالحنانشة فى منطقة تبسة وشرق الاوراس ، فسوف تدفعهم هذه الدراسة عندما تبرز ، الى الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها ، فيثروا بذلك مقاومة أجدادهم وبلادهم فى أحلك أيامها بالقرن الماضى ، وسوف يقدمون لتاريخ وطنهم ، وللبحث العلمى ، خدمات جليلة يحمدون

26) نفس المصدر وثيقة رقم 3 بتاريخ شعبان 1292 (سبتمبر 1871) .

27) أنظر دراستنا بعنوان : وثائق جديدة عن دور محيى الدين ابن الامير عبد القادر فى ثورة 1871 ، وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه . مجلة الاصالة ، عدد 38 (أكتوبر 1976) ص 25 ـ 62 .

عليها ، كما نحمد اليوم ونمجد نحن تاريخ جدهم البطل المكافح الصامد ، محمد الكبلوتي بن الطاهر بن رزقي الحناشي .

التعريف بالوثائق :

يشتمل ملف رسائل هذه الدراسة ، على خمسة عشر وثيقة ، أربعة لمحمد الكبلوتي وتسعة للرسميين التونسيين وأعوانهم ، وواحدة للامير عبد القادر ، وأخرى للصدر الاعظم العثماني رشدي باشا . وقد رتبناها حسب تواريخها تمشيا مع تسلسل الحوادث

الاولى : رسالة الكبلوتي الى باي تونس محمد الصادق باشا ، شكره فيها على ايوائه فى بلاده واكرامه اياه ومن معه ، واخبره بأنهم قد دخلوا الآن تحت حكمه ويمتثلون لاوامره ، وقال له : « فان أنعمت علينا بأعز جواب من عندك مرقوما بأمرك ونهيك فالحمد لله على فضل الله ثم فضلك » (28) .

الثانية : رسالة الكبلوتي الى الوزير التونسى مصطفى خزندار ، أخبره فيها بدخوله هو ومن معه الى تونس ، وطلب منه قائلا : « فالمقصود من جزيل فضلك أن تجعلنا تحت جناحك وتنظرنا بعين رضاك » . ولكن الوزير علق على هذه الرسالة بقوله الى عامله : « ان الاذن صدر بأن هؤلاء السبايس لا ينبغى بقاؤهم بالمحل الذى هم فيه الآن لما يلحقهم من التهمة ، وأن ينقلوا لسمنجة » وذلك « لمصلحة أنفسهم وأن يبعدوا عن الحدود راحة لانفسهم وراحة للدولة والا فانهم ان بقوا هناك فان الدولة الفرنساوية لا تسمح ببقائهم هناك لما فيه من موجبات التحير » (29) .

الثالثة : رسالة مصطفى بن قطوم آلى الوزير خير الدين ، أخبره بأن النمامشة والكبلوتي قد رحلوا من بلادهم التى عاد اليها الامن ، وأنه هو والفراشيش ، ومشايخ عرش أولاد على قد جمعوا الزمالة ، ويقومون بمراقبة الوضع ، « ولما يبلغ مرادنا من هؤلاء الناس النازلين بقربنا نرجع الى البلاد مع جملة اخواننا الفراشيش » ، « والذى يريد الدخول من الناحية الغربية الى المملكة التونسية ... نصرف عنايتنا فيه كما اذنتنا » ، وطلب منه أن « يأذن لامير اللواء رشيد عامل الكاف ليساعدهم ويقدم اعانته لهم » (30) .

---

28) أ . ح . ت . صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 16 بتاريخ 3 ذو الحجة 1287 (أواخر جانفي 1871) .

29) نفس المصدر ، وثيقة رقم 15 بتاريخ 3 ذو الحجة 1287 (أواخر جانفي 1871) .

30) نفس المصدر ، وثيقة رقم 21 بتاريخ 2 صفر 1288 (أواخر فيرفى 1871) .

الرابعة : رسالة يوسف بن على اليقرو ، الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها بانه ثبت عنده بأن الكبلوتى « حل بوشتاتة بموضع يقال له الصرية ، وأن السبايس الذين كانوا معه افترقوا من عنده ، البعض منهم الى عند ورغة ، والبعض منهم عند أولاد سديرة ، والحدادة هاته الساعة عافية كاملة ما بين الشرق والغرب ، والطرقات مأمونة ذهابا وايابا » ، وأكد له بأن القضاء « على هذا (كذا) الكلب الكبلوتى » لا يتم الا بقدوم الحملة العسكرية التى يقودها الوزير التونسى للحرب رستم · وطلب منه أن يخبر عامل الكاف قبل وصول الحملة الى مدينة الكاف ، ليخبره حتى يقدم لملاقاتها قبل وصولها الى الكاف بيوم أو يومين · واستدرك بعد ذلك فأخبره « أن الشريف بن البوخارى الذى كان فى الكاف وصدرت منه هفوات كثيرة ، واقام حجج باطلة وأوقد الفتن بين الشرق والغرب ، ونوازله جلها على يد العمدة الصدر الاعظم سيدى الوزير الاكبر فانه الآن هنا بسوق أهراس صار يوقد الفتنة أكثر مما كان سابقا بين الحكام الفرانصوية ، وأنه عامل يدا مع المير حكم السفيل » (31) · وأضاف فى الاخير : قائلا : « فانه اذا وجدت مسلكا لنفيه لبلد قسنطينة أو غيرها فبذلك تنطفى نار فتنته اذا ظهر لك تخبر عليه السيد القنصل متاع الدولة الفرانسوية الذى فى تونس بنفيه للجزائر أو بعض الاماكن البعيدة » وختم رسالته بخبر مفاده أن البارود تكلم فى هذه الايام بعمالة وهران ، وأن الذى أثار هذا البارود حسبما يشاع ، هو بن ناصر بن شهرة الذى هرب من نفزاوة (32) ·

الخامسة : رسالة أحمد عبد بن حميدة الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها : « أن الكبلوتى لا زال يكاتب فى أهل الغرب على أنهم يحملون معه فيما يفعل من الفساد ، ويهنوه فى ذلك » ، وأنهم وعدوه بأن ينظموا اليه بعد أن يحصدوا زروعهم ، وأن

---

31) يعنى بكلمة المير شيخ البلدية من الكلمة الفرنسية Le maire ، وبكلمة السفيل : المدنيون ، من الكلمة الفرنسية Civil

32) نفس المصدر ، وثيقة رقم 25 بتاريخ 23 جويلية 1871 (4 ربيع الثانى 1288) ، ويوسف اليقرو : Y. Allegro هذا أصله من جزيرة كورسيكة ، عينته حكومة تونس قنصلا عاما لها فى مدينة عنابة ، وعمل على خدمة المصالح الفرنسية ، وقدم خدماته المتعددة لتسهيل العمل لفرض الحماية الفرنسية على تونس ، ولتوسيع حدودها الجنوبية الشرقية على حساب ولاية طرابلس الغرب · انظر : الدكتور عبد الرحمن تشايجى · المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881 ـ 1913 · ترجمة عبد الجليل التميمى (تونس ـ دار الكتب الشرقية فيفرى 1973) ص 66 ، 1859 ـ 187 ·

الباشاغا المقرانى ، والشيخ الحداد قد كاتباه على ما قيل أيضا فى نفس الامر ، وأن رجلا آخر يدعى على الشريف « يسعى فى الفعل المذكور ولم تنقطع بينه وبين الكبلوتى المكاتبة » ، ولذلك يستحسن أن تقدم الحملة المنصورة الى أطراف أعراش الكـاف ٠ وأورد أيضا خبر هروب الهمامة ، واضمار العيايشة السوء كذلك مما يستوجب عقابهم لانهم يتجسسون لصالح الهمامة ، كما أورد خبرا عن أن « سـيرة يوسف بن بشير لا ترضى » ٠

وقد علق الوزير على هذه الرسالة بقوله : « يجاب بعدم الغفلة عما يتزايد عنـده من أحـوال الكبلوتى وغيره ويرسل نسخـة بهذا المكتوب لوزير الحـرب المكلف بالحملـة » (33) ٠

السادسة : رسالة أحمد عبدو ابن حميدة ورفاقه الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها بأنه اتصل بالاذن الصادر من الجناب العلى ، ومنه هو ، مع أمير الاي باش حانبة ، الخاص بتقسيم الصبايحية اتباع الكبلوتى الى أربعة أقسام ، ووضع كل قسم لـدى عرش من عروش دريد الاربعة ، والذى يحذر من عودة البعض منهم الى الناحية الغربية أو اجتماع الاقسام مع بعضها البعض مرة أخرى ٠ وأوضح له بأنه لما اتصل بهـذا الاذن ، ركب هو وباش حانبة ، وعدد من الرجال الكبار ، « وتوجهنا نحوهم فوجدناهم نازلين بالكريب من عمل بلدة تبرسق ٠ جلهم بانين الاخيام بالحطب ، والقش واشتكوا لنا بالجّوع وعدم السكنة (كذا) من غير خيام » ، وذكروا لهم بأن الدولة تفضلت عليهم بالبيوت وجانب من الطعام ، ولكن البيوت رجعت والطعام لم يتصلوا به ٠ وقد طلب الصبايحية منهم ألا يقسموهم الا بعد وصول الاغاثة المطلوبة ، ولكن الوفد رفض ذلك وقسموهم الى أربعة أقسام واتصل كل عرش بقسمته ٠ وكتبوا قائمة وكشفا بذلـك وجهوه مع باش حانبة الى الوزير خير الدين ٠ وفى الاخير استدركوا بأنه : « توصل من الطعام المذكور من ذكرهم بقدر ستة عشر قفيز فنج تونسى وأربعة وعشرون أقفزة شعـير تـونسى » (34) ٠

---

33) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) ٠ وهناك أشكال فى اسم صاحب هذه الوثيقة بحيث لم نستطع أن نقرأ اسمه بوضوح ٠ فلا ندرى هل عبد ، أو عبده ، أو عبو ، ولا ندرى هل حميده بالحاء أو صميده بالصاد .

34) نفس المصدر ، وثيقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1872) ٠

السابعة : وثيقة بها كشف بأسماء عروش دريد الاربعة ، ومجموع الخيام وأسر لصبايحية التى وزعت عليهم · وهذه العروش هي :

عرش شيخ بنى زرق (أو رزق) ووزع عليه سبعة عشر عائلة ·

عرش شيخ أولاد جوين ، وزع عليه ستة عشر عائلة ·

عرش أولاد مناع وزع عليه خمسة عشر عائلة ·

عرش شيخ أولاد عرفة وزع عليه خمسة عشر عائلة ·

وفيما يـلى بيان باسماء كل قسم :

ـ قسمة عرش شيخ بنى رزق :

أحمد بن عمار
عمارة بن جاب الله
مبارك بن محمد
سعيد بن مخلوف
مسعود بن محمد
السبت بن القندوز
العبيدى بن عمار
الاخضر بن عبد الحفيظ
على بن سرحان
محمد بن زيتونى
عمار بن محمد
جاب اللـه
عمار بن محمد
بلقاسم بن جاب الله
أبو الاعراس
أحمد بن عبيد
صالح بن نصر ·

ـ قسمة عرش شيخ أولاد جوين :

أحمد بن قاسم
بلقاسم بن علي
علي بن المبارك
قاسم بن عمار
بلقاسم بن أحمد
محمد بن بخوش
ابراهيم بن الصامت
عبد الله بن نصر
بلقاسم بن عثمان
علي بن محمد
محمد بن الزين
الطيب بن عبد الواحد
علي بن الساسى
مخلوف بن الساسى
الهامل بن أحمد
أحمد بن عبيد الدريسى

- قسمة أولاد مناع :	- قسمة شيخ أولاد عرفة :
بوعزيز بن محمد الصالح الحناشى	صالح بن طلحة
أخـوه محمود	الفاطمى بن الزين
علي بن الحاج	عمار بن سوسى
عمار بن صالح	محمد بن عبد الله
بلقاسم بن الساسى	عماز بن محمد
ابراهيم بن بخوش	أحمد بن الهورى
الاخضر بن المبروك	الطاهر بن خالد
سى الطاهر بن أحمد الصالح	العبيدى بن عمر
محمد بن البهلول	محمد بن عبد الله
محمد بن مبروك	محمد بن رمضان
رابح بن عبد الرحمن	فرحات بن أحمد
الطيب بن بلقاسم	مسعود بن بالغيث
بلقاسم بن علي	وناس بن العلمى
علي بن محمد	معمر بن عبد السلام
محمد بن خالد	عمار بن العميرى (35)

الثامنة : رسالة الطيب بن البرانى الى الوزير خير الدين حول توطين الصبايحية والكبلوتى بالتراب التونسى · وقد أخبره فيها بأنه اتصل برسالته المؤرخة بيوم 6 من نفس الشهر ، والتى تنص على تقسيم الصبايحية الذين كانوا مع الكبلوتى الى أربعة أقسام من عروش دريد ، وعلى مراقبتهم حتى لا يحدثوا تشويشا أو اضطرابا · وساق له نفس الاخبار التى ذكرها أحمد بن حميدة فى رسالته السابقة رقم 32 ، من تقسيمهم وتوزيع بعض الاطعمة عليهم ، وتوجيه كشف بذلك اليه مع باش حانبة · ووعده بان يكون يدا واحدة مع سى أحمد بن حميدة (36) ·

التاسعة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتى ، أخبره فيها : « انه بلغنا خبر من الكـــاف ووطنها خبر محقق هــو أن

35) نفس المصدر ، وثيقة رقم 31 لا تاريخ لها ، وهي ملحق للرسالة السابقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1872) ·

36) نفس المصدر ، وثيقة رقم 33 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفى 1872) ·

الكبلوتي توجه الى بلد طرابلس ومن هناك أتى الى وطننا وأتى الى خيمته خفية ، ولما حل بها صار يختفى بالنهار ويأتيها ليلا » وأكد له بأنه اجتهد غاية الجهد للظفر به ، وكلف الطيب بن البرانى شيخ أولاد جوين بالتوجه الى الكاف للبحث عنه ، فوجد الخبر شائعا هناك لدى الخاص والعام ، ولكن من غير اثبات واقعى ، وأن عامل الكاف السيد رشيد تناهى اليه أمر ذلك . وفى آخر الرسالة استفسر كيف سيفعل بالكبلوتي اذا اعتقله . فعقب الوزير على الرسالة بقوله : « واذا ضفر (كذا) به يوجه حالا للحضرة العلي ولابد يعمل غاية الجهد مع المشايخ فى التمكن عليه اذ لا يعقل أن مثله يقرب نجع دريد ويخفى عليكم أمره ، ثم ان الكبلوتى هو جنى على نفسه اننا كنا وجهناه أولا الى الشرق وأعناه بالدراهم وغيره ، ثم رجع بدون اذن ورجعناه مرة ثانية على شرط عدم الرجوع بدون اذن الدولة ، واذا يرجع بدون اذن فانه يسجن وعليه فهو الجانى على نفسه » (37) .

العاشرة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتى ، أخبره فيها بأنه اتصل بالرسالة التى وجهها اليه يوم 26 من نفس الشهر ، وحثه فيها على البحث عن الكبلوتى ، وأحاطه علما : « انه ثبت عندنا قدومه وأنه نزل على صفاقس وقدم الى محله بالكريب ، وانه يختفي بالنهار ويأتى الى منزله بالليل » ، كما أخبره بأنه اتصل برسالة من عامل الكاف رشيد حملها اليه الاوضة باشى علي بن شلبى ، يحثه فيها على التمكن منه وارساله الى الكاف ، فاحضرنا مشايخ وأعيان دريد وأرسلنا معهم الاوضة باشى ، والشاوش الذى جاء معه واتجهوا الى نزله وأحدقوا به ليلة كاملة بصورة خفية ، حتى طلوع الفجر فلم يظهر له أثر ، وعند ذاك قصدوا الى الخيمة التى يسكن بها فى الربع » ودعوا أخاه أبو عزيز فحضر بين أيديهم وسألوه عنه فاعترف لهم بقدومه ووجوده ، ثم توجه من عندهم الى خيمته بقصد الاتيان به وأجاب والدته بقوله لها ان ابنك يطلبونه الناس فاجابته والدته بقولها له توجه الى المكان الذى أتى منه ولم يبق هنا وتوجه أمس يوم التاريخ والناس المتوجهين (كذا) له يسمعون ذلك خلف خيمته ورجع لهم أخوه من غير انفصال فاتوا لنا باخيه وبرجال من أعيان الغرابة » ، فحثهم على البحث عنه ، وطمأنهم بأنه لن يناله أي شيء من الدولة ، فعادوا للبحث عنه طوال اليوم ، ثم عادوا

---

37) نفس المصدر ، وثيقة رقم 14 بتاريخ 25 جمادى الاولى 1289 (حوالى 31 جويلية 1872) .

من غير طائل ، فوجهناهم جميعا الى الكاف صحبة رسالة الى العامل السيد رشيد . وفي الاخير استدرك بأنه اتصل بخبر صحيح من مخبرين آخرين يفيد بأنه رحل ليلة الجمعة الفارطة على نفس الطريق الذى أتى منه بعد أن أخذ من بيته ما يلزمه من المؤن والمصروف ، وتوجه صحبة تابعه والحمار والبغل اللذين أتيابهما من صفاقس . وقد عقب الوزير على هذه الرسالة بقوله : « فان التغافل عن الاعلام بذلك حتى ورود الاعلام من غيركم يعتبر من التفريط والتساهل فى الخدمة » (38) .

الحادية عشرة : رسالة الكبلوتى الى الوزير مصطفى خزندار من مالطة أخبره فيها : « اننى لما صفرت (كذا) من هناك من مرصت (كذا) حلق الوادى وبلغت مالطة رجعت منها الى بيتنا شف (كذا) أولادى لانى لا طقت صبر على الكبد وراني (كذا) رجعت فى طاعة الدولة المنصورة ... وبلغت الى مدينة مالطة متوجه (كذا) الى الشام ... وأولادى واخوانى راهم (كذا) محاجير الى المعظم ... أبنك سيدى محمد » (39) .

الثانية عشرة : رسالة أمير اللواء مراد الى الوزير خير الدين ، أخبره فيها بأنه اتصل برسالته المؤرخة بيوم 1 من الشهر تحت رقم 661 ، التى تتضمن « تشكى قنصل الفرنسيس من الصبايحية الذين مع الكبلوتى الموزعين على نجوع دريد » ، والذين خالفوا أوامر الدولة ، واصبحوا يقتربون من منطقة الحدود ، ويتسوقون الى مدينة الكاف . وأحاطه علما : « أنه حين اتصال المكتوب بأيدينا بادرنا بالمكاتبة لمشايخ دريد بجميع ما تضمنه المكتوب المذكور وحرضناهم عليه فى ذلك غاية التحريض ، وانذرناهم غاية الانذار » ، وختم رسالته بقوله : « أعلم جنابكم أن الذى ظهر لنا أن هؤلاء الناس ليس عندهم تفريط ولا اياس فى وطنهم وهاته الامور التى تصدر منهم تجسسا على وطنهم وحذرنا على مشايخ دريد فى رد البال منهم » (40) .

الثالثة عشرة : رسالة الامير عبد القادر الى الوزير مصطفى خزندار يتشفع فيه للكبلوتى ، فبعد أن شكره على ايوائه للمقرانيين ووضعهم تحت حماية دولته قال له : « ثم ان القائد الكبلوتى كان حضر لطرفنا منذ شهور وهو الآن عندنا يطلب شفاعتنا فالمرجو ... أن يلحقه بهم فى الاذن والسكن ويشمله معهم ومن يلوذ به » ، وأضاف فى

---

38) نفس المصدر ، وثيقة رقم 13 بتاريخ 30 جمادى الاولى 1289 (أوت 1872) .
39) نفس المصدر ، وثيقة رقم 12 بتاريخ 26 جمادى الثانية 1289 (سبتمبر 1872) .
40) نفس المصدر ، وثيقة رقم 11 بتاريخ 4 ذو القعدة 1289 (جانفى 1873) .

آخر رسالته : « فلا نشك فى رد الجواب بطلق سراح هذا المأسور من يد الاغتراب » · وقد عقب الوزير على هذه الرسالة بقوله : « يجاب بما يناسب وأن الكبلوتى منعت من الاجابة لمطلبه موانع سياسية » (41) ·

الرابعة عشرة : رسالة الصدر الاعظم رشدى باشا الى باي تونس حول السماح للكبلوتى بالاقامة فى تونس ، وقد ذكره فيها برسالته السابقة التى أرسلها اليه يوم 16 جمادى الاولى 1290 حول الاهتمام بالمهاجرين القرانيين ومنهم الكبلوتى الذين التجأوا الى تونس · وأوضح له بأنه اتصل فى الايام الاخيرة بعرض الى الباب العالى « ممض من الكبلوتى بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه أنه بعد أن حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمساعفة اللائقة للتوطن بولايتكم الجليلة تحت حماية دولتكم أمرتموه بالرحول (كذا) منها الى مكان آخر بموجب طلب قنصل فرنسا الذى هناك وما يسعه الا الامتثال لامركم السنى · وبلغه الآن أن جمهورية فرنسا قد أعلنت بالعفو العمومى للذى كأمثاله واعتمد على ان لا يقع له التعرض من الجمهورية المذكورة فى المستقبل وبناء على ذلك استرحم من الدولة العلية على الاقامة بايالتكم الجليلة آمنا ومطمئنا مستريح البال ··· فها نحن بادرنا حضرت (كذا) عليائكم بمطلبه فلا بأس بمراعاته حيث أن الحماية والوصاية فى حق المهاجرين كمثلهم من مقتضيات الدراية الاسلامية » (42) ·

الخامسة عشرة : رسالة الكبلوتى الى الوزير خير الدين قال له فيها : « اننى الآن مقيم ببلدة طرابلس وأريد الحرث هنا ولا وجدت طاقة وطالب الاعانة من فضل السيادة لانى خديمك ولا عندى أحد سواك فى ذلك البلاد (كذا) ولا فى غيرها وأيضا سيدى توصى علي وكيل الدولة التونسية بطرابلس يكون منى ببال » (43) ·

---

41) نفس المصدر ، صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 63 بتاريخ 2 محرم 1290 (2 مارس 1873) ·

42) نفس المصدر ، صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 4 بتاريخ 26 ذو القعدة 1290 (جانفي 1874) ·

43) نفس المصدر ، وثيقة رقم 3 بتاريخ شعبان 1292 (سبتمبر 1876) ·

نصـــوص الرســائل وأصــولها

الاولى : رسالة الكبلوتي بن الطاهر رزقي الى باي تونس محمد الصادق باشا

الحمد لله (44) ، صلى الله على رسول الله وسلم تسليما .

حظرة السعيد الامجد الفخر الرفيع الانجد من أخصه الكريم بالرياسة والاحترام وررقه من فضله بالكرم والانعام وجعله رئيسا على ملة الاسلام أعنى به المعظم السيد الصادق باشا باي المشير اكرمه الله بالنصر وحسن التدبير وأدخله فى شفاعة البشير النذير نعم سيدنا بعد السلام التام والرضوان الشامل العام المحفوفان بضروب التحية والاكرام أحسن الله لك وجازاك خيرا جيث ءاويتنا واكرمتنا واوصيت علينا بخـير جوزيت خيرا وكفيت شرا فان السيد الرشيد قال لنا كل ما فعلت معكم فهو عن اذن سيدنا وبأمره والان سيدنا فها دخلنا تحت حكمك وممتثلين أمرك ومتشبثين لفضـــل الله ثم فضلك فان أنعمت علينا بأعز جواب من عندك مرقوما بأمرك ونهيك فالحمد لله على فضل الله ثم فضلك والسلام من فقير ربه اللطيف الناصر الكبلوتى بن الطاهر ابن الرزقى الحناشى وكل من معه فى 3 من ذي الحجة سنة 1287 (45) .

الثانية : رسالة الكبلوتي بن الطاهر رزقي الى الوزير التونسي مصطفى خزندار حـول التجائه الى تـونس .

الحمد لـلـه (46) ، صلى الله على الحبيب المصطفى .

حظرة النبيه الاسعد الفخير الارشد المحترم الامجد السيد مصطفى رئيس الاكابر والولات (كذا) وعمدة النجباء والثقات من جعل الله امره مطاع (كذا) وشانه رفيع (كذا) ذو نفع وانتفاع نعم ايه (كذا) الرئيس الافخر والملاذ الاكبر بعد تبليغ السلام ولطايف التحية والاكرام فهاءنا دخلنا وطنك وتشبثنا بجلال قدرك كما بلغنا وتقرر فى ذهننـــا أن من حام حماك لا يخشى بفضل الله سواك وأيضا فالمقصود من جـــزيل فضلك أن تجعلنا تحت جناحك وتنظرنا بعين رضاك فان عين الرضى عن كـــل عيب كليلة فان اويتنا فقد قال جل من قائل « والذين ءاووا ونصروا » وقال « وما تفعلو من خـــير

44) أ. ح. ت. صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 16 .
45) الموافق اواخر جانفي 1871 .
46) أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 240 ، وثيقة رقم 15 .



الشكل رقم I ـ رسـالة محمد الكبلوتي الى بـــاي تونس محمد الصادق بـاشا ،
أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم I6 ·


الحمد لله

صلى الله على الحبيب المصطفى

الشكل رقم 2 ـ رسالة محمد الكبلوتي الى الوزير التونسي مصطفى خزندار حول التجانه الى تونس ، ٠أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 15 ٠

يعلمه الله ، ونسئل الله أن يزيدنا وأياك من فضله ورضاه بجاه نبيه الاواه انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير والسلام من فقير ربه الغني القادر الكبلوتى بن الطاهر بن الرزقى الحناشى لطف الله بحاله والمؤمنين أجمعين وجميع من معه فى 3 ذي الحجة سنة 1287 (47) ·

المكلــــف بالكـــاف

وبعد فانه ورد كتاب من فلان وهو أعلاه بشكر الفضل وعرضناه على الحضـــرة العلية وصدر الاذن العلي باعلامكم بأن الاذن صدر بأن هؤلاء السبايس لا ينبغى بقاءهم بالمحل الذى هم فيه الآن لما يلحقهم من التهمة وأن ينتقلوا لسمنجه وأن الدولة تعطيهم نصيبا من القمح طبق ما عرفناكم به فالمراد أن تحرظهم على الارتحال من قرب الحدود وأن يقدموا لسمنجة طبق الاذن لان المراد اثباتهم بوجق المحمدية وتعرفهم بأن يغتنموا الفرصة بالارتحال لمصلحة أنفسهم وأن يبعدوا عن الحدود راحة لانفسهم وراحة للدولة والا فانهم ان بقوا هناك فان الدولة الفرنساوية لا تسمح ببقائهم هناك لما فيه مـــن موحيات التحيير ·

الثالثه : رسالة مصطفى بن قطوم الى الوزير خير الدين حول مشاكل الكبلوتى

الحمد للــه (48) ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم ·

حفض (كذا) الله ذات مولانا علي المقام ومسرف عنايته لمصني دين الاسلام · وبلغ الله مراده لهنات الخاص والعام مولانا الاوحد الثيقة الاعز أمير الامراء سيدى خير الدين الوزير المباشر حرصه الله ءأمين أما بعد التقبيل بيدك الكريمة أمنها الله ءامين وبعد نعم سيدى أذنتنا أننا نجمع الزمالة مع اخواننا الفراشيش ببلادنا فلما توجهت من عند السيادة فوجدت محلنا بالزوارين صحبة أحبابنا المشاييخ وبقية عرشنا أولاد علي فرغبت الخلاص على رجوعنا الى البلاد كان بلادنا هاته الساعة لما رجعوا مـــن نواحيها النمامشة والكبلوتى فبقت فى هنات (كذا) وعافية مع وجودك والحمد للــــه على ذالك وارغابنا فى الخلاص لانني نظرت من أهلنا يريد دخول فريقية ليلا يتفرض علينا ويشتد عنا الامر فى بعدهم لانهم اذا دخلوا يتفرق ويذهبون نسبتهم ويمنــــع

47) الموافق أواخر جانفي 1871 ·
48) أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 21 ·

أنفسهم من الخلاص في قلة اثباتهم في أي مكان ولما يبلغ مرادنا من هؤلاء الناس النازلين بقربنا نرجع الى البلاد مـــع جملة اخواننا الفراشيش كما اذنتنا ونحن واقفين على ساق الجد في ما يجلب الخاو (كذا) بين الجانبين وعدم مد اليد في تلك الناحية والذي يريد الدخول من الناحية الغربية الى المملكة التونسية حفضها الله من كل بلى نصرف عنايتنا فيه كما اذنتنا ونطلب من سيدي أن تأذن لنا الهمام الارفع أمير اللواء سيدي رشيد عامل الكاف يكن لنا اعانة في الخلاص ونطلب الله سبحانه وتعالى أن يبقى لنا وجودك مع وجود سادتنا هناهم الله ءامين والسلام من خديمك ومقبل الارض تحـت أقدامك عبدك مصطفى بن قظوم وفقك اللـــه ءامين وكتب في 2 في صفـر الخير سنة 1288 (49) ، كتب لعامل الكاف ويرجع للوزارة في بقية فصوله .

الرابعة : رسالة يوسف بن علي اليقرو الى الوزير خير الدين حول نشاط الكبلوتي ابن الطـاهر رزقـي .

الحمد للـه (50) ، وحده واليه يرجع الامر كله .

المقام الذي زاحمت الكواكب كتفه وحاز من المكارم والكمالات ما هو أهله ومحله الامجد الهمام وبدر المجد الذي لا يفارقه نخبة الاعيان من أهل الرفعة والشان أمـير الامراء وواسطة عقد الكبر الوزير المباشر سيدي خير الدين أعزه الله ءامين السلام عليكم بعد تقبيل الكريمتين يديكم ورحمة الله تعالى الشاملة فالذي يجب به اعلامكم الرفيع هو أن الكبلوتي بن الطاهر ثبت عندنا وأنه حل بوشتاته بموضع يقال له الصرية وأن السبايس الذين كانوا معه أفترقوا من عنده البعض منهم الى عندورغه والبعض منهم عند أولاد سديرة والحدادة هاته الساعة عافية كاملة ما بين الشرق والغـرب والطرقات مامونة ذهابا وايابا ولا يكون اتمام الفرض الا في قدوم الحملة المنصورة التي بها الافخم سيدي رستم لاتمام غرض الدولتين في التمكن على هاذا الكلـــب الكبلوتي ليكون الهنا والعافية في الوطن والاولى المبادرة بقدوم الحملة عما قريب ان شاء الله يكون الظفر به والمؤمل منكم انه يوم بلوغ الحملة للكاف تخبر الهمام سيدي رشيد ءاغه الكاف يخبرني بالقدوم لملاقات الحملة قبل بلوغها الكاف بيوم أو يومـين

49) الموافق أواخر فيفري 1871 .
50) أ. ح. ت. صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 25 .



اثولنة وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

حفظ الله ذات مولانا اعلو المقام ومصرف عنايته لصحيفة [illegible]

وبلغ الله مراده لصلاح الخاص والعام مولانا الهمام وحيد الشيعة الاعز افخم الاكرم

حضرة خير الدين الوزير المباشر حرسه الله آمين اما بعد التقبيل بيدكم الكريمة

ادامها الله آمين وبعد نعلم حضرتكم باننا انا في الرحالة من اخواننا الواصلين

بلادنا طالما توجهت من عند السيادة [illegible] علما بالذي [illegible] اجابنا

المشائخ وبقيت [illegible] ارسلناه علي [illegible] الخلاص على [illegible] الى البلاد

[illegible] بلادنا هاته الساعة لا رجعوا من مواجبها [illegible] والكبلوت

جمعت في هنالك وعلى [illegible] مع وجودكم والحمد لله على ذلك وارسلنا [illegible]

الخلاص لانه [illegible] من اهلنا [illegible] بقيت [illegible] علينا

ويقتضي [illegible] في بعضهم لانهم اذا [illegible] خلوا [illegible] نسيتهم

ويمنع انفسهم من الخلاص في قلة [illegible] ومما يظهر مرارا

من هؤلاء الناس الذين [illegible] نرجع الى البلاد مع جملة اخواننا

الجزائريين [illegible] واقفين على [illegible] في ما [illegible]

الجانبين [illegible] في تلك الناحية والذي [illegible] الناحية

الغربية الى المملكة التونسية [illegible] عنايتنا

فيه [illegible] ونطلب من حضرتكم ان تأذن لنا [illegible]

المواصي [illegible] يكون لنا اعانة في الخلاص ونطلب الله

سبحانه وتعالى ان يبقي لنا وجودكم [illegible]

الله آمين والسلام من خديمكم [illegible]

مصطفى بن قطوم وفقه الله آمين

كتب اعلامه الكاتب [illegible] للوزارة التونسية

وكتب [illegible]

[illegible]

مصوله

الشكل رقم 3 ـ رسالة مصطفى بن قطوم الى الوزير خير الدين حول مشاكل الكبلوتى

أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 21 ·



الشكل رقم 4 ــ رسالة يوسف بن علي اليقرو الى الوزير خير الدين حــول مشاكل الكبلوتي ، ۰أ۰ ح۰ ت۰ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 25 ۰

وأعرفكم سيدى رعاك الله ان الشريف بن البوخارى الذى كان فى الكاف وصدرت منه هفوات كثيرة وأقام حجج باطلية وأوقد الفتن بين الشرق والغرب ونوازله جلها على يد العمدة الصدر الاعظم سيدى الوزير الاكبر فانه الان هنا بسوق أهراس صار يوقد فى الفتنة اكثر من ما كان سابقا بين الحكام الفرانصوية وانه عامل يدا مع المير حكم السفيل وبعض أمور الدولتين انصرقت (كذا) من قبيح افعاله ووقود فتنته · فانه اذا وجدت مسلكا لنفيه لبلد قسنطينة أو غيرها فبذالك تنطفى نار فتنته اذا ظهر لك تخبر عليه السيد القنصل متاع الدولة الفرانصوية الذى فى تونس ينفيه للجزائر او بعض الاماكن البعيدة وأعلمكم أنها وقعت العافية فى الغرب كافة وأن الناس العاصون طلبوا الامان وأكثرهم أتوا مذعنين طائعين وأن هاته الايام البارود وقع فى عمالت وهران ويقول ابن ناصر بن شهره هو الذى اقام مفسدا فى عمالة وهران وهرب من نفزة الى العمالة المذكورة وكل ما يقع فى عمالت الدولة الفرانصوية نعلمك به ودمتم فى أمن الله والسلام من خديمكم الفقير الى ربه يوسف بن علي النيقرو وكيل الدولتين فى 23 جوليت سنة 1871

Y. Allegros فى 4 ربيع 2 سنة 1288 ·

الخامسة : رسالة أحمد عبدو بن حميده الى الوزير خير الدين حول الكبلوتى ابن الطاهر رزقى ·

الحمد لله (51) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه وسلم ·

جناب الهمام المفخم أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين حرس الله تعالى مجده · ءامين السلام عليكم التام المقبل براحتيكم الكرام وبعد بلغنا أن الكبلوتى لا زال يكاتب فى أهل الغرب على أنهم يجملون معه فيما يفعل من الفساد ويهنوه فى ذالك وأوعدوه على اتمام زرعهم ويكون معه وقد قيل انه كاتبه بن ءاغه وابن حداد بعمالة الاجانب وجرت بينهم المكاتب فى ذالك ولعله يتم لهم ما ذكر. وذكروا أيضا رجل يقرا جبل الرقبة يقال له علي ويعرف بالشريف انه يسعى فى الفعل المذكور ولم تنقطع بينه وبين الكبلوتى المكاتبة وان ثبت قدوم الحملة المنصورة ونزولها بأطراف أعراش الكاف فهو حسن وأما بلغنا بعد هروب الهمامة أن جماعة من العيايشة ظهر سيدى وزير الحرب عقابهم لما ثبت عنده أنهم كانوا ممن يتجسسون مع المذكورين وأما سيرة يوسف بن بشير

---

51) أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 28 ·



الشكل رقم 5 ـ رسالة احمد عبد بن حميدة الى الوزير خير الدين حـول الكبلوتى
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 28 ٠

لا ترضى وهذا ما حصل عندنا الان عرفناكم به وربنا يدم لنا وجودكم ووجود سادتنا نصرهم ءامين والسلام من خديمكم فقير ربه أحمد عبد بن حميدة فى 14 جمادي الاول سنة 1288 (52) ·

يجاب بعدم الغفلة عما يتزايد عنده من أحوال الكبلوطى وغيره ويرسل نسخة بهذا المكتوب لوزير الحرب المكلف بالحملة · صح ·

السادسة : رسالة أحمد عبده ابن حميدة ورفاقه الى الوزير خير الدين حول توزيع الصبايحية اللاجئين من الجزائر مع الكبلوتى الى منطقة الحدود ·

الحمد لله (53) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم ·

اسعد الله مقام الهمام الاكمل الوجيه الاحزم العمدة المفخم أمير الامراء ووزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله اجلاله وأمدده فى المعالى كماله السلام عليكم السلام التام ورحمة الله وبركاته ويليه بعد التقبيل براحتى الايدى الكرام نعم سيدى بانه أتانا فى شهر التاريخ الاذن من الجانب العلي مصحوب باذنكم الرفيع صحبة أمير الاي السيدى باش حانبة فى تقسيم أنفار الصبايس جماعة الكبلوتى الى أربعة أقسام كل قسم يكون مع عرش من عروش دريد الاربع والتحذير عليهم بأن يرجع أحد منهم الى الناحية الغربية ويسعى الفساد مع الاجانب ورد البال من أن يرجع ويجتمع مع بعظهم بعد القسمة المذكوٓرة الى ءاخر ما تظمنه الاذن العلي مع ما اقتضاه نظركم المؤيد ورأيكم السعيد فلما بلغ لنا ذلك ركب السيد باش حانبة ونحن وكافة الرجالة الكبار وتوجهنا نحوهم فوجدناهم نازلين بالكريب من عمل بلدة تبرسق فوجدناهم جلهم بانين الاخيام بالحطب والقش واشتكوا لنا بالجوع وعدم السكنة من غير خيام وذكر لنا أنه كانت الدولة العلية تفضلت عليهم بالبيوت وجانب طعام أما البيوت رجعت الى المحروسة والطعام لم يتصل به فطلب منا الامهال بالقسمة الى أن يجىء الجم حيث لم يتصل بالفصلين المذكورين فلم نوافقوهم على ذلك وقسمناهم على أربعة أقسام على مقتضى ما صدر به الاذن واتصل كل عرش بقسمته كما تتصل بجانب السيادة تجريدة بها بيان كل قسمة وحيوانها ونسبتها صحبة السيد باش حانبة كما يحكى لجانب السعيد السيد

52) الموافق أوت 1871 ·

53) أ· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 32 ·



الشكل رقم 6 ـ رسالة احمد عبد بن حميدة الى الوزير خير الدين حـول الكبلوتي والصبايحية ، ا٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 32 ٠

باش حانبة فهاذا ما عندنا عرفنا به سيدنا ودامت السيادة فى أمان الله وحفظه والسلام من الفقير لـــربه خديمكم أحمد عبد ابن حميدة والطيب بن البراني وسليمان بن عبيد وأحمد بن عمار عفا الله عن السيادة ءامين · فى 12 فى شوال المبارك سنة 1288 (54) ·

الحاق خير يكون معلوم السيادة توصل من الطعام المذكور من ذكرهم بقدر ستـة عشر قفيز قمح تونسى وأربعة وعشرون أقفزة شعير تونسى والسلام صح من سليمان ابن عبيد · صح الطيب (امضاء) ·

السابعة : ملحق به كشف بأسماء عروش دريد الاربعة ، وأسماء عائلات الصبايحية والحنانشة التى وزعت عليهم ·

الحمد لله (55) بيان بيوت الغرابة من الحنانشة والسبايس والهمامة المنقسم عـلى أعراش دريد على مقتضى الاذن العلي المصحوب على يد سيدى باش حانبة ·

– بيان القسمت (كذا) التى صعت مع

عرش شيخ بنى رزق :

خيـــل خيـــام

1 – أحمد بن عمار

1 – عمارة بن جاب الله

1 – بيت مبارك بن محمد

1 – بيت سعيد بن مخلوف

1 – بيت مسعود بن محمد

1 – السبت بن القندوز

– – العبيدى بن عمار من غير خيالى

– – الاخضر بن عبد الحفيظ ، مثله

1 – على بن سرحان

1 – محمد بن زيتونى

1 – عمار بن محمد

1 – جاب اللــه

1 – عمار بن محمد

1 – بلقاسم بن جاب الله

1 – أبو الاعراس

1 – أحمد بن العبيد

1 – صالح بن نصر ·

جملة القسم حنانشة وشامية (؟)

15

---

54) الموافق جــانفي 1872 ·

55) نفس المصدر ، وثيقة رقم 31 بدون تاريخ وهي ملحق لرسالة أحمد بن حميدة السابقة الى الوزير خير الدين بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفي 1872) ·

- قسمة شيخ أولاد جوين :
I - أحمد بن قاسم - 2
I - بلقاسم بن على
I - على بن المبارك - 3
I - قاسم بن عمار
I - بلقاسم بن أحمد - I
I - محمد بن بخوش
I - ابراهيم بن الصامت - I
I - عبد الله بن نصر - I
- - بلقاسم بن عثمان من غير خيالى - I
I - على بن محمد - 2
I - محمد بن الزين - I
I - الطيب بن عبد الواحد
داخل فى قسمة سى أحمد بن حميدة
I - على بن الساسى
I - مخلوف بن الساسى
I - الهامل بن أحمد
توجه بخيمته مع أحمد بن حميدة
I - أحمد بن عبيد الدريسى
جملة القسم حنانشة

- قسمت (كذا) أولاد مناع من بيوت الحنانشة
I - بوعزيز بن محمد الصالح الحناشى
I - أخوه محمد
I - على بن الحاج
I - عمار بن صالح
I - بلقاسم بن الساسى
I - ابراهيم بن بخوش

I - الاخضر بن المبروك
I - سى الطاهر بن أحمد الصالح
I - محمد بن البهلول
I - محمد بن مبروك
I - رابح بن عبد الرحمن
I - الطيب بن بلقاسم
I - بلقاسم بن على
I - على بن محمد
جملة بيوت الحنانشة وأولاد خيار
———
I3

- قسمت شيخ أولاد عرفة
خيل
3 - صالح بن طلحة
I - الفاطمى بن الزين
2 - عمار بن سوسى
I - محمد بن عبد الله
I - عمار بن محمد
I - أحمد بن الهورى
I - الطاهر بن خالد
- - العبيدى بن عمر ، من غير خيالى
I - محمد بن عبد الله
I - محمد بن رمضان
I - فرحات بن أحمد
I - مسعود بن بانبيث
I - وناس بن العلمى
I - معمر بن عبد السلام
I - عمار بن العميرى



الشكل رقم 7 ـ كشف ببيان اسماء عروش حريد الاربعة واسماء عائلات الصبايحية التى وزعت عليهم ۰۱ ح۰ ت۰ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 31 ۰

الثامنة : رسالة الطيب بن البرانى الى الوزير خير الدين حول توطين الصبايحية والكبلوتى بتــراب تــونس ٠

الحمد للــه (56) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم

أسعد الله مقام الهمام الاكمل والوجيه الاحزم العمدة المفخم أمير الامراء والوزير المباشر سيدى خير الدين حرص الله كماله ويليه بعد التقبيل براحتى الايد الكرام نعم سيدى والسلام التام بأنه قدم لنا الاعز جواب السيادة مورخ فى 6 التاريخ وما ذكرتم فيه من صدور الاذن العلي مصحوب باذنكم بأن أنفار الصبايس التى كانوا مع الكبلوتى ينقسموا الى أربعة اقسام كل قسم ينزل مع عرش من عروش دريد وأن لا يفعل أحــد منهم ما يقتضى أو يسعى فى التحيير فى الحدود وصدر الاذن العلي بتوجه بـــاش حانبة لترحيلهم من تبرسق الى نجوع دريد لاجل ما ذكر ٠ نعم سيدى وقت أن أتصــل بأيدينا جواب السيادة المذكور ركبت أنا ومشايخ دريد والسيد باش حانبة وتوجهنا الى نحوهم فوجدناهم نازلين بالكريب من عمل بلدة تبرسق فعرضنا عليهم الاذن العــلي وقررنا لهم ما صدر به الاذن من تحذيرهم من فعل ما تمنع به السياسة وقسمناهم على أربعة أقسام وكل منهم أتصل به شيخ من مشايخ دريد وها نحن لا زلنا بـــرد البـال ومتقصين من فعل ما يصدر منهم حتى وان كانوا أشتكوا لنا بالجوع وعدم السكنة من الخيام والقسم التى صح لنا منهم نزلناه مع أهلنا وكما يتصل بجانبكم جريدة بها بيان بأسماء القسم ونسبتها وخيلها وقولكم سيدى أننا نكون يد واحدة أنا والاجل محبنا سي أحمد بن حميدة على ذلك ٠ الجواب سيدى لا زلنا يـــد واحدة فى الخدمة وفيما ينضفنا عندكم ولو مع غيره لان قدم الخديم على قـــدم سيده وربنا يعيننا على ذلك ويبقى لنا وجودكم وفى ذلك كل الخير ولا زايد لسيادة سوى الخير ودامت السيادة فى أمان الله وحفظه ورعايته والسلام من الفقير الى ربه خديمكم وغرس احسانكم الطيب ابن البرانى عفا الله عن السيادة ءامين فى 12 شوال سنة 1288 (57) يلخص ٠

---

56) أ٠ د٠ ت٠ صندوق 212 ملف 240 ، **وثيقة رقم 33** ٠

57) الموافق جانفي 1872 ٠



الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الشكل رقم 8 ـ رسالة الطيب بن البرانى الى الوزير خـــير الدين حـــول توطين الصبايحية بتونس ا٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 33 ٠

التاسعة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عـن الكبلوتى بن الطاهر رزقى ·

الحمد للـه (58) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم ·

سعادة لا تنقضي وبلوغ ما تهوى النفوس وترتضي جناب الهمام الافخم أمـير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله اجلاله وحرس بمنه كماله ءآمـين أما بعد اهداء التحية اليكم والتقبيل بالكريمتين يديكم أن مما ينهي الى شرفكم عـلم السيادة هو أنه بلغنا خبر من الكاف ووطنها خبر محقق هو أن الكبلوتى توجه الى بـلد طرابلس ومن هناك أتى الى وطننا وأتى الى خيمته خفية ولما حل بها صار يختفي بالنهار ويأتيها ليلا ولما بلغنا ذلك اجتهدنا فى البحث عن ذلك كل الاجتهاد باذلين جهدنا فى ذلك لعلنا نضفروا به ووجهنا من طرفنا الاجل المرعى سى الطيب بن الحاج الابراني شيـخ أولاد جوين الى بلد الكاف بقصد البحث والفحص عنه وثبوت ذلك · ولما ذهب الى هناك وتجسس عن ذلك وجد هاذا الخبر شائعا ذائعا عند الخاص والعام من الاعلى الى الادنى لكن عن غير ثبوت وقدم الينا وأخبرنا بذلك حتى انه تناها خبره وبلغ الى الهمام الافخم أمير أمراء عساكر الخيالة سيدى رشيد عامل الكاف ولكن المراد منك أنك تعرفنا بانه ان ثبت ذلك وضفرنا به ما يكون وجه العمل فيه ونحن لازلنا مجتهدين فى البحث والفحص عنه حتى نثبتوا ذلك وهاذا ما عندنا عرفنا به جناب السيادة ودمتم فى عز دائم وسعـد قائم والسلام من الفقير لربه أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد عفى عنه بمنه وكرمه · ءامين وكتب 25 أولى جمادى سنة 1289 (59) ·

يجاب فى عمل الجهد فى التمكن عليه واذا ضفر به يوجه حالا للحضرة العـلي ولابد يعمل غاية الجهد مع المشايخ فى التمكن عليه · اذ لا يعقل أن مثله بقرب نجع دريد ويخفى عليكم أمره ثم أن الكبلوتى هو جنى على نفسه اننا كنا وجهناه أولا الى الشرق وأعناه بالدراهم وغيره · ثم رجع بدون اذن ورجعناه مرة ثانية على شرط عدم الرجوع بدون اذن الدولة واذا يرجع بدون اذن فانه يسجن وعليه فهو الجاني على نفسه ·

---

58) أ· د· ت· صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 14 ·

59) الموافق حوالى 31 جويلية 1872 ·


ARCHIVES GÉNÉRALES DU GOUVERNEMENT TUNISIEN

الحمد لله

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الشكل رقم 9 ـ رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حــول البحث عن الكبلوتى ، ٠ا٠ ح٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 14 ٠

العاشرة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتى بن الطاهر رزقى .

الحمد لله (60) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم .

جناب الهمام الافخم نخبة الاعيان وخلاصة أهل الرفعة والشان أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله اجلاله وحرس بمنه وكرمه كماله ءامين أما بعد اهداء التحية اللائقة اليكم والتقبيل بالكريمتين يديكم أن مما ينهى الى شرف علم السيادة المؤرخ فى 26 شهر التاريخ المتضمن الحث على التمكن على الكبلوتى وتوجيهه الجواب عن ذلك أنه ثبت عندنا قدومه وأنه نزل على صفاقس وقدم الى محله بالكريب وأنه يختفى بالنهار ويأتى الى منزله بالليل وقدم الينا من طرف الهمام الافخم أمير أمراء عساكر الخيالة السيد رشيد عامل الكاف الاوذه باشى علي بن شلبى وصحبته شاوش من وجق الكاف وبأيديهما مكتوب منه يتضمن الحث على التمكن عليه والظفر به وتوجيهه الى بلد الكاف بمقتضى الاذن الصادر له المضمن بمكتوبه وحين قدما الينا ليلا احضرنا ميعاد دريد مشايخ وأعيان وركبناهم صحبتهما فى الحين وتوجه جميعهم ركبانا ورجالا الى نزله وباتوا محدقين بنزله خفية على وجه العسة يترقبون خروجه الى أن بان الفجر فلم يظهر لهم فعند ذلك قصدوا جميعا النزل الذى به خيمته ودعوا أخاه أبو عزيز فحضر بين ايديهم وسألوه عنه فأعترف لهم بقدومه ووجوده ثم توجه من عندهم الى خيمته بقصد الاتيان به وأجاب والدته بقوله لها ان ابنك يطلبونه الناس فأجابته والدته بقولها له توجه الى المكان الذى أتى منه ولم يبق هنا وتوجه أمس يوم التاريخ والناس المتوجهين له يسمعون ذلك خلف خيمته ورجع لهم أخوه من غير انفصال فأتوا لنا بأخيه وبرجال من أعيان الغرابة وحضروا لدينا وحثينا عليهم كل الحث وكل الحرص فى التفتيش عليه والاتيان به مع الملاطفة منا لهم واظهار الامان منا له فى عدم الخوف من جانب الدولة لئلا يحفلوا عن البحث عنه وتوجهوا من عندنا جميعا بقصد ذلك وصحبتهم الاوذه باشى والشاوش المذكورين هاذا كله بعد اقرارهم جميعا لدينا واعترافهم قدومه حقا غير انهم لم يطلعوا عليه لاختفائه بالنهار واتيانه بالليل ثم رجعوا لنا عشوة عن غير فصل . يذكرون أنهم فتشوا عنه الغابة والجبال التى حولهم ولم يجدوه ولم نقبلوا عنهم ذلك ووجهنا الجميع الى الكاف الى الهمام الافخم أمير الامراء السيد رشيد وصحبتهم مكتوبا

---

60) أ . ح . ت . صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 13 .

منا بما وقع وهاذا ما عندنا عرفنا به جناب السيادة والنظر الاعلى لله ولكم وفى أمن الله دمتم وبحبله أعتصمتم والسلام من الفقير لربه أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد عفى عنه بمنه ءامين · وكتب فى 30 منسلخ أولى جمادى سنة 1289 (61) ·

صح من مراد · (امضاء)

استدراك مبارك وبعد صدور هاذا المكتوب أتانا بخبر صدق يحكى تحقيق من الناس المكلفين بالتجسس عليه لاننا بعد أن وجهنا الناس المذكورين ببطن هاذا المكتوب الى الكاف كلفنا غيرهم بالتجسس عليه انه ليلة الجمعة الفارطة رجع عن طريقه الذى أتا منه بعد أن رفع من بيته ما ينو به من مؤونة ومصروف وغير ذلك وتوجه صحبة تابعه والحمار الذى أتى به من بلد صفاقس على بغل وحمار وهاذا ما علمناه عرفنا به جنابكم العلي وفى أمن الله دمتم والسلام · اهـ صح من مراد · هـ (امضاء)

يجاب بأن ورود المذكور لمحله بالليل وأختفائه بالنهار لا يكاد يخفى على المجاورين له ودليل ذلك عليهم بذلك وتعيينهم محل اختفائه · ولما كان المجاورون له هم لنظركم فان التغافل عن الاعلام بذلك حتى ورد الاعلام من غيركم يعد من التفريط والتساهل فى الخدمة لا سيما وقد نشأ عن ذلك عدم التمكن على المذكور ·

الحادية عشرة : رسالة الكبلوتى بن الطاهر رزقى الى الوزير مصطفى خزندار بعد خروجه من تونس الى بلاد الشام ·

الحمد لله (62) ، وصلى الله على سيدنا ومولا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم عليه

والى الله سعودك على الدوام وخذ ولايتك على مر الليالى والايام وألبسك رداء ستره الجميل وألاك من نعم كل جزيل ودا عليك من نعمه الضافية الكافية وأرزقة العافية وخيراته المتوالية أعنى بذالك ذات المعضم الارفع الامثل الاكمل الاسعد الهمام المنتخب الامجد الانجب الصدر الاعظم سيد مصطفى خزندار سدق (كذا) أقواله وبلغ ءاماله سلام الله عليك ورحمته تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته وتحياته ورضوانه وفضله واحسانه كثير السؤال منا عن سيادتك العلية زادها الله عزا وشرفا وعن جملة من أحتوى عليه مجلسك الحميد السعيد ولا زايد بحمد الله سوا الخير والعافية ونعم الله

---

61) الموافق أوت 1872 ·

62) أ· د· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 12 ·



الشكل ١٥ ـ رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد الى الوزير خير الدين حول البحث عن الكبلوتى ، ١٠ ح ٠ ت ٠ صندوق 212 ، ملف 240 وثيقة رقم 13 ٠



الشكل رقم 11 ـ رســـالة الكبلوتى الى الوزير خزندار بعد خروجه من تونس فى طريقه الى الشام ۰ ۱۰ ح ۰ ت ۰ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 12 ۰

الضافية المتوالية دامكم الله فى هنا وعافية بجاه أشرف البرية أما بعد أعليك (كذا) سيد خير ان شاء الله اننى لما صفرت (كذا) من هناك من مرصت (كذا) حلق الوادى وبلغت مالطة رجعت منها الى بيتنا شفت (كذا) أولادى لا اننى لا طقت صبر على الكبد وراني رجعت فى طاعة الدولة المنصورة نصرها الله ءامين وبلغت الى مدينة مـالطة متوجه (كذا) الى الشام بحول الله وقوته وأولادى واخوانى راهم محاجير الى المعظم الارفع الامثل الاكمل قرة عينك وثمرة فؤادك ابنك سيدى محمد دام الله وجوده لنـا ولك بجاه سيد الاولين والآخرين والسلام من خديمك ومقبل أقدامك فقير الى ربـه محمد الكبلوتى بن الطاهر آمنـه اللـه ءامين ءامين ءامين · فى 26 جمادى الثانى 1289 (65) · يجاب بأنه ان يقدم يناله الحكم ·

الثانية عشرة : رسالة أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد الى الوزير خير الدين حول الصبايحية والكبلوتى بالتراب التونسى ·

الحمد لله (64) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم ·

المقام الذى أحاطت به العناية وأنتشرت فضائله فى البداية والنهاية المقام الذى ثناؤه عظيم وجلاله خطير الهمام المفخم أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين حرسه الله تعالى بعين عنايته ءامين أما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ودوام الخير ومسراته ان مما ينهى الى شرف علمكم هو أنه أتصل بنا الاعز مكتوبكم المؤرخ فى 1 شهر التاريخ وعدده 661 المتضمن تشكى قنصل الفرنصيص من الصبايحية الذين مع الكبلوتى الموزعين على نجوع دريد بالاذن من الحضرة العلية والنهي على عـدم خروجهم من وسطهم ولا يصلوا للكاف ولا لجهات الحدود وقد صدر الآن منهم خلاف ما صدر به الاذن العلي فى أنهم يخرجون مـن وسطهم ويصلون الى جهـة الحدود ويتسوقون الى الكاف وصدر الان منكم بالمكتوب المذكور بموجب تشكي القنصل المذكور اذن لمشايخ دريد بموجب المحافظة على الاذن العلي من ابقايهم بوسط نجع دريد ومنعهم من الخروج من وسطهم لاي جهة كانت حتى ينقطع التشكي الخ مـا تضمنه المكتوب والجواب عن ذلك أنه حين اتصال المكتوب بأيدينا بادرنا بالمكاتبة لمشايخ دريد بجميع

63) الموافق سبتمبر 1872 ·

64) أ· د· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 11 ·



الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

[illegible]

والقضاية الجناب الذي [illegible] الهمام الأفخم

أمير الأمراء الوزير [illegible] خير الدين حرسه الله تعالى بعين

عنايته أمين أما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ودوام

[illegible]

الشكل رقم 12 ـ رسالة أمير اللواء مراد الى الوزير خير الدين حول الصبايحية الكبلوتي بتونس ، ا· ح· ت· صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 11 ·

ما تضمنه المكتوب المذكور وحرضنا عليهم فى ذلك غاية التحريض وأنذرناهم غاية الانذار والله ولي اعانة الجميع ولكن أعلم جنابكم أن الذى ظهر لنا أن هؤلاء الناس ليس عندهم تفريط ولا اياس فى وطنهم وهاته الامور التى تصدر منهم تجسسا على وطنهم وحذرنا على مشايخ دريد فى رد البال منهم على خروجهم من وسطهم ومنعهم من التوجه لاي جهة كانت والله المسؤول الاعانة وبقاء الستر ودمتم كما رمتم والسلام من الفقير لربه أمير اللواء مراد عامل دريد وأولاد سيدى عبيد عفى عنه ءامين وكتب فى 4 ذى القعدة الحرام سنة 1289 (65) · صح من مراد (امضاء) ·

يـوجه للوزارة الخـارجية ·

الثالثة عشرة : رسالة الامير عبد القادر الى الوزير مصطفى يتشفع منه للكبلوتى ابن الطـاهر رزقى ·

الحمد لله وحده (66) . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله صحبه سلم ·

ان أحلى ما تمتزج به كؤوس المودة وأعطر ما تستنشقه الخواطر المستعدة سلام له الود مبتدا ودعاء يرويه الصدق عن صميم القلب مسندا وثناء أعبق من شميم اللبا وألطف من نسيم الصبا أخص به حضرة انسان الفضل ومقلة أماقيه وبـارع هضبة الكمال وراقى مراقيه من زرت على المحاسن أطواقه وما اهتاجت الا للحامل أشـواقه سيادة الوزير الاعظم والامير الافخم السيد مصطفى الاكرم لا زالت الايام باسمة الثغر بمعاليه والانام حالية النحر بأياديه وبعد فقد ورد علينا من حضرتكم العلية كتـاب يروق الناظر ويسر الخاصر ويخفى عند نوره النجم الزاهر صحبة المنـال الشريف والنيشان السامي المنيف فتلقيناهما بالقبول والتعظـيم وقابلناهما بالتكريم والتفخيم اعطاء لمقامهما العلي حقه ولحسن موقعهما المتعالي مستحقه · وكيف لا وقد لاحا عنوانا على حسن النية وصفاء الطوية وتذكرة بالعهد الذى أسست عليه المودة ولا يزداد على توالي الازمان الا جده ثم بلغنا ماثلث القضية وأكد لكم فى القلوب المحبة القلبية وعطر المحافل بالاثنية والادعية وهو قبول الحضرة العلية للمهاجرين أولاد مقران فسمحت لهم بالدخول تحت أنظارها السنية والانخراط فى سلك مملكتها المحروسة المحمية فيا

(65) الموافق جـانفي 1873 ·

(66) أ · د · ت · صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 63 ·



الشكل رقم 13 ـ رسالة الامير عبد القادر الى الوزير مصطفى خزندار يتشفع فيها للكبلوتى ، ا٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 63 ٠

لها من مزية عظيمة لا يقام بشكرها ولا يزال الناس فى طيب ذكرها ثـــم أن القـــائد الكبلوتى كان خضر لطرفنا منذ شهور وهو الان عندنا يطلب شفاعتنا ٠ فالمرجو من المقام الاسمى والجناب الاسنى ان يلحقه بهم فى الادن والسكن ويشمله معهم ومـــن يلوذ به بما يفيضه من المكارم والمنن لا زالت حضرته تقلد أعناق الرجال بقلائد نعمهـا وتدبج رياض الآمال بهواطل سحب كرمها وأنتم أبقاكم اللـــه ومتـع المسلمين بطول ارتقائكم حيث أنه لم تزل عينكم فى اكتساب المحامد ممتنعة السنات وصحيفة محياكم كلها قربات وحسنات فلا نشك فى رد الجواب بطلق سراح هذا المأسور من يذ الاغتراب والله تعالى يشكر مساعيكم الحميدة وعوائد نفعكم العديدة بمنه وكرمه ، فى 2 محرم سنة 1290 هـ (67) ٠

الداعي المخلص عبد القادر الحسني ، (الطابع)

يجاب بما يناسب وأن الكبلوتى منعت من الاجابة لمطلبه موانع سياسية ٠

الرابعة عشرة : رسالة الصدر الاعظم رشدى باشا الى باي تونس حول السماح للكبلوتى بالاقامة فى تـونس ٠

الحمد لله (68) ، تعريب مكتوب من الصدر الاعظم السيد محمد رشدى باشا الى المعظم الارفع مولانا وسيدنا دام عزه وبقاءه مؤرخ فى 26 قعدة 1290 (69) ٠

من بيت المكاتيب بالنظارة
الخارجية الجليلة بالباب العـالي
عـدد 198

الى ولاية تـونس الجليلة ٠

صاحب الدولة حضرت سيدى

فقد كنا كاتبنا جنابكم العـالي بمكتوب مؤرخ فى 16 جمادى الاول سنة 1290 فى التوصية برد البال من مهاجرى الجزائر الذين أنتقلوا منها الى ولايتكم الجليلة وكنـا بينا به أسماء بعض كبرائهم منهم الشيخ الكبلوتى وفى هذه المدة الاخيرة ورد للباب

67) الموافق 2 مارس 1873 ٠
68) أ٠ د٠ ت٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 4 ٠
69) الموافق جـانفي 1874 ٠

في بيت المكاتب بالنظارة
الخارجية الجليلة بالباب
العالي
عدد
١٢٨

الحمد لله. تعريب مكتوب من الصدر الاعظم السيد محمد رشدي باشا الى الحضرة الارفع
مولانا وسيدنا دام عزه وبقاه مؤرخ ٢٦ شعبان ١٢٩٠

الى ولاية تونس الجليلة

صاحب الدولة حضرة سيدي

بعد فقد كاتبتم جنابكم العالي بمكتوب مؤرخ ١٦ جمادى الاول سنة ١٢٩٠ في التوصية
بعدد من وجهاء الجهات الذين انتقلوا منها الى ولايتكم الجليلة وكنا جاوبنا به اعلاما
بعض كبرائهم منهم الشيخ الكلبوني وفي هذه المدة الاخيرة ورد للباب العالي =
من عمال مضى من الكلبوني بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرب فيه انه بعد
ان حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمراعاة اللائقة التوطن بولايتكم
الجليلة تحت حماية دولتكم امرتموه بالرحول منها الى محل اخر بموجب طلب
قنصل فرانسه الذي هناك وما وسعه الا الامتثال لامركم السني وبلغه الان ان
جمهورية فرانسه قد اعلنت بالعفو العمومي للذين كانوا مثله واعتمد على انه لا يقع
له التعرض من الجمهورية المذكورة في المستقبل وبناء على ذلك استرحم من الدولة العليه
على الاقامة بايالتكم الجليلة امنا ومطمئنا مستريح البال هذا ومعلوم عندكم ان الحال
المذكور هو ما نحن بصدده بتعريف حضرة عليائكم بمطلبه فلا باس بمراعاته حيث
ان الحماية والصيانة في حق الواجب حمايتهم من مقتضيات الدراية لا سيما فيه
بالمعهود من شيمكم الحسنة واوصافكم الحميدة المساعدة على مطلبه مع منع التعرض
والمداخلة في شانه والارادة لسيادتكم والسلام

الشكل رقم 14 ـ رسالة الصدر الاعظم العثماني رشدي باشا باي تونس يطلب السماح للكبلوتي بالاقامة في تونس ۰ ح ۰ ت ۰ صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 4 ۰

العالي عرض ممضى من الكبلوتى بن الطاهر شيخ قبيلة الحنانشة يعرف فيه أنه بعد أن حصل له ولمن معه المساعدة التامة والمساعفة اللائقة للتوطن بولايتكم الجليلة تحت حماية دولتكم أمرتموه بالرحول منها الى مكان آخر بموجب طلب قنصل فرانسة الذى هناك وما يسعه الا الامتثال لامركم السني وبلغه الان أن جمهورية فرانصة قد أعلنت بالعفو العمومي للذى كأمثاله واعتمد على أن لا يقع له التعرض من الجمهورية المذكورة فى المستقبل وبناء على ذلك أسترحم مـــن الدولة العلية على الاقامة بايالتكم الجليلة ءامنا ومطمئنا مستريح البال هذا مضمون عرض الحـــال المذكور فهـا نحن بادرنا بتعريف حضرت عليائكم بمطلبه فلا بأس بمراعاته حيث أن الحماية والوصاية فى حق المهاجرين كمثلهم · من مقتضيات الدراية الاسلامية فالمرغوب من شمائلكم الحسنـة وأوصافكم الحميدة المساعدة على مطلبه مع منع التعرض والمداخلة فى شأنه والارادة لسيادتكم والسلام ·

الخامسة عشرة : رسالة الكبلوتى بن الطاهر رزقى الى الوزير خير الدين يطلب اعانة مالية وتوصية الى حاكم طرابلس ·

الحمد لله (70) ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم عليـــه ·

الى الجنابي الاعظم والهمام الافخم المنتخب الانجب سندي وملاذي الآمن عـلى الله ثم عليه اعتمادى الوزير الاكبر سيدى خير الدين أصانك الله ورعاك ومن شـــر الدارين وقاك وجعل الله الجنة مثواك والنار مثوى لاعداك وأدام الله وجودك لنا بجاه سيد الاولين والآخرين · السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته كثير السؤال منا عن سيادتك العلية أزادها عزا وشرفا وتفضيلا دنيا وءاخره · تعلم سيدى أننى الان مقيم ببلدة طرابلس وأريد الحرث هنا ولا وجدة طاقه وطالب الاعانة من فضل السيادة لاننى خديمك ولا عندى أحد سواك فى ذالك البـــلاد ولا فى غيرها وأيضا سيدى توصي علي وكيل الدولة التونسية بطرابلس يكون مني ببال والســلام من الفقير الى ربــــه خديمك ومقبـــل أقدامك محمد الكبلوتى بن الطاهر امنه اللــــه ءامــين ءامــين ·

فى شهر الله شعبان سنة 1292 هـ (71) ·

(70) أ · د · ت · صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 3 ·
(71) الموافق سبتمبر 1876 ·



الشكل رقم 15 – رسالة الكبلوتي من طرابلس الى وزير تونس خير الدين يطلب اعانة وتوصية ، ١٠ ح ٠ ت ٠ صندوق 212 ، ملف 240 ، وثيقة رقم 3 ٠

وثيقتــان عــن ثــورتي الاوراس لسنتي
1859 ـ 60 ـ 1879

د. عبـد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة الجـزائر

1 ـ قائمة أوليــة بأهم ثورات الاوراس خـلال العهد الفرنسي :



ان هناك كثيرا من الثورات المحليه التى رأتها مختلف مناطــق الجـزائـر خلال العهـد الفرنسى لا يزال كثـير من الجزائريين لا يعرفون عنها شيئا ، وقد كان مما فت في ساعد أبطـال تلك الثورات والقائمين عليــها ، أن انتفاضاتهم كان يعوزها التنسيق مع نواحى الجــزائر الاخرى، وهذا يعنى ان عنصر التهيئة الواسعة لها كان ضعيفا ، وقد ساعد ذلك الفرنسيين فى القضــاء عليها واخفاء كل المعلومات حولها الا ما خرج منها عن مراقبتهم بصورة اضطرارية . فنحن نعرف عن ثورة المقـــرانى وعن ثورة بوعمامة وعن انتفاضة 1945 لأن عنصر المحلية فى هذه الثورات كان ضعيفا نسبيا ، وكلماكان هذا العنصر قويا

فى انتفاضة ما كان حظ السلطات الاستعمارية فى اخفاتها قويا جدا ، وبنـــاء على هذا فنحن لا نعرف الا القليل مثلا عن ثورة بنى مناصر فى جبال الظهـرة ، وكذلك الامر عن ثورة الكبلوتى فى نواحى سوق أهراس ، وغيرهما من الانتفاضات والثـورات التى ظل عددها يتزايد بتزايد الضغط الاستعمارى على الاهالى طيلة فترة الاحتلال الطويلة ٠

ونعود لجبال الاوراس . فنجد أن ثوراتها ربما ضربت الرقم القياسى من حيث العدد ، ولكن المحتلين كان الحظ حليفهم فى القضاء على تلك الانتفاضات كلما كان عنصر التنسيق الموسع والتحضير الجيد ينقصها ٠ ولعل أهم تلك الثـورات التى رأتها منطقة الاوراس خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر هى :

أ) ثورة 1859 : وقد اشتركت معظم نواحى الاوراس بها والتحق بها المجاهدون من نواحى بسكرة وسيدى خالد أيضا ، واستمرت حوالى سنتين كاملتين ٠

ب) ثورة 1871 : وكانت بمثابة استجابة وامتداد لثورة المقرانى . وتعطينا القائمـة الرسمية بأسماء القبائل التى صودرت أراضيها بعد القضاء على الثوار فى سـنة 1872 فنجد أن كل المناطق فى الاوراس وخاصة الشمالية منها قد اشتركت مشاركة كبيرة فى تلك الثورة ، واصابها من العنت الشىء الكثير ٠

جـ) ثورة 1879 : المعروفة بثورة اللحالحة أولاد داود ، وقد اتســمت هـذه الثورة بالقضاء النهائى على قبيلة اللحالحة بكاملها تقريبــا ، كما تضررت كل المناطق الاخرى وخاصة منطقة يابوس شلية كنتيجة لتصميم الثوار على عدم التســليم وتوفر الجيش الاستعمارى على قوات للقمع كانت هائلة ٠

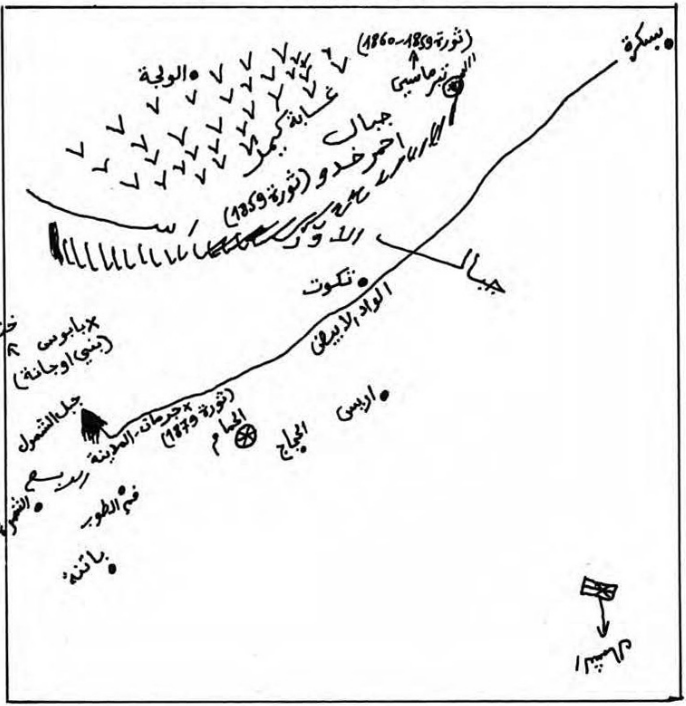
٠ د) ثورة 1911 : المعروفة بثورة أحمر خدو وقد اشتركت فيها كل نواحى الاوراس وخاصة الوسطى والجنوبية منها ، واستمرت هذه الثورة حوالى ثلاثة أشـــهر كاملة ، وزادها قوة اشتراك كل رجال الدين والزوايا فى المنطقة وتزعمهم لها ، وعلى اثرها جلب الفرنسيون مهندسى الطوبوغرافية لاول مرة فدخلوا منطقة الغابات الكبرى ورســموا مخططات لها ؛ لان جميع سكان منطقة أحمد خدو الواســعـة قد اعتصموا بتلك المنطقة خلال فترة الثورة مما كلف الفرنسيين الكثير لمعرفة خباياها وشعابها ، وتتبع الثائرين المعتصمين بها ٠

هـ) ثورة 1916 : المعروفة بثورة عين التوتة ـ أولاد سلطان، ـ وقد شملت كل مناطق الاوراس الشمالية حتى حيدوسة ومروانة بالاضافة الى معافة ونواحيها التى انطلقت منها الشرارة الاولى للهجوم على عين التوتة مركز الحاكم الفرنسى للمنطقة آنذاك ٠ وقد جرد لها الفرنسيون جيشا كبيرا من العساكر والمتعاونين الذين جلبوا من مختلف النواحى فى الجزائر . وأذاقوا المنطقة كل أنواع التعذيب والقهر ٠

و) حركة المتمردين الدائمة : ظلت منطقة الاوراس طيلة العهد الفرنسى لا تخلو من عناصر ترفع السلاح وتنزع الى التمرد ، متحصنة بالجبال المنيعة ، كان الفرنسيون وأعوانهم يطلقون على هؤلاء مصطلح « المنافقين » ، وقد اشتدت هذه الظاهرة بعد الحرب العالمية الثانية . فلا تكاد تخلو جبال الاوراس من وجود هذه الحركة بشكل مستديم قبل ذلك غير أنها اشتدت منذ سنة الخمسين ويحتوى ما تبقى بأيدينا من وثائق الحكام الفرنسيين فى كل من أريس وخنشلة على ملفات عديدة لرجال هذه الحركة والمجهودات الفرنسية لتتبعهم ، وكذلك الاموال الطائلة التى كانت تعتمد كاغراء لمن يرشد الى القاء القبض على رجالات هذه الحركة أو يأتى بأحدهم حيا أو ميتا ، وكل واحد منهم كان لرأسه سعر معين فى تلك الاعتمادات ، وحينما اندلعت ثورة 1954 الكبرى كان رجال هذه الحركة وفى مقدمتهم الشهيد المعروف بلقاسم قرين الذى يتشرف اليوم أحد الشوارع الكبيرة فى عاصمة الاوراس (باتنة) بحمل اسمه الخالد ، فى مقدمة المنصهرين فيها ومن أوائل شهدائها الميامين ، وذلك فى معركة (عين الطين) المهيبة ، التى كانت من بين أولى المعارك الكبيرة التى استفتحت بها الاوراس عهد ثورة نوفامبر العظيمة ، سواء فى النطاق المحلى منذ البداية أو على المستوى العالمى والافريقى بعد ذلك ٠

وبما أنه ليس فى الامكان اعطاء التفاصيل عن هذه الثورات العديدة لمنطقة الاوراس طيلة العهد الفرنسى ، فانى أريد فقط أن ألفت الانتباه هنا الى وثيقتين أهليتين هامتين تتعلقان بانتفاضتين من بين تلك الانتفاضات ، وكان لرجال الطريقة الرحمانية حسب منطوق الوثيقتين دورهم فى تأجيجهما ٠ وقبل الحديث عن هاتين الوثيقتين فانى أريد أن أسجل امتنانى لصديقين مكنانى من الاطلاع عليهما ، وهما : الاستاذ محمد الامير صالحى

مخطط المواقع المذكورة في الوثيقتين



مفتش الادارة الدينية فى باتنة ، والنقيب درنونى ، الاستاذ بالمدرسة العسكرية لمختلف الاسلحة فى شرشال ٠

2 ـ الوثيقة الاولى : انتفاضة 1276 هـ (1859/1860 م) فى كتاب « حكمة المغانم » من تأليف . ابراهيم بن أدهم

عرف المؤلف بنفسه فى المقدمة بأنه (الشيخ ابراهيم بن أدهم بن محمد الصادق بن الحاج ابن منصور نسبا ، أحمر خدو منشأ ومولدا (وديارا وسكنا) ٠ (1)

أما الكتاب فقد ذكر المؤلف أنه سماه (حكمة المغانم فى البلوى فى جميع النعائم) ٠ وهذا الكتاب فى معظمه شروح وتفصيلات فى الفرائض والسنن والاشـــادة بالطريقة الرحمانية التى يصفها المؤلف بـ (الطريقة المستقيمة السالكة الجادة) (2) ٠

ويقع المخطوط فى 152 ورقة ، 24 ســـطرا لكل ورقة ، خط مغربى واضح . وهو يحتوى على كثير من الادعية والذكر ، وينسب المؤلف لابيه الكثير من الكرامات ولطريقته الكثير من الصلاح والخفة والاستقامة على حد تعبيره ٠ ويسوق المؤلف لابن العربى والغزالى وابى موسى الاشعرى والحسن البصرى الكثير من التفاسير والاقوال التى تثبت آراءه فى الكرامات والتصوف وتدعمها ٠

ويشير المؤلف فى ثنايا الكتاب الى أن أباه كان قد اشترك (على سبيل الجهاد) حسب تعبيره فى ثورة 1859 التى شملت منطقة الاوراس الجبلية بكاملها ، ثم ألقى عليه القبض ونفى الى الجزائر العاصمة حيث أودع السجن بالحراش ، ويصف المؤلف سجن الحراش بكونه كان يحتوى على المجرمين وقطاع الطرق ، ورغم ذلك فقد سجنت فرنسا أباه به ، ونقلت أولاده وكثيرا من أتباعه الى كورسيكا ٠ ولا يعطى المؤلف التفاصيل الكافية عن مصير أولئك الذين نقلوا الى خارج الوطن ، ولكنه يسهب فى الحديث عن أن أباه عنـدما أطلق سراحه بعد سنتين من السجن رجع الى الاوراس ، وأثناء طريقه الى مسقط رأســه وزاويته فى تبرماسين ، مر بالمسيلة وبسكرة حيث تجمع حوله أتباعه الكثيرون ورافقوه

(1) أنظر : الخريطة عن موقع أحمر خدو فى قلب جبال الاوراس .
(2) ورقة 2 .

وأكرموا وفادته . ويعطي المؤلف لتلك الثورة تاريخ سـنة 1276 هـ (1859/60 م) . والمعروف أن تلك السنة كانت قد شهدت تمردا شـمل جميع جبال الاوراس ومدنه وقراه . وتزعم تلك الثورة رؤساء وشيوخ الطريقة الرحمانيـة بالمنطقة . وقد نكل بهم بعد فشل تلك الثورة . وهرب بعضهم الى الجريد بالجنوب التونسي (1) .

3 ـ الوثيقة الثانية : ثورة 1879 وبعض حوادثها كما تثبتها وثيقة من ذلك العهد :

كانت ثورة الاوراس لسنة 1879 من الثورات المهمة التي شهدتها المنطقة . وكان من ورائها أتباع رجال الطريقة الرحمانية من أحمر خدو (تبر ماسـين) . وكان من أبرز حوادثها هي المذابح التي تعرضت لها قبيلة أولاد داود اللحالحة ، الذين يسكنون المنطقة المعروفة بـ (الحمام) بين أريس والمدينة . وقد جردت عليهم فرنسا جيوشا جرارة وأبوا الاستسلام ، وهربوا أمام اشتداد الحملات عليهم الى منطقة يابوس . وتضرروا كثيرا غير انهم لم يقبلوا بالاستسلام ، ثم دخلوا الغابة الاوراسـية الكبيرة بين كيمل والولجة فتابعتهم الجيوش الفرنسية ويقال : ان أكثرهم مات جوعا وعطشـا وخاصة الاولاد الصغار ، ومنذ ذلك الحين فقد معظمهم ولم يبق في منطقتهم المعروفة بالحمام الا قليل من الافراد حتى الآن .

واذا كانت حوادث تلك الثورة قد ذكرت في الوثائق الفرنسـية لماما ، فان الوثائق الجزائرية الاهلية حولها قليلة جدا . ان الوثيقة التالية تعطي بعض المعلـومات عن تلك الثورة . ونظرا لاهمية هذه الوثيقة واختصارها النسـبي فاننا نترك للقارىء الكريم الاطلاع بنفسه على محتواها كاملا . واستكناه هوية صاحبها .

نص الوثيـقة :

وبعد أن فتنة عرش أولاد داود وقعت في سنة 1879 والمتسبب في اضطرام نارها هو المسمى محمد بن محمد الصالح بن عبد الرحمان عمره 30 (1) من عرش بني بوسليمان فريق أولاد جار الله كان ساكنا بقرية الحمام احدى قرى أولاد داود وهو من اخوان (2)

(1) يحتوي أرشيف فرنسا لما وراء البحار الموجود في مدينة بروفانس على وثائق عديدة بأسماء الذين نكل بهم ونفوا الى فرنسا والى كايين ، نتيجة اشتراكهم في هذه الثورة

(1) كتبت هذه العبارة بين السطرين

(2) المقصود هنا ـ الاتباع بالمعنى الطرقي الصوفي

سى ابراهيم بن سى الصادق بن الحاج طريقته رحمانية وأول من اغــواه من أولاد داود فرقة اللحالح (3) وهم أهل القرية التى هو ساكن بها وهى قرية الحمام وبث فى قلوبهم الوساويس وطبعهم ببغض الدولة وأملى قلوبهم غيرة على دينهم ونشر فيهم المواعظ المشتملة على الترغيب والترهيب فى ايقاد نيران الفتنة فأنصت اللحالح الى وساويسه واجتمعـوا فى دشرة (4) الحمام المشار اليها أعلاه التى نسبت اليه الفتنة . فعندما بلغنى خبرهم من بعض أقاربى بادرت حينا بالذهاب الى قايدهم وقتئذ وهو المسمى سى محمد الهاشمى بن السيد أبو الضياف ووجدته نازلا بفسطاط بالموضع المسمى العناصر باعلى المدينة بجبل أولاد داود وقت الضحى وخبرته بما بلغنى مّن اجتماع اللحـالح مع المفســـد المذكور وشاورنى فيما نصنعه من الحيل فى تحصيل المفسد المذكور وأمرته بأن نكلف المشـــايخ جميعا ليأتوا به حينا الينا لكون اللحالح لا يقدرون وقتئذ على قتـــال أولاد داود كافة . وخالف أمرى وأرسل زوج (5) من خدامه وهما سى محمد شوشان غلام أبيه ، وعمار بن عبد الله ، فلما بلغا الدواير (6) الى شيخ الفرقة (7) ، وهو المســـمى محمد بن عثمان أمرهما بالرجوع حتى يجتمع عليه كافة العرش لكى يجد الفرصة فى قبضه . أما عمار بن عبد الله (فقد) (8) امتثل لامره وأما محمد شوشان (فقد) امتنع ، وقدما اليه ومعهما الشيخ المزبور فلما بلغوا الى دار المفسد المذكور وجدوا عماله واقفين على بابه منهم على بن عمار بن أحمد أسن وسى بلقاسم بن بلخير ومحمد بن عمر (9) ... وأطلقوا عليهما ، أما عمار بن عبد الله (فقد) أصيب برصاصة فى رأسه وسقط من أعلى ظهر جواده ومات حينا ، وأما سى محمد شوشان (فقد) انجـــرح جـرحا خفيفا وهرب الى مدشر الحجاج

(3) بفتح الحـاء الأخيرة
(4) أى قرية الحمام
(5) أى اثنـــين
(6) أى أعـوان البـلدية
(7) أى القبيلة
(8) لا توجد (فقد) فى الاصل وأضيفت هنا لتستقيم العبارة
(9) عبارة انمحت من المخطوط

واختفى فى دار الباش عدل ابن عمنا وهو سى معيوف بن سى عبد الحفيظ الذى قتل مع بن عباس فى وادى الطاقة حسبما يأتى الكلام عليه . فلما وقع ذلك رجع الشيخ المسطور هاربا الى بيته بقرب قرية الحمام وركب على فرسه من غير سرج ومعه ابن عمه المسمى الطيب بن عمار راكبا على فرسه من غير سرج أيضا . فبينما نحن ننتظر الخبر واذا بالفارسين المذكورين أشرفا علينا ووجههما مطليان بالحموم (10) وأخبرانا بالواقع . واتفقت مع القايد المذكور على أن نركب جوادى ونجمع جميع من هو فى طاعتنا من عرش الزحاحفة الساكنين بالعناصر وجرمان ولعله يعيننا الله على المفسدين . ووافقنى لذلك وركبت جوادى وتقلدت سلاحى وجمعت من كان حولنا من الرجال من عرش الزحاحفة منهم على بن المبارك بن أحمد بن عيسى وعمار بن محمد بن تازروالت ولفيف من الناس يطول علينا ذكرهم كلهم من عرش الزحاحفة يكون مبلغ عددهم نحو الثلاثين رجلا . فلما بلغت بهم جرمان بالموضع المسمى عين بال عيسى بقرب دار عبد الله بن الصالح ، واذا بالمنافقين (11) أشرفوا علينا وامامهم معهم والجميع على خيول الخدام المذكورين أعلاه فى نحو العشرين فارسا ومثلهم رجال متقلدون بآلة حربهم ، فلما رأيناهم هرب جميع من معى وبقيت فريدا لا واحد معى سوى الله تعالى ، وكان بينى وبين رفقائى أى القايد ومن معه من الخدام نحو الاربع كيلو مترات ، وكان بينى وبين العدو نحو من نصف كيلو متر .. وعرفونى معرفة تحقيقية وبادرونى بالضرب بالرصاص ونجانى الله من كيدهم وأثنيت العنان للجواد نحو رفقتى هاربا طالبا النجاة وهم فى أثرى بخيولهم وأميرهم معهم يغريهم على قبضى ولم يلحقوا بى ووصلت الى القايد ومن معه وأمرتهم بالركوب والفرار بأنفسنا وعارضنا بعض من كان هناك من أناس الزحاحفة ولم نصغ لقولهم وتوجهنا هاربين الى الربع (12) أنا ومعى القايد وهو سى محمد الهاشمى المزبور وابن عمته سى بولحرام بن أحمد بن الحاج . وابن عمنا سى معيوف بن سى عبد الحفيظ الباش عدل . والعدو فى أثرنا .

(10) السواد

(11) أى الثائرين (هذه العبارة يبدو أنها من اختراعات مكاتب الشؤون الاهلية لأننا لا نجدها فى معظم الوثائق الصادرة عن أعوانها)

(12) اسم مكان

فلما بلغنا الى الموضع المسمى عين أيوب . يكون بينه وبين العناصر نحو الثلاث كيلو مترات وقف جوادى لما حل به من كثرة الجرى ، وعزمت على النزول لافر على قدمى . فبينما أنا متحير فى أمرى ... (13) الى ان بلغنا قرية الطوب المقاربة لرسم بنى اوجانة ، ورجع علينا العدو (14) ، فعند ذلك سرنا فى اختيارنا . فلما بلغنا الربع وجدنا السيد أبى الضياف بن محمد قايد بنى وجانة فى ذلك الوقت ، وصاح بى أنا الاول دون رفقائى لما بينى وبينه من الصدق والمودة مع أنى كنت متوليا جميع أمره بأولاد داود وقت قيادته عليهم نحو الاربعة عشر عاما ، ولذلك سألنى أنا دون رفقائى وأخبرته بالواقع المشار اليه أعلاه ، وبادر رحمه الله تعالى بدواة وقرطاس وكتب جوابا (15) لسعادة السيد القبطان ... (16) مع جواب ثان لسعادة السيد الجنرال لوجروا الحاكم على عمالة باتنة ونواحيها وردا (17) اليه الخبر مع سعادة السيد اليوطنه كوربوا ومعه الصبايحية منهم سعد بن الزرارى ، وعبد الله بن عمار . وأخوه الطيب بن عمار والاخضر بن النقيش ، وابن عاشور . بأن يذهبوا جميعا الى العناصر ويختبروا الامر على الصحيح ، وانقاد لامره وسار هو وولده المذكور وابن عمه سى محمد بن سديرة قايد عرش العشاش وقتئذ وأولاد عمه الطيب وهما المحبوبى بن الطيب ، ومحمد بن الطيب ، وصديقه يزيد بن الطاهر بن العربى الزمولى وجميع خدامهم مع فرسان العشاش وأولاد فاضل يكون عددهم نحو السبعين فارسا على التحرى ، وفى ذلك اليوم الذى سرنا من الربع بلغنا خبر بقتل السيد مصطفى بن باش تارزى قايد أحمر خدو وبنى بوسليمان ، قتله المفسدون فى برجه بتكوت ، وتمادينا على المسير وتلاقينا مع سعادة السيد اليوطنه أمبروجى فى بلاد يابوس وتغدينا جميعا هناك ، وانصرفنا من عنده على الساعة بعد الزوال (18) ونزلنا بالعناصر

---

(13) ثلاثة أسطر ذكر فيها الكاتب أن أحدهم قد ساعده بالتنازل له عن فرسه فهرب بها
(14) أى تراجع الثوار عن ملاحقتنا .
(15) أى رسالة
(16) اربع كلمات غير واضحة فى النص الاصلى من بينها وفى أولها الاسم الشخصى للقائد الفرنسى المذكور (القبطان كذا ...)
(17) أى أبلغوه الخبر
(18) لعله يقصد الساعة الواحدة بعد الزوال

على الساعة الرابعة عشية . وبلغنا جواب من المفسد (19) المزبور . مضمونه الى سى بو الضياف بن محمد بعد السلام فلا بد منك أن تحذر عرشك مني وتأمرهم بالانقياد والطاعة الى وأن تكون من جملتهم والا فلا تلوم الا نفسك . فلما قرأه استغاض وشـخر ونخر وتمنى القتال له ولمن معه حينا غير أننا حال بيننا وبينهم سواد الليل ، وعمـد الى دواة وقرطاس وأمرنى لنكتب جوابا الى كبراء اللحالح مثل محمد بن أحمد بن اتقلفنت الذى كان شيخا وعزل مع شيخهم ومن معه لنوعظهم ونهددهم على ان سطوة الدولة جايرة لا يعز عليها أحد من المعتدين وأنها رحيمة للراجع عن عصيانه وتأتوا بالمفسد ولا عليكم حرج . ووافقته لما أمرنى به ، وأرسلنا ذلك الجواب مع المسمى سـليمان بن عمارة مع عرش الزحاحفة فريق أولاد سى قاسم . فبينما نحن منتظرون لرد الجواب منهم الى ثلث الليل الاخير ، واذا بالبارود قد تكلم من العسة التى رتبناها بعيدة منا على نحو الكيلو متـر وعمدنا الى السروج لنسرج خيولنا ونقاتلهم . ركبنا ومعنا فى ذلك القايد المرحوم خشية من هروب الاوباش من أولاد فاضل ، ولم تنفع فيهم تلك الحيلة وهربوا جميعا ، ولم يبق منهم سوى رجلين ، واحد يسمى الصالح بن ابراهيم كان شيخا وجرح من فخذه الايمن جرحا خفيفا ، وواحد يقال له عبد السلام بن افجويل فى عمره 30 قد قتل وشبهوه على ومثلوا به أعظم مثلة من جملة ذلك قطعوا يديه وشقوا بطنه وقصوا لسـانه وذلك كله يدرونه أنا لمخالفتى لتعديتهم وانكارى عليهم فسادهم بقريحة القلب . ولنرجع لما نحـن بصدده . فلما فر أولاد فاضل ومن معهم من الاعشاش وبقى القايد ومن معه من أقاربه والسيد اليوطنه وطباخه رودومينيك وسيموا وصديقه المسـمى بوزيد بن الطاهر بن العربى الزمولى . والميلود العمرى من سكان الشمرة مع الصبايحية وخدام القياد ، واذا بالعدو أشرف علينا . فأول من تلقاه القايد المرحوم الحى القيوم السيد أبو الضياف بن محمد وبيده بندقية كبيرة ذات جعبتين المعبر عنها بالفوشى ، وضرب الاول وصرعه والثانى كسره الى ان قتل منهم نحو العشرة رجال وجرح أزيد من الخمسـة عشر رجلا فرجعوا القهقرى ولم يطيقوا الدخول الينا . فبينما نحن ... (20) واذا بوجه بارود (21) تكلم

(19) اى الثـائـر
(20) كلمة انمحت من المخطوط
(21) اى طلقة بندقية

بعرب الزمل ، واذا بالقايد سقط ولم نلحق بروحه ، أخذها برصاصة على ضلعته السفلى من جهة الشمال ... (22) ظهـــره ، ورفعناه الى دار هناك وكتمنا موته لئلا يهجم علينا العدو ، بينما نحن كذلك واذا بالعدو حمل حملة ثانية وأردفه الصبايحية وجميع خدامه مع السيد اليوطنه المذكور وطباخه وزوج فرنساويين ، واحد يسمى دومينيك والآخـر يسمى سيموا ومعه ابنه صغير . وقتل فى تلك الصدمة طباخ السـيد ... ... (23) وأصيب الطيب بن عمار فى بطنه ضربة أفضته القتل بعد يومين ، وقتل أخوه عبد الله بن عمار ، وقبضوا على سعد بن ... (24) فبينما نحن واقفون واذا بوجه بارود تكلم بقربنا ولم نعين ضاربه ، واذا بالقايد قد سـقط فى الارض ، ولم نلحق بروحـه ، وأصيب برصاصة صغيرة فى الضلعة الصغيرة من جهة الشمال ، ولمست موضع الجـرح ودللته بأنملة سبابة يسراى ولم تدخل فيه ، ولعله مات ببندقية ذات سنة جعب . وكتمنا موته لئلا يهجم علينا العدو ورفعناه الى الدار بقربنا ورآه طباخه يسـمى كاكا المعافى وعرفه وصاح بالويل والثبور يا سيداه قد قتل وسـمع العدو تلك المقالة ، وحمل علينا حملة صادقة واغتنم الفرصة فينا ، وقتل فى تلك الصدمة منا فرنساوى كان طباخا للسـيد اليوطنه كوربوا ، وعبد الله بن عمار الصبايحى وأخوه الطيب بن عمار أصيب برصاصة فى بطنه ومات بها بعد اليومين ، ومات دايرة السيد أبو الضياف (25) يسمى على بن عمر من بنى وجانة ، وجرح الصالح بن ابراهيم شيخ أولاد فاضل وقتل عبد السلام المذكور أعلاه ، وقبضوا سعد بن الزرارى الصبايحى وضربه ضربة واحدة بالسـيف على زنده اليسرى ضربة دامية أفضته الى التعطيل . فلله در فرنسيين وهما المسـميان دومينيك وسيموا أنهما ضربا ضربا وجيعا ولم يجدا النصرة ، فعند ذلك اجتمع القايد محمد بـن سديرة وسى محمد الهاشمى بن بوالضياف والمحبوبى بن الطيب وأخوه محمد بن الطيب مع سعادة السيد اليوطنه كوربوا ، وركبوا خيل الدواوير وهربوا وبقيت أنا وحـدى

(22) كلمة انمحت من المخطوط
(23) سطر انمحى من المخطوط
(24) شخط الكاتب على كلمة هنا ولم يعوضها
(25) ى عـونه

في وسط العدو ولم يعـــرفوني لاني متنكر في لباسي مع أنهم يدرون (26) أنا المقتــول المذكور ، وبادرت الى الفرس التي أعارها الى اللحلوحي أول مرة وحليت عليــها القيود وأسرجتها وركبتها ، وبمجرد استوائي على ظهر الفرس عرفوني وهمزت الفرس بالركاب وأطلقوا على الرصاص ونجاني الله من كيدهم بعد ما سقطت بين ربعهم . واستفــززتها وقامت بحمد الله سالمة صحيحة وتقفوا أثرى الى أن دخلت الجبل المسمى تيسوراس بينه وبين موضع القتال نحو الثلاث كيلو مترات فرجعوا عنى ، فبينما أنا أسير واذا بأربعـة فرسان وهم المسمون الطاهر بن بوزيد بن الطاهر بن العربي الزمولي أحد أصدقاء السيد أبو الضياف ، والثاني هو المسمى الميلودي المعمزي من سكان الشـــمرة . والثالث هو المسمى محمد بن عمار بن سعيد بن عبد الله ، وأحمد بن خلاف ، والاثنان من عرش أولاد داود فريق أولاد والزه ، وتمينا هاربين الى أن بلغنا الى الموضع المسمى تاحمامت يبوس ووجدت بن عاشور الصبايحي هناك وطلبت له بغلا من أولاد مفرج الســـاكنين بيابوس وركبته وذهبنا جميعا الى الربع ، أما سعادة السيد اليوطنه وسى محمد الهاشمي (فقد) قدما الى باتنة ، وأما أنا (فقد) بقيت بالربع ، وفي صبيحة ذلك اليـــوم رفع ابن عمى المسمى سى عبد الحفيظ ابن سى احمد جثة القايد السيد أبو الضياف على بغلتي وأتى به الى الربع ونزلته على البغلة وأدخلتـــه في بيت من برجه الكاين بالربع . وبقيت عساسا عليه ليلتين ويومين ولم يأتني أحد ، وفي اليوم الرابع من موته أتاني كفنه من باتنة صحبة خديمه المسمى أحمد بن ضيف الله ودفناه في الموضع المسمى الحباسي في مقبرة جدوده ، وفي الليلة الثامنة من واقعة العناصر هجم المفسدون على برج وادى الطاقة وقتل فيه ولد السيد محمد بن عباس قايد اولاد عبدى وخدامه وابن عمنا سى معيوف بن سى عبد الحفيظ الباش عدل ، وفي عشية ذلك اليوم أمرني سعادة السيد الجنرال لوجروا وجميع من كان معنا من الزمال (●) بالذهاب الى الشمرة لما بلغه من الخبر أن المفسدين سيهجمون على برج الشمرة ، وبلغنا الى الشمرة وقت الساعة التاسعة ليلا في هناء وعافية ، وفي صبيحة

---

(26) اى يظنون او انهم كانوا يعتقدون

(●) الزمالة مكان التجمع للمقاتلين - والزمال هنا من الزمالة

ذلك اليوم ... (27) الى الربع ، ووجدت سعادة السيد القبطان آش بالربع ، معينا هو الذى يعس هناك وبقيت عساسا معه فى الليل والنهار . ويأتينى الخبز من عند أهلى من أوراس على عودة المفسدين حتى نزل علينا سعادة السيد الكومندان نوبل بالجنود العسكرية ، ومكثنا نحو الاربعة أيام أو خمسة واذا بالمفسدين قد أصبحوا علينا بالربع وقت سدس الليل الاخير . وأنا فى تلك الليلة عساس ومعى أحد الصبايحية يسمى اليوطنه العربى من خيالة باتنة ، وضربناهم بالبارود ودخلنا الى المحلة ووقع القتال بين المفسدين وعسكر الترايور الجزائرى وصارت الغلبة لجنود الدولة وانقلب المفسدون على أعقابهم خائبين ومات منهم خلق كثير بقرب المحلة ، فلما طلع النهار حمل المفسدون حملة ثانية على خيولهم ، فأول من خرج الى قتالهم سعادة السيد قبطان آش ومعه صبايحية البيروعرب وشرذمة من خيالة السيد الكومندان نوبل يكونون نحو الستين فارسا وحملوا حملة صادقة وأفشوا فيهم القليل وهرب المفسدون الى الجبل طالبين النجاة بأنفسهم ، فلما افترق الجمعان كل واحد رجع لمكانه أمرنى سعادة السيد القبطان آش المذكور باحصاء القتلة من المفسدين وجلت على جثثهم واحدة بعد واحدة واطلعت على مائة واثنى عشر نفسا من أبطالهم . البعض أعرفه والبعض لا معرفة لى به ، وبعد فراغى من احصاء الاموات تلاقيت مع أربعة من خيالة الدولة وركنت اليهم لما فى قلبى من الاركان للدولة ، وعند ظنى لا يكذبوننى فى قولى ، ووجدتهم قد قبضوا رجلين من المفسدين واحد نعرفه معرفة تامة وهو المسمى بال بن بيا من أولاد داود فريق أولاد والزه من سكان قرية يوسداح ، والآخر من بنى أوجانة لم نعرفه وسألت عن نسبه وقال لى انه من بنى أوجانة فريق أولاد أوصيف ، الاول فى عمره 35 على التحرى ، والثانى نحو الستين عاما ، ونزلونى عن الفرس ، وشدونى وثاقا ونزعوا لى آلة حربى مثل البندقية والسكين ، وقادونا جميعا الى أن أوقفونا الثلاثة لدى سعادة السيد الكومندان نوبل واستفسرنا الثلاثة فى نازلتنا ، أما الاثنان المذكوران (فقد) عجزا عن النطق لما اقتحموه من الذنب ، وأما أنا جاوبته بأمرى من أوله الى آخره ، أما الاولان الاثنان أمر بقتلهما حينا ، وأما أنا (فقد) أمر بأن يشدونى وثاقا حتى يستفسر على أمرى ، وأرسل لسعادة القبطان آش نازلا بقربه

(27) كلمة انمحت من الاصل ، ولعلها ذهبنا أو ذهبت

بفسطاطه وحضر لديه حينا ، فلما استفسره فى أمرى نظر الى وعرفنى ولم يتمالك حتى بادر الى قطع الوثاق وبكيت فى وجهه وغرغرت عيناه بالدموع رحمة لما حل بى من المكيدة على غير قصد من الجانبين . فعند ذلك تجمعت بالسادات المذكورين ، وهما سعادة القبطان آش وسعادة السيد الكومندان نوبل ودفعتُ لهما جريدة محتوية على احصاء جثث القتلى من المفسدين ، وحمدنا الله جميعا ؛ أنا حمدته على خلاصى من تلك الورطة ، وهما حمداه شفقة على وتخليصا من الغلطة فى قتل خادم الدولة ، وبقيت من تحت يد سعادة السيد القبطان المذكور وفى نظره أين يأمرنى أتوجه الى اليوم الذى ارتحلت الجنود من الربع الى جبل أولاد داود وعيننى سعادة السيد قايد على خيالته . أما سعادة السيد الجنرال ومن معه من الجنود والخيالة (فقد) هجموا على قرية الطوب ونواحيها ، وأما سعادة السيد القبطان المزبور ومن معه من الصبايحية والقياد وخيالاتهم (فقد ذهبنا) تعرضنا للهاربين من العدو على طريق أسلاف الى ان بلغنا تيبكاوين وأنا أكاشف الطريق أمامهم ، فلما بلغنا الى تيبكاوين ولم نجد أحدا من العدو أمرنى سعادة السيد القبطان بأن نختبر الطريق المارة على جبل بوييلف بأعلى قرية الطوب . ووافقته لمطلوبه غير أننى رغبت منه أن يعين لى فرسا من جياد الخيل لاركبها وأذهب ، فوافقنى فى مقصودى ... (28) من خيالة سى احسون بن باش تارزى ، وركبتها وكشفت المكامن ولم أجد خاطرا قط ، فلما رجعت اليهم ووجدتهم قد رجعوا على أعقابهم ولحقت فى أثرهم وأرجعتهم وأنا أمامهم ومعى سعادة السيد القبطان وواحد من خيالة البيروعرب يسمى موسى السلطانى الى الآن فى قيد الحياة ، والى أن بلغنا قرية الطوب ووجدنا القرية مدخولة وأضرم العسكر فيها نارا وقتل من المفسدين نحو الثلاثة رجال أو أربعة ، وبتنا تلك الليلة بقرب قرية الطوب ، وفى صبيحة غد عيننى سعادة السيد القبطان قايد على جميع الجنود وصرت أسير أمامهم الى ان بلغنا المدينة ونزلت المحلة (29) . وفى وقت الساعة الثالثة عشية بلغنا خبر من رجل من المنافقين (30) اسمه لخضر بن عمر بن سعيد من دوار الزحاحفة بأن المفسد قد هرب هو ومن معه من المفسدين وبقت قرية الحمام خالية ، وركب سعادة السيد القبطان المزبور

(28) كلمتان انمحتا من النص
(29) أى مجموعة العساكر
(30) الثائرون

ومن معه من القياد وخيالاتهم والبعض من خيالة الدولة وعينني أنا القايد عليهم أكاشف الطريق أمامهم لان الطريق في وسط الغابة من شجر الكروش (31) والصنوبر والطاقة وغير ذلك من الاشجار ، فلما بلغنا الى قرية الحمام ولم نجد بها أحدا سوى عجوز كبيرة السن عمياء من أناس اللحالحة ، وأمر السيد القبطان باضرام النار في الدشرة واحترقت حينا (32) ورفعنا تلك العجوز ورجعنا غانمين سالمين الى مباتنا مع المحلة . وفي صبيحة ذلك اليوم استأذنت من سعادة السيد القبطان ليذهب معي الى سعـــادة السيد الجنرال ديفزيون ليأذن لي في الذهاب الى أهلي لحمايتهم من المنافقين ، ولم ياذن لي في ذلك غير أنه كتب الى كارطة مرسوما عليها (33) وأن حاملها من المطيعين للدولة لا يتعرض له أحد ، وأمرني لنمكنها لابن عمي ويذهب بها الى الاهل ويرحلهم من وسط المفسدين ، ودفعتــها لابن عمي المسمى سي عبد الحفيظ بن سي أحمد وأمرته ليرحل الاهل ويقصد بهم الى الربع ليستقروا في برج المرحوم القايد السيد أبو الضياف . وفعل ما أمرته به ، وسار بجميع الاهل والاولاد وما ملك الله لنا من الحيوان والبغال والاثاث والبيوت وما احتوت عليه ، فلما بلغ أثناء الطريق للموضع المسمى تيسفيفين بقرب آفرا بتراب أولاد داود تصادفوا مع أناس أولاد عبدي كانوا يرصدون السائرين من العدو، وهجموا عليهم وأخذوا لهم جميع ما بأيديهم من الحيوان والبغال والحمير والبيوت وما احتوت عليها من الاثاث والآلات والسلاح ، وعرضوا عليهم كارطة سعادة السيد الجنرال فلم ينظروا اليها قط ، وأنا في ذلك اليوم مع سعادة السيد القبطان بمدشر الحجاج ، واذا بابن عمي قد أتاني وأخبرني بما وقع لهم من أولاد عبدي . وأنزلوا أبي عن البغلة وهو كبير السن في عمره ســبعون عاما كما أنه أعمى لا يبصر شـــيئا وتركوه في فلاة من الارض وهرب عليه الاهل طالبين النجاة بانفسهم الى الربع وتركوه في موضعه ، فلما أخبرني بذلك أخبرت سعادة السيد القبطان المذكور وقدم معي الى سعادة السيد الجنرال ديزفوا فاركب معي عشرين فارسا وبغلة ومعها ربها فلما بلغنا الى أبي وجدته في جهـد من العطش وأركبته ورجعت به الى

(31) البلوط البــرى

(32) لا يزال رماد القرية يعرفه الناس حتى يومنا هذا

(33) أي وثيقة مكتوب فيها

الحمد لله وحده … صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله … نسابة [illegible]

… بالمواضع … [illegible]

حي ا

وبعد فإن … الأنساب من أصلها … المسمى

… ابن عبد الرحمن … شريف … سليمان … وجاء الله … واحد

… داود … وهو من أخوان … ابراهيم … الحاج … وأول …

… داود … العالم … أهل القرية التي … الحاج …

في قلوبهم … الوساوس … الدولة وأملى قلوبهم … ويخشى فيهم المواعظ المشتملة

على الترغيب والترهيب … أصلحوا الحال … واجتمعوا

… التي … الفتنة … خبرهم

… الذهاب إلى … وهو … إلى …

… الموضع المسمى … على …

… بما … اجتماع … المعهد … فيها

… داود … المعهد المذكور وأمرته … جميع … الحاج

من الجيل … بقدر … على قتال … وأرسل … وهو …

… فلما بلغنا الله … العرفة وهو المسمى محمد بن عثمان …

… عبد الله … فيضه … الأمر …

بالرجوع حتى يجتمع عليه …

[illegible]

… أما …

وأما … الجماعة … خرجا … إلى … الحاج واحتجب …

… عثمان … ابن عباس …

… فلما وقع ذلك رجع الشيخ المذكور … الحاج

… على … وجه من غير سرج …

… الخير … الذي … علينا …

… والخبرونا بالواضع … المذكور … جواد … وجمع

جميع من هو … الحاج … عشاء … وأعلم

… الله على … وتغلبت … وجمعت

من … الرجال … الحاج … المبارك …

… الناس … الحاج … عدد

… الموضع المسمى … الموضع المسمى …

… الحاج … علينا … نحو العسكر …

رجال … جميع … واحد …

سوى الله … نحو …

المحلة وأرسلته الى الربع واجتمع مع الاهل هناك ، فعند ذلك سل خاطرى سعادة السيد الجنرال بأن كل ما ضاع لى تخلفه الى الدولة الفرانساوية وكتب إلى سعادة السيد الجنرال ديفزيون جوابا الى قايد أولاد عبدى ، وهو المرحوم السيد محمد بن عباس يأمره ... (34) وكلفت ابن عمى بالذهاب به ، وهو المسمى سى بلقاسم بن سى أحمد الذى هو خوجة الآن (35) بدوار رأس الذراع وأمره بالرجوع اليه فى مدة ثلاثة أيام بالرد أو عدمه ، فلما بلغ اليه وناوله الكتاب وقرأه صار يلهيه حتى جاز الاجل وقال له اننى دفعته للبايلك (36) ورجع الى خائبا واشتكيت اليه ثانيا ، ووبخ سى بلقاسم على تعطله فوق ثلاثة أيام ، وأمرنى باحصاء ما ضاع لى من حيوان وأثاث وآلات وزرع وندفعه له ولعل الدولة تخلف على ما ضاع لى وجردت جميع ما ضاع لى من غير زيادة ولا نقصان ، وصار مبلغ ذلك اثنى عشر ألف فرنك وأنعمت على الدولة الفرانساوية بثمانية آلاف فرنك واستكثرنا خيرها ، ثم بعد ذلك أنعمت على بوضيف المشيخة بكمين أوراس ، دوار بعلى حكم باتنة عمالة قسنطينة ، ونطلب من الله أن يحن علينا قلوب الولاة ويرزقنا بالعافية التامة آمين ، كاتبه محاية الصالح ابن عمر شيخ دوار بعلى واثلاث وفقه الله آمين .

4 - ملاحظات هامشية حول مدلول الوثيقتين :

1 - عرفت جبال الاوراس الشامخة طيلة أيام الاحتلال الفرنسى بثوراتها المتتالية ، وكثير منها لم تنلها عناية المؤرخين بما تستحقه من الاهتمام والتحليل اللازمين بعد ، كما عرف رجال الطريقة الرحمانية فى أيام صفائها ، والتى كانت منتشرة فى معظم مناطق الشرق الجزائرى خلال القرن التاسع عشر بتمردهم القطعى وعدم قبولهم معايشة المحتلين الفرنسيين لهم بأى شكل من الاشكال . ولقد كان دورهم فى ثورة المقرانى من أبرز الامثلة على موقفهم الصامد هذا . ومن جملة ما يقود اليه محتوى الوثيقة الثانية بصورة خاصة ، امتداد المعارك الى مختلف جهات الاوراس ، وشدة احتدام القتال واستبسال الثائرين فى الهجوم وتكبد الطرفين لخسائر جسيمة أثناء ثورة 1879 .

(34) نصف سطر انمحى من المخطوط
(35) كاتب لدى القايد (وأصل الكلمة تركى)
(36) كلمة من أصل تركى تعنى الدولة أو الادارة الحكومية

2 _ ان منطقة الاوراس بالنظر لموقعها الجغرافى وتركيبها التضاريسى ظل سكانها فى تمرد مستمر على الفرنسيين . فمنذ البداية اعتصم أحمد باى بعد تغلب الفرنسيين عليه فى قسنطينة بمنطقة جبال أحمر خدو فى قلب الاوراس وصمد هناك مع السكان خلال الفترة بين 1837 الى 1848 وحينما تمكن حكم الفرنسين نسبيا من منطقة الاوراس فى 1853 نجد المنطقة لا يستقر لسكانها بال ، فيقومون بالثورة تلو الاخرى ؛ ابتداء من 1856 حتى 1954 . فهناك اذن عديد من الثورات المتتالية عرفت بها المنطقة ، وواجب شبابنا الباحثين فى القاء الاضواء عليها يستحق كل التأكيد هنا . ومن أبرز من اعتنى من الباحثين الفرنسيين القدماء بثورات الشرق الجزائرى عموما وثورات الاوراس من بينها ، هو فيرود (1) . وحديثا تطرق الاستاذ ش. ر. آجرون بموضوعية لتحليل دوافع ثورة 1879 على الخصوص . وذلك فى أطروحته القيمة (المسلمون الجزائريون وفرنسا 1871_1919) (2) . وتحدث زميلنا يحيى بوعزيز عن ثورة بلزمة فى الاوراس وعلاقتها بثورة المقرانى أيضا . (3)

3 _ والحقيقة ان الوثائق الفرنسية عن كل الثورات الجزائرية فى جميع الانحاء الجزائرية قد لا يعوز المؤرخ كثيرا الآن . ولكن جانب الوثيقة الاهلية (استكشافها واستعمالها) هو الذى يجب أن يكون محل عناية اكثر الآن . وهذه القضية ليست جديدة أيضا ، فالمؤرخون الفرنسيون ، والنزهاء من بينهم بصورة خاصة ، يشتكون دائما من قلة المصادر الاهلية حينما يتصدون للكتابة عن تلك الثورات أو حينما توجه اليهم ملاحظة ما ، حول استنتاجهم فى خصوصها. ولا تزال هذه القضية قائمة ، واذا كانت أسبابها فى الماضى معروفة ، فانه من الاليق بشبابنا الباحثين اليوم أن يتجهوا بعد استرجاع السيادة الوطنية ، لاكتشاف تلك المصادر الاهلية واستعمالها بدل التوقف عند المصادر الفرنسية السهلة الاستعمال نسبيا وتكرار ما كتبه بعض المؤرخين

(1) Feraud, Charles : *Histoire des Villes de la Province de Constantine*. Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la Province de Constantine - Alger, 1972.
Feraud : *Notes Historiques sur la Province de Constantine* - Alger, 1878.

(2) Charles - Robert Ageron : *Les Algériens Musulmans et la France* 1871 - 1919 - Paris, 1968.

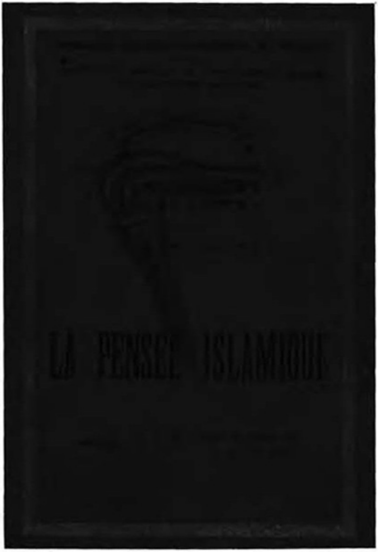
(3) مجلة الثقافة (الجزائر) عدد 38 .

الفرنسيين الذين يكونون قد سبقوا الى استعمال تلك المصادر وربما يكونون أكثر خبرة فى استعمالها ٠

واذا كان هذا هو السبب الذى حدانى هنا للحديث عن هاتين الوثيقتين الاهليتين ، فان ما احتوياه من المعلومات قد يكون قليلا جدا ، ولكن الفات انتباه الباحثين من شبابنا الى أهمية الوثيقة الاهلية نعتقد ان فيه كل الفائدة لخدمة تاريخنا، كما ان القاء الاضواء على الجانب الذى تكون قد عجزت جهود المؤرخين الاجانب عن الوصول اليه هو من صميم أعمال المؤرخ الجزائرى ومن واجبه وحده وهو ميدان واسع مفيد وغنى دون شك ٠

منشـــــورات
وزارة الشـــؤون الدينيـــــة

صـــــدر كتـــاب :



فى ثلاثـــة أجـــزاء

انتفاضـــة سكـــان الاوراس

عـام 1878

د· يحيى بوعزيز
معهد العلـوم الاجتماعية
جامعة وهران



التعريف بجبال الاوراس :

تمثل كتلة جبال الاوراس اكبر تضاريس الجـزائر الشمالية علوا وارتفاعا ، اذ يبلغ ارتفاع قمة جبـــال الشلية فيها 2330 م عـن سطـح البحر · وتحتضن فى سفوحها الشمالية ، الزاوية الشرقية الحادة لمثلث اقليم الهضاب العليا ، الذى يعرف هنا باسم السهول العليـا القسنطينية بعد أن استصلح وتحول الى اقليم اقتصادى هام لانتاج الحبوب منذ عهد الرومان · ويشتهر بكثـرة احواضه ، وشطوطه ، وبحيراته المالحة ·

وتشرف هذه الجبال فى سفوحها الجنوبية على اقليم الزيبان الذى يشتهر بواحاته الجميلة فى منطقة بسكرة ، ووداد سوف ، فى حـــوض ايغرغر · وتلتقى فى غـــربها سلسلتا جبال الاطلس التلية الشمالية ، والصحراوية الجنوبية · وتمتد شرقا عبـر جبال النمامشة ، وتبسة ، الى داخل البلاد التونسية · فى اطار ما يعرف باسم جبال التل العليا ، أو جبال الظهر التونسى ·

وهي جبال جيرتة التربة ، معقدة التضاريس ، مكسوة بغطاء نباتى متوسط الكثافة ، من الغابات المتوسطية المتنوعة كالصنوبر ، والسرو ، والبلوط ، والعرعار • ينالها قسط كبير من الرطوبة فى شكل أمطار وثلـــوج خلال فصل الشتـــاء ، بسبب علوها الشاهق ، وقربها من جبهة البحر المتوسط الشمالية الرطبة • يشتد فيها البرد شتاء ، وتسودها ظاهرة الجفاف والحرارة فى سفوحها الجنوبية والشرقية ، بسبب اتصالها بالصحـــراء •

وتعتبر هذه الجبال منطقة نموذجية للفلاحة التقليدية ، كتربية الحيوانات ، وفلاحة الحبوب فى المنحدرات ، والخضر والاشجار المثمرة ، فى منخفضات وأحواض الاودية • ويتنقل الرعاة بحيواناتهم فى فصول خاصة من السنة حسب ظروف المناخ • ففى فصل الشتاء البارد ينحدرون بقطعانهم مـــن الجبال فى الشمال ، ويتجهون الى السفوح ، والى الجنوب نحو مشارف الصحراء حيث يكثر الدفيء ، وتتوفر الحشائش • وفى فصل الربيع عندما تذوب الثلوج ، وتورق الاشجار ، وتنمو الحشائش ، وتزدهر ، يعـــود هؤلاء الرعاة بقطعانهم نحو الشمال ، وهكذا دواليك •

وتمتاز السفوح الجنوبية بوجود أشجار النخيل كذلك • ومن أهم مراكز العمران فى هذه الجبال ، مدينة باتنة عاصمة الولاية ، ومروانة ، وأريس ، وخنشلة ، وعـــين البيضـــاء ، ، وتازولت (لامبيس) الاثرية ، والقنطـــرة ، وغيرها • ويشتهر معظمها بالصناعات التقليدية ، كالادوات الحديدية ، ونسيج القشابية ، والحايك ، وصنـــاعة الجلود ، والاخشاب ، وغيرها •

وكانت جبال الاوراس ، عبر التاريخ قلعة للصمود وملاذا ومعتصما ، للاحـــرار الوطنيين الذين قاوموا الغزو الاجنبي خاصة فى عهد الرومان والبيزنطيين ، وفى صدر الفتح العربى الاسلامى ، وخلال الاحتلال الفرنسى الاخير •

ففى عهد البيزنطيين برز فى هذه المنطقة البطلان الشجاعان : بيداس ، وتاكفاريناس ضد هذا الاستعمار ، وفى صدر الفتح العربى ، برز كسيلة ، والكاهنة لمقاومة بعض قادة الفتح مثل : عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس البلوى ، وحسان بن النعمان

وخلال الاحتلال الفرنسى فى القرن التاسع عشر • اعتصم بهذه الجبال عدد من أبطال المقاومة الجزائرية ، وتصدوا لمقاومة الغزو الفرنسى مـــن ضمنهم : الحــــاج أحمد باي ، آخر بايات بايليك قسنطينة ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن شيخ قـــرية سيدى عقبة ، وخليفة الامير عبد القادر على ولاية الزيبان ، والحسن بن عزيز ، والشيخ

محمد الحسناوي بن بلقاسم الخنانشى (1) ، وزعماء عائلة رزقى ، ومحمد بن عبد الكريم القسنطينى (2) · وشهدت هذه الجبال معارك بطولية فى أولاد سلطان ، وأحمر خدو ، وباتنة ، وخنشلة ، والشمرة ، وغيرها ·

وخلال معظم الثورات التى خاضها السكان ضد الاستعمار الفرنسى فى الشرق الجزائرى ، والواحات الشرقية ، كانت جبال الاوراس ملجأ ، ومعتصما ، كما كانت منطلقا كذلك ، لكثير من الثوار والزعماء · ففى عام 1937 التجأ اليها الحاج احمد باي بعد أن ضاعت منه قسنطينة ، وبقي معتصما بها يجاهد ويكافح حتى أرغم على الاستسلام فى صيف عام 1848 بجبل أحمر خدو · وفى عام 1849 التجأ اليها من نجا من ثوار الزعاطشة وليشانة ، وفرفار · كما التجأ اليها قبل ذلك شيخ قرية سيدى عقبة أحمد بلحاج محمد الصغير بن عبد الرحمن خليفة الامير عبد القادر ، وفى أعوام 1858 ــ 1860 ، التجأ اليها ثوار حركة سى الصادق ، ومحمد بن بوخنتاش بالحضنة ، والخنقة ، وبسكرة · وفى عام 1876 التجأ أليها من نجا من ثوار حركة واحة العمرى (3) ·

وفى هذه الدراسة سنقدم انتفاضة أخرى قام بها سكان منطقة الاوراس الغربية عام 1879 ، ضد الاستعمار الفرنسى ، فى الوقت الذى كان فيه الساسة الفرنسيون يتصورون ويعتقدون ، أن عهد الثورات بالجزائر قد انتهى بالقضاء على ثورة المقرانى والحداد عام 1871 · والحقيقة أن سكان الاوراس سيثورون حتى فى مطلع القرن الحالى عام 1916 ، فى الوقت الذى كانت فيه الحرب العالمية الاولى على أشدها ، كما أن الانطلاقة الاولى لثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 ، بدأت من هذه الجبال الشامخة ·

أسباب هذه الانتفاضة :

1) عن محمد الصغير ، والحسن بن عزوز ، والشيخ الحسناوى : انظر دراستنا بعنوان : « جهود الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية » ، الاصالة ، عدد 48 (الجزائر ــ أوت 1977) ص 2 ــ 42 ·

2) عن محمد بن عبد الكريم ، انظر دراستنا بعنوان : أربعة أحداث فى ثلاثة وثائق المجلة التاريخية المغربية ، عدد 2 (تونس ــ جويلية 1974) ص 94 ــ 102 ·

3) عن حركة سى الصادق ، وبوخنتاش ، وحركة واحة العمرى ، انظر دراستنا ، بعنوان : نماذج من مقاومة سكان الواحات · الاصالة ، عدد 41 (الجزائر ــ جانفي 1977) ص 117 ــ 134 ·

ظهرت هذه الانتفاضة المسلحة فى منطقة جبال الاوراس الغربية أواخر شهر ماي 1879 بزعامة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، وسكان أولاد داود فى دائـــرة باتنة وبنى بو سليمان فى دائرة بسكرة • وكان وراءها عوامل سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية •

فمن الناحية السياسية اشتد النظام العسكرى ، وضباط المكاتب العربية ، فى سوء معاملة السكان وفى قهرهم ، واذلالهم ، واحتقارهم ، بشتى الوسائل • وهو أسلـوب الاستعمار الفرنسى ضد الشعب الجزائرى كله فى ســـائر أنحاء البلاد ، ولكن هذا الاسلوب اشتد أكثر فى البوادى والارياف ، وفى الجبال بصورة خاصة ، ومنها جبال الاوراس • على أساس أن السكان بدو متخلفون لا يفهمون للحياة معنى ، ولا يستأهلون أن يعتنى بهم ، ولا يحق لهم أن يتمتعوا بأي حق •

ومن الناحية الاجتماعية هناك صراع وخصومات حادة بين عائلــة بن قـــانة ، وعـــائلة بن شنوف المنحدرة من عـــائلة بوعكاز ، حول السيطرة والنفوذ السياسى والقبلى • فقد حرض جماعة بن شنوف ، السكان ضـــد أولاد بن قـــانة حتى يثبتوا للسلطات الفرنسية عجزهم عن أداء مهماتهم فى وظائفهم ، فتعز لهم ويتسع المجـال لاولاد بن شنوف ليحتلوا أماكنهم ووظائفهم ، وهي حزازات نابعة من الصراع القبلى •

وقد أتهم على باي من عائلة بوعكاز ، الآغا ابن ادريس ، وأولاد بن قانة ، معـا ، باثارة حوادث الاوراس هذه ، ليحولوا دون تطبيق الاصلاحات والتنظيمات الادارية المدنية الجديدة بالصحراء ، حتى يحتفظوا بمناصبهم ويبقوا فى وظائفهم • وجاءت كل هذه الحوادث لتساعد على تفجير الحوادث •

ومن الناحية الاقتصادية ، كان السكان فى هذه الفترة بمنطقة الاوراس ، كما فى غيرها ، يعانون أوضاعا سيئة ، وحادة • فلقد اشتد القحـط ، والجفاف ، وقـــل الانتاج الحيوانى ، والفلاحى ، وزيادة على هذا تشدد جباة الضرائب ضدهم وأرهقوا بمستلزمات القواد ، والآغاوات الاقطاعيين ، التى تفرض عليهم كعنوان وعربون على الطاعة ، والخضوع ، والامتثال ، وعانوا ، نتيجة لذلك ، من تشدد السماسرة اليهود ، والاوروبيين ، فى رفع نسب فوائد وربا الديون ، والقروض ، التى كانوا يأخذونها منهم ليواجهوا بها مشاكل الحياة ، والواجبات المفروضة عليهم (4) •

(4) Ch. R. Ageron : *Les Algériens Musulmans et la France* 1871 - 1919 (Paris 1958) pp. 56 - 57.

وبذلك كانت الوضعية سيئة الى أبعد حد فى هذه الفترة ، بهذه المنطقة ، وأصبح واضحا ، ومتوقعا ، اندلاع أعمال العنف ، والتمرد ، اذا ما حصل أي ضغط آخر على السكان ، وهو ما حصل فعلا فى خريف عام 1879 كما سنرى ·

شخصية زعيم الثـورة :

تزعم هذه الحركة والانتفاضة ، الشيخ محمد امزيان بن عبد الرحمن الذى يعرف فى المنطقة باسم : محمد بن جار الله ، ويلقبه الناس باسم « الشيخ بوبرمة » كما روي ذلك لوسيانى (5) ·

وكان اماما بجامع قرية الحمام ، وشيخا للزاوية الدينية بها ، ورث المشيخة الدينية كرئيس للرحمانيين ، عن الشيخ ابراهيم بن سى الصادق زعيم ثورة 1859 ـ 1859 بمنطقة بسكرة (6) ·

وبفضل منصبه الدينى هذا حاول أن يحيى سيرة سى الصادق ، وسى ابراهيم ، فأخذ يوسع نفوذه الدينى ، ويكثر من الانصار ، والاتباع ، والمريدين ، ومع حلول عام 1879 ، بدأ « الشيخ بوبرمة » ، يظهر عداءه ضد السلطات الفرنسية المحتلة · واستغل مركزه الدينى للتاثير على جماهير السكان · ولم نستطع ان نتعرف على الاسباب التى دفعته الى تزعم الانتفاضة ، من خلال ما امكننا الاطلاع عليه من كتب ودراسات فرنسية · وهذا مما يستوجب الاعتناء بهذه الحركة ، ودراستها ، وبحثها ، من جديد ، والبعث عن وثائقها فى الارشيفات الفرنسية ما وراء البحر ، وفى أرشيفات تونس ، والجزائر ·

ومنذ شهر جانفي أخذ سى محمد أمزيان يقوم بزيارات متعددة لزاوية سى الصادق القديمة بقرية تيمرماسين للاتصال بأصدقائه ورفاق سى الصادق القدماء والاوفياء ، لتوثيق الصلات والعلاقات معهم ، ولتدارس الاوضاع السياسية السائدة انذاك ، ولربما لوضع الخطط والبرامج لما كان يعتزم القيام به ، وهو الثورة والتمرد ضد السلطات الفرنسية (7) ·

ويتضح من هذه السفرات ، والاتصالات ، أن محمد امزيان كان غير مرتاح لاوضاعه الخاصة ، وللمشاكل العامة فى البلاد · وكان يبيت أمرا · وعندما بدأت بوادر الغضب

---

(5) D. Luciani : *Souvenir de l'Insurrection de* 1879. Revue Africaine (Alger 1925) pp. 190-196.
(6) Chareles Feraud : *Notes Historiques sur la Province de Constantine R.A.* (Alger 1886) pp. 103 - 107.
(7) Le commandant De Margon : *Insurrection dans la Province de Constantine de* 1870 *à* 1880 (Paris 1883) pp. 149 - 165.

والتذمر ، تبرز ، وتظهر فى مطلع عام 1789 ، اعتقل القائد بوضياف ، عددا من زعماء أولاد داود كرهائن لديه ، بينهم أحد شيوخ أهل حلحة ، وذلك بتهمة عملهم على تحطيم نفوذه ، ومركزه ، وادارته · وقد يكون هذا الاعتقال سببا فى حملهم السلاح بعد ذلك والتحاقهم بالثوار عندما تفجرت أعمال العنف ، والاحداث المسلحة ·

وفى خلال شهر ماي اتصل القائد الهاشمى بن بوضياف ، برسالة من ابيه ، وكلاهما كان عونا للفرنسيين ، أخبره فيها بأن محمد أمزيان بن عبد الرحمن قدم الى قرية الحمام ليعلن من هناك الجهاد الدينى المقدس · ونحن نعلم أنه امام بها ، وقد يكون عاد اليها بعد سفراته المتعددة ، واتصالاته ، واستنادا الى أخبار هذه الرسالة كلف القائد الهاشمى عددا من الاعوان ليذهبوا اليه ويعتقلوه يوم 29 ماي ، ولكن سكان القرية هاجموهم وردوهم على أعقابهم بعد ان جرحوا لهم المدعو بن شوشة ، وبن عبد الله · وجدد القائد الهاشمى الكرة فى اليوم الموالى وأرسل كاتبه على رأس عدد آخر من الاعوان ، فتعرضوا لما تعرضى له سابقوهم ، ولم ينج كاتبه ، الا بفضل سرعة حصانه

اندلاع الثورة :

كان هذا الحادث بداية لاندلاع أحداث العنف والثورة · فاتجه على اثرها محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، ورفاقه ، الى قرية العنصر ، لاعتراض سبيل القائد الهاشمى ابن بوضياف الذى كان يحاول اعتقالهم · فخاف من مغبة الامر ، وأسرع فى الانسحاب الى قرية الربعة ، حيث كان أبوه بوضياف بن محمد قائد بنى وجانة ، ينتظره حتى ينجو من الخطر (8) ·

وفى يوم 31 ماي تجمع الثوار فى قرية تكوت لدى سى سليمان بن الحاج ، وهاجموا القائد مصطفى بن باش تارزى ، وقتلوه فى منزله ، وحزوا رأسه ، وقتلوا بعض أعوانه · وفى نفس الوقت تمركز الضابط الفرنسى كوربى CORBE ، والقائد بوضياف فى العناصر قرب مشينة ، ثم أسرعا الى قرية الشمرة عبر الربعة ، بعد أن كثر عدد الثوار ، واشتد نشاطهم ابتداء من أول شهر جوان ، خوفا من الوقوع فى قبضتهم ·

وفى ليلتى 5 و 6 جوان ، هاجم الثوار برج القائد محمد بن عباس مقدم الطريقة القادرية بواد عبدى ، وكان متغيبا عنه فى باتنة بسبب مرضه وكبر سنة ، فاحرقوه ،

---

8) نفس المصدر ، ص 167 ـ 168 ·

وخربوه ، ولم يستطع ولده أن يحميه ، وينقده ، لان غضب الناس كان شديدا ضد الفرنسيين واعوانهم جميعا ، وقد قتل خلال محاولته الدفاع عن منزل ابيه ·

اما الشيخ بوبرمة ، محمد أمزيان ، فقد اهتم بمراسلة سكان المناطق المجاورة يحثهم فيها على حمل السلاح ، والانضمام الى صفوف المجاهدين ، وادعى للناس بأن الفرنسيين لم تبق لهم اية قوة فى هذه البلاد ، وان هزيمتهم محققة · وكان من ضمن من كاتبهم قبائل الحراكتة بالاوراس ، وأورد لوسيانى نموذجا لهذه المراسلات برسالة موجهة الى أولاد عيسى ادعى أنه تسلمها من أحد مقدمى الطريقة الرحمانية بالمنطقة الذى رجاه الا يعلن عن اسمه ، كما أدعى أن رسالة مماثلة لها انتزعها القائد على بن العربى بن بوزيد من أحد الرسل الذين أوقفهم ، وسلمها الى رئيس المكتب العربى بعين البيضاء · ونصها :

« تبلغ الى يد كبار أولاد عيسى

الحمد لله وحده يتعرف به كبار أولاد عيسى السلام عليكم والرحمة والبركة من المسلم امام المهدى يخبركم أنه قد جاءه النصر من عند الله لقتال الكفار ولابد لكم ان تقوموا للجهاد لتكون كلمة الله هي العليا · ومن كذب فى هذا الامر فقد كذب (على الله) (9) ورسوله ولكم أجر عظيم بذلك والسلام ممن كتب عن اذنه محمد بن عبد الله المهدى نصره الله » (10) ·

ولم يكتف محمد أمزيان بمراسلة السكان ومكاتبتهم ، فاتخذ بعض الاجراءات التنظيمية الاخرى ، وعين المسمى ابن محمد بن الطرابلسى خليفة له ، وكلفه بأمور الحرب والجهاد · واتخذ قرية الحمام مركزا لنشاطه ، ورفع علم الجهاد على منارة مسجد سيدى فتح الله بالقرية · وخلع على نفسه هو لقب عبد الله الفاطمى ليوحي للناس بأنه الامام المهدى المنتظر (11) ·

9) كلمة : على الله ، التى وضعناها بين قوسين أضفناها من عندنا ليستقيم المعنى ويظهر أن كاتب الرسالة أو ناسخها ، قد نسيها ·

ان هذه الرسالة ممضاة باسم محمد بن عبد الله المهدى · ولكن لوسيانى صحح ذلك وأورد الاسم الحقيقى وهو محمد أمزيان بن عبد الرحمن · وذكر أنه يعرف لدى سكان المنطقة باسم محمد بن جار الله ، ويلقبونه باسم الشيخ بوبرمة ، كما مر ، أنظر نفس المصدر ص 194 ·

(10) Luciani : Ibid, p. 192.
(11) Margon : pp. 169 - 175.

وخلال يومى 8 و 9 جوان ، تجمع حوالى ألفي رجل ثائر مسلح ، واحرقوا رحا القائد بوضياف فى قرية واد طوبة قرب قرية الربعة ، وهاجموا المعسكر الفرنسى الذى يعسكر فيه الضابط كوربى ، على رأس عدد من القوم ، والقناصة ، والصبايحية ، والرماة · وكانت نتيجة المعركة مقتل خمسة ، وجرح ستة ، من القوات الفرنسية ، ومقتل عدد آخر من الثوار ·

وتميزت هذه المعركة بالدور البارز الذى لعبته النساء الجزائريات خلالها · بحيث كن يشجعن الثوار المقاتلين على الصمود ، بالزغاريد ، والولولة ، ويرقصن أمام جثث الضحايا حتى لا يتسرب اليهم الفشل ، ويعيرن الاسرى ، ويؤنبنهم على جبنهم (12) وهذا الدور يذكرنا بدور المرأة الجزائرية فى الكفاح الوطنى خلال معارك التحرير الكبرى طوال القرنين التاسع عشر ، والعشرين ، خاصة فى ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 ، واسم فاطمة نسومر ليس غريبا على الجميع ·

استعدادات الفرنسيين ضد الثورة :

ونظرا لخطورة الحركة ، وتفاقمها ، وتطورها ، على هذا الشكل ، اهتم الفرنسيون بأمرها · وطلب حاكم مقاطعة قسنطينة من الجنرال فورجيمول دو بوسكينار : Forgemal De Bostquenard ، أن يعد ، ويجهز ، ثلاث فرق عسكرية فى أماكن مختلفة ، وتوجه الى قرية : « مدينة » التى تقع فى مركز وسط بين باتنة ، وخنشلة ، والقنطرة · وذلك لمحاصرة الثوار والتضييق عليهم ، وحصار الحركة حتى لا تنتشر الى جهات أخرى :

– الاولى تجهز من مدينة باتنة بقيادة الجنرال لوجرو : Logerot
– والثانية تجهز من بسكرة بقيادة الكولونيل كاجار : Cajard
– والثالثة تجهز من خنشلة بقيادة الكولونيل قوم : Gaume

وأعطيت الاوامر الى المسؤولين فى كل من عنابة ، وسكيكدة ، وقسنطينة ، وسطيف ، والجزائر العاصمة ، ليعدوا قوات أخرى ، ويعجلوا بارسالها الى المنطقة ، مما يدل على أن الامور خطيرة ، وأن حركة الثورة والتمرد واسعة ·

وفى يوم 12 جوان ، أمر الجنرال فورجيمول بالبدء فى عملية الزحف على منطقة الثورة بالاوراس ، انطلاقا من قرية الربعة · فانطلقت قافلة الجنرال لوجرو الى مضيق

(12) Ibid, pp. 181 - 182.

واد طوبة ، وتعرضت لهجوم الثوار يوم 15 جوان ، فردت عليهم بتدمير منازل السكان ، واحراق الخيام ، وكل مظاهر العمران ، ثم اتجهت الى قرية (مدينة) على الواد الابيض.

وفى نفس الوقت كانت قافلة الكولونيل كاجار تمر بمشونش الى الـواد الابيض كذلك ، وخاضت أول معركة مع الثوار فى مضيق تيرانيمين ، ثم اتجهت الى صانف يوم 16 ومن هناك الى واد عبدى ، فذراع لكحل ، حيث عسكرت فى تيزى أوقارين (13) ·

خطـط الثـوار ومصيرهم :

وفى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون يقومون بهذه الاستعدادات الواسعة ، اتجـه زعيم الثورة محمد أمزيان ورفاقه الى زاوية سيدى فتح الله فى قرية الحمام بـواد الشرفة التابعة لقيادة جبل أحمر خدو ، وذلك من أجل دراسة الوضع على ضـوء استعدادات أعدائهم ، ولكن الفرنسيين لم يتركوا لهم الوقت والفرصة ، فجندوا ضدهم قوم عرب قبالة ، وعرب شراقة ، من أولاد سكرى ، والصحارى ، وتقدمت قوات كاجار نحو الزاوية ، وهاجم قوم باش تارزى ، الثوار يوم 19 جـوان ، وقتلوا منهم حوالى ثمانين شخصا ، ينتمون الى بنى سليمان ، وجرحوا عددا آخر ، وأسروا أربعين ·

وفى يوم 24 جوان ، هاجم الثوار قافلة فرنسية ، كانت فى طريقها الى معسكـر كاجار ، وذلك فى قرية مدنة ، وأسر الفرنسيون خلالها ثلاث رجال ينتمون الى أولاد داود · وأعدمت قافلة خنشلة الفرنسية واحدا وعشرين شخصا من الشاوية قبل ذلك يوم 15 جوان ، بينما كانت متجهة الى قرية تاقزوم (14) ·

ونظرا لاشتداد ضغط القوات الفرنسية وكثرة تخريباتها ، انسحب محمد أمزيان وانصاره الى الجنوب الشرقى ، ومروا بقرية زريبت الواد ، ووصلوا الى نقرين يوم 29 جوان · ومـن هناك عبروا الحدود الى منطقة الجريد بالبـلاد التونسية صحبة نسائهم ، وأطفالهم ، وأهاليهم ، بعد أن فقدوا حوالى ثلاثمائة شخص فى الطريق ماتوا كلهم من جراء الجوع ، والعطش ، وشدة الحرارة ، والاجهاد · وعثرت عليهم القوات الفرنسية التى كانت تلاحقهم وتطاردهم من مدينة تبسة ، مرميين فى العراء على الرمال فى شكل مجموعات صغيرة متناثرة هنا وهناك ، ثلاثة ، وأربعة ، وخمسة ، وكـان

13) نفس المصدر ، ص 177 ـ 178 و 183 ـ 185 ·
14) نفس المصدر ، ص 188 ـ 190 ·

البعض منهم عبارة عن هياكل عظيمة ممسوكة بالجلود اليابسة عليها · مما يـدل على مدى الجهد الذى عانوه وقاسوا منه خلال هذه الحركة (15) ·

صـرامة العقوبات الفرنسية ضـد الثـوار :

وكعادة السلطات الفرنسية ، فانها طبقت عقوبات صارمة ، وقاسية ، ضد سكان المنطقة دون استثناء · فصادرت أملاك الثوار ، والمؤيدين لهم ، بصورة جمـاعية ، وفرضت غرامات حربية زادت عشرين مرة على الضريبة العادية ، على سكان حلحة ، وأولاد داود ، وبنى سليمان ، وبلغ مجموع ما صادرته من أولاد داود وحـدهم 2777 هكتارا من أراضيهم الجيدة ، ونكبت السكان فى قطعان مواشيهم ، وابلهم ، واغنامهم ، واحتجزت رهائن منهم حتى تستوفى هذه الضرائب ، والعقوبات (16) ·

وفى نفس الوقت قامت السلطات التونسية بتسليم محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، زعيم الثورة ، ورفاقه الى السلطات الفرنسية التى قدمتهم الى المحاكمة امام مجلس عسكرى بمدينة قسنطينة فى شهر جوان 1880 ، أي بعد مرور عام على اندلاع هـذه الثورة · وكان عددهم خمسة وخمسين شخصا · وأصدر هذا المجلس العسكرى احكامه ضدهم يوم 16 جوان على الشكل التالى :

أربعة عشر شخصا بالاعدام على رأسهم زعيم الثورة محمد امزيان ·

عشرة أشخاص بالاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ·

سبعة أشخاص بالاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات ·

شخصان بالاقامة الجبرية لمدة خمس سنوات ·

سبعة أشخاص بعامين شجنا عاديا ·

ستة عشر شخصا برئت ساحتهم ، فأطلق سراحهم ·

وبعد صدور هذه الاحكام الجائرة ، حاولت السلطات الفرنسية أن تتظاهر بالرافة والرفق ، فأصدرت عفوا جـزئيا على المحكوم عليهم بالاعدام ، وعوضت الاعـدام بالاشغال الشاقة المؤبدة ·

وكان محمد أمزيان بن عبد الرحمن ، قبل تقديمه للمحاكمة ، قد كتب رسالة طويلة الى رئيس المجلس العسكرى يوم 24 ماي 1880 ، أورد مارقون نص ترجمة لها بالفرنسية

---

(15) Henri Garrot : *Histoire Général de l'Algérie* (Alger 1910) p. 994.
(16) Ageron : Ibid, pp. 59 - 62.

وحاول صاحبها ان ينفي عن نفسه ، وعن رفاقه ، التهم الموجهة ضدهم ، وأكـد أن المسؤول عن كل ما حصل من الشغب ، والقتل ، والحرق ، والتخريب ، والتشريد ، هـم الضباط الفرنسيون ، وأعوانهم ، وجماعة باش تارزى (17) ، ولاشك أنه محق فى ذلك ، وهو مما يؤكد ضرورة البحث عن وثائق هذه الثورة ٠

جامعة وهران
معهد العلوم الاجتماعية
د٠ يحيى بوعـزيز
دائرة التاريخ
فى 1978/4/15

(17) De Margon : pp. 195 - 206.

منشـــــورات
وزارة الشـــؤون الدينيـــــة

سيصــــــدر قريبا كتـــاب :

الملتـــقى التـاســـــع
للفكـــــر الاســـــلامى

بالعربيـــة فى أربعـــة أجـزاء

ويشمـــــل :

سائـر المحـــاضرات ،

والتعقيبـات .

والمناقشات .

أثــر القــرآن
فى شعــر محمــد الــعيـــد

شلتاغ عبود شراد
المعهد التكنولوجى للتربية
الأصنام

تمهيــد :

لم يكن محمد العيد آل خليفة بدعا فى الشعراء من حيث صلته بالقرآن الكريم ، وتاثره به ؛ ذلك أن الثقافة العربية على توالى العصور الاسلامية كانت فى مجملها تعتمد القرآن مصدرا تدور حوله الابحاث اللغوية والأدبية والفكرية • وبأمكاننا أن ناتى بنماذج لكثير من الشعراء من العصر الاسلامى الى العصر الحديث ، ولكننا سنعرض عن ذلك خشية الاطالة • غير أن شاعرنا، فى الواقع، فاق كثيرا من الشعراء العرب فى اعتماد اللغة القرآنية والصورة والرمز القرآنى ، ووظف المعانى القرآنية توظيفا حالفه النجاح فى الغالب من شعره •

ولقد كان لنشأة محمد العيد الدينية ، وبيئته الاجتماعية والسياسية اثر على حياته وشعره • فقد كان أبوه السيد خليفة حم على شيخ طريقة دينية فى العين البيضاء (1) ، فلم يشذ العيد عن هذا الجو الدينى واساليبه التعليمية ، ثم كان لنشأة الحركة

الاصلاحية التي وجد الشاعر نفسه محاطا بها ، ومن ثم عضوا عاملا فيها ، كان لها أثر كبير فى تعميق ثقافته الدينية واعتمادها وسيلة للاتصال بالجماهير فيما بعد ، فضلا عن ذلك ، فان بيئته الاجتماعية والثقافية لم تكن منفتحة على الثقافات العربية والعالمية الحديثة ، عدا القليل من الصحف والمجلات التى كانت تصل من تونس والقاهرة ·

ولهذا كان لا بد من العودة الى النبع : القرآن الكريم ، والتراث العربى القديم الذى لا يخلو هو الآخر من الأثر القرآنى ، ان لم يكن يدور حوله ويستقطبه ·

وقد لاحظنا أن صلة الشاعر بالقرآن كانت عميقة ، فتركت آثارها فى أكثر من جانب ، ولذلك ارتأينا أن ندرسها من حيث اللغة والموسيقى والصورة والرمز ، وان كان هذا التقسيم اعتباريا من أجل الوقوف على الجزئيات ؛ لأن القارىء يستطيع أن يلمح هذه الجوانب متجسدة فى نموذج واحد من شعره ·

(1) اللغـة :

من الشعراء من يتفرد فى تعامله مع أداة التجربة الشعرية ، اللغة ، فيحس القارىء بطريقته فى تناول اللغة بشكل يميزه عن الشعراء الآخرين · ومنهم من ياخذ المفردات والتراكيب الجاهزة دون محاولة منه للأبداع والاكتشاف فى مجال العلاقات اللغوية ، ولا نريد هنا أن نزعم أن العيد خليفة علم بارز فى ميدان العلاقات اللغوية الجديدة ، ولكننا نريد أن نؤكد بدءا أن للشاعر أسلوبا خاصا يستطيع القارىء أن يميزه به ، الا وهو التصاقه الشديد بالقرآن ، ونهله منه مفردات وتراكيب ، وطريقة نظم ، ولا عجب فهو الذى يقول :

يقولون هل نقبت فى الكتب باحثا	فقلت لهم لم أقف آثار كاتب
وعفت ، فلم أشرب من الكاس فضلة	يزاحمنى فى رشفها الف شارب
ومن كان للأسفار فى العلم راغبا	فانى للأسفار لست براغب
فحولى كتب الله من كل شارق	تزودنى علما ، ومن كل غارب
غنيت بها عن كل درس معذب	وعن كل بحث فى المراجع ناصب (2)

وحين نواجه هذا الشعر لم يبق أمامنا الا البحث عن طرائق تأثر الشاعر بكتاب الله الذى أغناه عما سواه كما يقول · ونحن ، وان كنا نميل الى ما ذكره الدكتور ابو القاسم

سعد الله فى أنه من الصعب أن يفلت الشاعر فى هذا العصر من التأثيرات غير القرآنيـة ، مهما ادعى ذلك (3) ، نرى أن الأثر القـرآنى كان أكثر الآثار ظهورا وانعكاسـا لثقافة الشاعر . فهو اذا ما كتب نصا شعريا تواردت اللغة القرآنية على خاطـره ، حتى أنه فى الغالب يبدأ البيت الشعرى بالقرآن ، ولا يغير من اللفظ القرآنى الا اذا اضطرته قوانين الوزن ، كقوله يخاطب الفرنسيين :

لن تنـالوا البـر حتى ترفضـوا   ما لـكم من عنصر باق وديـن (4)

أو قوله مرحبا بالمحتفلين فى مدرسة الشبيبة الاسلامية بالعاصمة :

سلام عليـكم طبتم اليوم فادخلوا   على اليمن مفضالا الى جنب مفضال (5)

بل انه لا يخذف الا حرف العطف حتم يستقيم له الوزن كقوله :

لا تخـافـوا ، لا تحـزنـوا   ان عقبـاكم الظفـر (6)

وفى أحيان أخرى ياتى بالفاظ قرآنية ، ولكنها ليست من سياق واحد ، كقوله :

أتـوا النساء نصـيبهن من الهدى   يخرجن نشئا كالـرماح الشرع (7)

قال تعالى : « **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** » النساء ـ 3 ولما كان الشاعر فى صدد آخر غير الصدقات ، راح يستمد من القرآن نفسه اللفظة المناسبة للسياق ، فجاء بـ (نصيبهن) فى قوله تعالى : « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان ، والأقربون ، وللنسـاء نصيب** » النساء ـ 7 . مما يدل على أن القرآن حاضر فى ذكراة الشاعر ، ياخذ منه ما يناسب المقـام .

ويلاحظ على الشاعر أنه لا يغادر النعوت القرآنية للاشياء فى أغلب الاحيان . فهـذه الخمرة ـ وهى خمرة الجنة ـ يمنحها الشاعر نعتها القرآنى ، وينقلنا الى الجو الذى رسم فيه القرآن أهل النعيم :

ستسقاها مشعشـعة وصرفا   مـداما لـذة لا كالمـدام
فليس تضر شـاربها بغول   وليس تجـر شـاربها لذام
يطـاف عليك من وقت لوقت   بها بين احتفاء وآحتشـام (8)

فهذه الابيات تستحضر أمامنا كثيرا من الألفاظ القرآنية ومن مشهد واحد فى قوله تعالى : « **يطاف عليهم بكاس من معين ، بيضاء لذة للشاربين · لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون ·** » سورة الصافات 45 ، 46 ، 47 ·

ألا تلاحظ معى الى أى مدى كانت صفات الخمرة فى القرآن هى نفسها فى شعر محمد العيد ؟ أكثر من ذلك أن هناك بعض الصفات الملازمة للاعداد ، يلتزم بها الشاعر كما وردت فى القرآن :

سنو يوسف السبع الشداد تصرمت   وأعقبها عام الاغاثة والعصر (9)

ولعل قارئا يقول بان الألفاظ التى احتواها القرآن هى ملك اللغة العربية قبل ان يستخدمها القرآن · ومن هنا فالشاعر يتصرف حرا فى التعامل معها ، وان استخدامه لهذه الألفاظ لا يدل على أنه انتهلها من القرآن · نقول : اننا لا نتصيد الألفاظ القرآنية لدى هذا الشاعر ، وانما نجد القرآن مبسوطا أمامنا فى ديوانه بشكل لا يدع مجالا للقول ، بأن الشاعر يصدر عن قاموس اللغة العام فى تعامله مع ألفاظ بعينها ، بل يحدد قاموسه فى اطار هذا المصدر ، فيكرر الألفاظ والتراكيب ويلح عليها ، ثم يخلق جوا شبيها الى جوها القرآنى · أضف الى ذلك أن هناك ألفاظا معينة وردت فى القرآن ، ولم يعد يستعملها الأدباء ، ولكن الشاعر يؤثرها على غيرها ، مثل لفظة « ضيزى » فى قوله :

يا قسمة القدس أنت ضيزى   لم يعدل القاسمون فيك (10)

وترد الفاظ قرآنية ذات دلالات تصورية دينية خاصة مثل : الرين ، وهو الصدا المعنوى الذى يتراكم على القلب من كثرة الذنوب والآثام · قال تعالى : « **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** » (11) · ويقول العيد :

عف كى تسلما   من أذى الرين (12)

كما أن هناك الكثير من الألفاظ التى وردت فى شعر محمد العيد ، وهى قرآنية الدلالة مما يؤكد أنه نحا فيها منحى القرآن مثل : طوبى ، الشانىء ، سجيل ، عدن ، أبابيل ، تبت يدا ، اصدع ، حصحص الحق ، السبع المثانى) · ولما كان للقرآن أسلوب خاص فى ايراد الألفاظ ، فهناك بعض الألفاظ تأتى متصاحبة غالبا مثل : « الصلاة والصيام ، الجوع

والخوف · الجنة والنار · الرغبة والرهبة · المهاجرون والانصار · الجن والأنس · » (13) ، فالشاعر يحافظ على هذا التزاوج بين الألفاظ الذى يعكس الموروث من حفظه للقرآن الكريم · فيقول مثلا :

وله تضرع راغبــا أو راهبــا	فهو الحفيظ عليك وهو الراعى
الله عــز وجــل ربك فادعــه	فهو المجيبلكل عبد داعى (14)

ويقول أيضــا :

هيهات يحــرز غاصب نصرا ولو	بالجنوالأنس احتمى وآستنصرا (15)

بعد ما لاحظنا هذه الانعكاسات القرآنية على لغة محمد العيد ، لابد أن نلقى نظـرة على طبيعة هذه اللغة ، فنقول : انها لغة سهلة غير معقدة تحكى لنا عن مذهب شعراء الطبع ، ولكن ينبغى ألا نذهب بعيدا بهذا الاتجاه · فهى بالوقت نفسه لغة متينة ، محــكمة ، فخمة ، قاموسها أكثر ميلا للقديم · فقد وقف الشاعر مرة فى باتنــة عام 1954 يلقى القصيدة التى مطلعها :

حثثنــا نحــو باتنــة المطــايا	وجئنــاها نزف لهــا التحايا (16)

وعلى الرغم من أن هذه الفترة متاخرة بالنسبة للشاعر ، ولكنه لم يتخلص من تاثير اللغة القديمة على شعره · فبالوقت الذى جاءها مسافرا بالقطار نراه فى شعره يحث مطاياه نحوها · قلنا ان هذه اللغة خالية من الغريب والعويص من الألفاظ الا القليل منها فى المراحل الاولى من حياة الشــاعر ؛ لأنها كانت تخاطب مجتمعا غلبت عليه الأمية ، وأحيانا تخاطب حفلا غالبيته من التلاميذ ، ولذلك تاتى هذه اللغة خطابية واضحة ·

ولما كان الشعر لدى محمد العيد ذا هدف دينى ووطنى أيضا ، فهو يبحث عن « الكلمة الطيبة دائما قبل ان تكون الكلمــة الجميلة · التعبير الصــادق قبل أن يكون التعبير المزخرف » (17) · ولقد كان لمهنة محمد العيد تاثير كبير على هذه اللغة التى تجد طريقها الى ذهن القارىء أو المستمع الأمى بالسرعة نفسها ، فهو الذى قضى حياته معلما للصغار ، فلا تستغرب اذا ما خاطب المحتفلين من الطلاب بقوله :

وأرى دراســتكم دراســة خبرة	ودرايــة ورعايــة ونظــام (18)

فالمناسبة والجو الخطابى هو الذى يقتضى أن ينتقى الشاعر اللغة السهلة الواضحة ، هذا الجو نفسه حمل الرصافى ان يقول شعرا بهذه الطريقة الهزيلة الخالية من أية اثارة :

عقـــل وتجـــربـــة وجـــد زائد   هـــذه صفات حـــازها المتقاعد (19)

ولقد قيل بان العيد كان ينقح لغته ، ويختار من الالفاظ ، أجودها وأكثرها تعبيرا عن هدفه (20) . ولكنها فى كثير من الاحيان تأتى انسيابية يحكيـــها كما يحـــكى الحديث العـــادى :

ما شـــعرنا ـ يعلـم الله ـ حتى   جـــاءنا أن ابن دالى قتيـــل (21)

وهنا لا بد من الاشارة الى ما اصطلح عليه النقاد بلغة الحياة اليومية ، وهى أن يقترب الشاعر من لغة الشعب ، ويعبر عن مشاغلهم اليومية ، فهل وفق العيد الى ذلك ؟

نقول بدءا ان احدا لم يقل باستخدام اللغة الدارجة ، وانما ينبغى للشاعر أن يكون قريبا من روح الشعب ، يخاطبه بلغة أليفة لديه ، اثيرة عنده . ومحمد العيد يبدو أنه يدرك ذلك على ضوء فهمه لرسالة الشعر . فكان أن لجا الى القاسم المشترك الاعظم ـ كما يعبرون بالرياضيات ـ الى القرآن . وبلجوء العيد الى اللغة القرآنية ، يقتبس منـــها الكثير ، ويستحضر اجواءها ، يكون قد نفذ الى قلوب مستمعيه وقرائه ، واختصر المسافة بينه وبين جمهـــوره .

بقيت مسألة لا بد من أن نقف عندها قليلا ، وهى أن لغة العيد قد وصفت بانها لغة تحاكى لغة البهاء زهير ، وهذا ما يفهم من قول الأمير شكيب أرسلان (22) ، فالى أى مدى يصدق هذا الـــرأى ؟

يبدو لى ان لغة العيد لا يمكن أن نقرنها بلغة البهاء ، اذ ان هذا الشاعر الأخير صاحب مدرسة معروفة لدى النقاد برقة اللفظ وشفافيته ، وبموسيقيته الواضحة ، فضلا عن تمثيله لما يسمى بلغة الحياة اليومية احسن تمثيل . انظر اليه ، وهو يقول :

اياك يدرى حديثـــا بيننا احـــد   فهم يقـــولون للحيطان آذان (23)

الا أن ما يربط بين العيد والبهاء زهير هو البساطة وعدم التكلف . ولعل سهو ابى القاسم سعد الله يعد صحيحا ! فقد نقل كلام شكيب أرسلان ، وقال بان الأمير قرن محمد

العيد بزهير (24) ٠ ولعمرى فان لغة العيد ـ من بعض الجوانب ـ أقرب الى لغة زهير الجاهلى منها الى لغة البهاء زهير المصرى ٠ وقد أكد البشير الابراهيمى ذلك حينما قدم الشاعر الى جمهوره ، فقال : « ولعلكم فى هذا المجلس سترتفعون بالذكريات الى الماضى الخالد حين تسمعون من الشعر ما يمثل زهيرا والنابغة فى الاولين ، وأبا العتاهية والمتنبى فى المحدثين » (25) ٠

ان فراغ البهاء زهير للغزل ادى به الى هذه اللغة الرقيقة ، فى حين كان العيد يصارع الاستعمار اشد ما يكون عليه الصراع ٠ وحتى قصائد الغزل التى خجل العيد من درجها فى ديوانه لم تشى بهذه الرقة ، بل تؤكد ما اشرنا اليه ، وهو ميله الى الأثر القديم ، والقرآن منه بشكل خاص ٠ يقول العيد ، مخاطبا العذال :

على رسلكم ، دين الهوى غير دينكم   لكم دينكم، يا عاذلون ، ولى دينى (26)

ولكن لا ينبغى أن نذهب بعيدا فى ابعاد صفة الرقة عن شعر العيد ، ففى شعره الذاتى خاصة نجد هذه اللغة الرقيقة الرومانسية :

انما الشعر ريشة   كل نفس لها وتر
انما الشعر لوحة   غير محدودة الصور (27)

وفى أكثر من قصيدة من الديوان ٠

وفى مرحلة الثورة ، والاستقلال خاصة ، تطورت لغة الشاعر قليلا ، فالالفاظ « مأخوذة من قاموس الثورة ، ومستوحاة من الاستقلال » (28) ، فانت تواجه بالفاظ مثل الثورة والتحرير والنضال والكفاح والاستقلال بشكل واضح ٠ وهى الفاظ لم يكن بوسع الشاعر أن يقولها زمن الاحتلال ٠ وانما كان يرمز اليها رمزا ٠ وعلى أية حال ، فهو تجديد جزئى ، اذ ليس من السهولة أن يتخلص الشاعر من ركام هائل من المحفوظات ، بل انه مال فى شعره الى التجنيس أكثر من ذى قبل ، مما يؤكد أن مفهومه للغة الشعرية لم يتطور :

اليوم يذكر شعبنا حرية   بالشكر منه حرية أن تذكرا
باع النفائس والنفوس لأجلها   وبها اشترى فى العمر اغلى ما اشترى (29)

ولا غرابة فقد انتهى الرجل شعريا ، وانقطع عن قول الشعر الا قليلا .

(2) الموسـيقى :

ما دمنا قد انتهينا الى القول بأن لغة العيد تعتمد اللغة القرآنية فى الصياغة والمنحى ، وجئنا بنصوص كثيرة منها ما كانت صياغته باللغة القرآنية ، ومنها ما كانت سائرة على منهجها . بقى علينا أن نتحدث عن الجانب الموسيقى فى هذه اللغة . فاللغة العربية بشكل عام ذات طابع موسيقى تحكى فيه الالفاظ صور المعانى ، وتوحى بها من خلال موسيقى الحروف والبنية . وكثير من الألفاظ القرآنية جاء معبرا عن المعنى من خلال الصياغة ، وان لم يكن ذلك مطردا فى الألفاظ كافة . وقد استفاد العيد من هذه الخاصية فى اللغة عموما ، ومن الألفاظ القرآنية بشكل خاص . فهو يختار من هذه الألفاظ أكثرها حكاية للمعنى ، فيقول مخاطبا رافعى القصور والاغنياء :

ألا تذكرون حفاة عراة ... أصابهم الفقر بالفاقرة ؟

ألا تكرمون ألا تنقذون ... وجوها تكبكب بالحافرة ؟ (30)

فلفظة (تكبكب) ذات موسيقى موحية بمعناها ، وهى صورة حركية للمعنى . وقد جاءت فى القرآن تجسد موقفا للمشركين ، وهم يساقون الى النار « **وكبكبوا فيها هم** والغاوون » (31) ، الا أن الشاعر استعمل اللفظة فى تصوير مشهد حياتى للفقراء . ويقول الشاعر فى زلزال الأصنام :

أسفى على الأصنام رجت دورها

تحت الظلام وزلزلت زلزالها (32)

فواضح أن (زلزلت) حكاية صوتية للزلزال ، وما يحدثه فى الأرض ، ومن هذا الكثير فى القرآن مثل الفاظ الصاخة ، القارعة ، يصطرخون ، سألتمونيها يغشيكم هذه الألفاظ التى تجسد المعنى من خلال بنيتها الايقاعية . ولكن العيد ـ للاسف ـ كانت استفادته من القرآن محدودة فى هذا المجال . أما من حيث تكرار الالفاظ وترجيعها ، فالملاحظ أن شعر محمد العيد يكثر فيه تكرار اللفظ فى البيت الواحد ، ويلجأ أحيانا الى التجانس بين الالفاظ ، وأحيانا يأتى بما يسمى بالبديع برد العجز على الصدر ، حتى

أنك فى الغالب لا تواجه البيت الا وقد اشتمل على جانب من هذه الجوانب · وواضح أن توافر هذه المحسنات البديعية فى الشعر يكسبه عنصرا موسيقيا ، على ان يجيء صادقا وعفويا ، فهل كان للقرآن أثر فى ذلك لدى العيد ؟

فى الواقع ان التكرار يرد فى القرآن كثيرا ، وفى السور المكية خاصة من اجل تنبيت المعانى وتقريرها ، ولكن الذى ارجحه أن العيد ينحو فى هذا التكرار والتجنيس منحى مدرسة البديع التى قرأ الكثير لشعرائها كمسلم بن الوليد ، وابى تمام الطائى ، ومن ثم شعراء الفترة المظلمة · وان كان للقـــرآن اثر فهو لا يتعدى الى أكثر من مواضع محـــدودة ·

وقبل أن نتجاوز هذه الموسيقى الداخلية الى الموسيقى الخارجية التى تتمثل بالوزن والقافية ، لابد أن نشير الى ما احتدم من حوار بين اصحاب الدراسات البيانية القرآنية حول القرآن والشعر · وليس هذا مجال عرض هذه القضية مفصلة ، ولكن الذى نريد تقريره هو أنه « ليس يعيب القرآن أن نحكم على أن فى الفاظه موسيقى كموســيقى الشعر ، وقوافى كقوافى الشعر او السجع ، بل تلك ناحية من نواحى الجمال فيه » (33) · وقد كان لهذا أثره على نفوس العرب الذين تلقوه بالدهشة والاعجاب ، وبهذا فليس بدعا أن نقول ان للقرآن موسيقى قد يتأثر بها الأديب ناثرا أو شاعرا · بعد هذا نقول ما مدى تأثر الموسيقى الخارجية فى شعر محمد العيد بالقرآن ؟

تواجهنا الموسيقى القرآنية حين ياتى الشاعر بشطر موزون كما هو فى القرآن :

من يقـــل لا تامنوا الغــــدر قلنـا (حسبنا الله ونعم الوكيل) (34)

من البحر المديد · انظر الى قوله تعالى : « **وقالوا حسبنا الله ، ونعم الوكيل** » (35) · وعلى الرغم من قلة الآيات التى جاءت على أنماط الأوزان الشعرية كاملة ، فالشاعر حريص على أن ياتى بهذا القليل ليكون شطرا شعريا قوامه القرآن ، كما فى المثال السابق · واحسبنى مصيبا اذا قلت ان ذلك ياتى دونما اعمال فكر ، كقوله :

ومـــا قــدمت من خـــير خفى (فأن الله كان به عليما) (36)

ذلك أن كثيرا من الفواصل القرآنية تنتهى بمثل (عليما ، حكيما ···) لهذا ترى الشاعر كيف استفاد من هذه الظاهرة القرآنية ، ووظفها فى شعره ·

ولما كان من الصعب أن تاتى الالفاظ فى الشعر كما فى القــرآن ، لانه نثر ، يلجأ الشاعر الى جمل قرآنية على نمط معين من الوزن ، ولكنها لا تمثل صدرا او عجزا من البيت الشعرى ، كقوله :

علنــوا البشرى فــرادى وثبــين   جاء نصر الله والفتــح المبــين (37)

« من الرمل) فجاءت التفعيلة الاولى والثانية وجزء من الثالثة من القرآن وجاء الشاعر بلفظة (المبين) ليكمل بها الشطر ، بل انه أحيانا يغير لفظا فى الآية التى يمكن أن تشكل شطرا شعريا لضرورة يراها فى المعنى ، كما قال :

(لن تنالوا البر حتى) ترفضــوا   ما لــكم من عنصر باق ودين (38)

فقد كان بامكانه ان يكمل الشطر فيقول : « **لن تنالوا البــر حتى تنفقوا** » (39) · ولكن المعنى لا يستقيم مع ما أراد · وقد أعانه على ذلك كله ان اسلوب القرآن نفسه ، فهو يجىء « متناسق المقاطع ، يصلح ان يضمن فى شعر الشاعر دون مشقة او عنت » (40)

فقوله تعالى : « **فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » (41) ، يمكن للشاعر الذى ينظم قصيدته على (المديد) أن ياتى منه بـ (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، كما فعل العيد ، وقد أشرنا اليه قبل قليل ، والذى ينظم قصــيدته على (الهزج) ياتى منه بـ (وقالوا حسبنا الله) ·

بقى من الموسيقى الخارجية القافية ، وهى عنصر هام دون شــك · فما مدى تاثر شاعرنا بالقرآن فى هذا الجانب ؟

ان نهايات الفواصل القرآنية يمكن أن تحسب قوافى تغنى الموســيقى الخارجية للشعر · وكان بعض الشعراء يلجـأون الى القواميس التى رتبت على أســاس أواخر الأفعال ، حيث يتصيدون قوافيهم · ولكن العيد كان يلجا الى قاموسه الأثير : القرآن · واغلب الظن أنه عندما نظل قصيدته فى زلزال الأصنام كان واقعا تحت تاثير الفاصلــة القرآنية التى صورت الزلزال أيضا فى سورة الزلزلة :

أســـفى على الاصنام رجت دورها   تحت الظلام ولـزلزت زلزالها (42)
دوت دوى الرعـــد ثم تدكـدكت   بالآهلـين واخـــرجت أثقـــالها

وليس من قبيل التمحل أن نقول ان الفاصلة القرآنية قد لونت قافيـــة العيد ، وكانت الموئل لها والمعين · صحيح أن حروف الروى قد نظم بها من قبل كثير من الشعراء، ولكن الفارق الأساسى هو أن العيد يستحضر مع حرف الروى الجو القرآنى ، مما يجعلنا نميل الى نسبة ذلك الى أثر الفاصلة القرآنية موسيقيا · انظر اليه ، وهو يقول فى حفل تكريم السنوسى بمناسبة طبع كتابه (شعراء الجزائر فى العصر الحاضر) :

قـــد عرفنـــاك بالجـــزائر بـــرا   يـــوم احييت ذكــــرها الأدبيـــا
يوم احييت شـــعرها بعد أن لم   يكن الشعر فى الجـــزائر شـــيا
كان بالامس مودع القبـــر ميتـــا   كيف أخرجته من القبـــر حيا (43)

ألا تلاحظ أننا نقف وجها لوجه امام سورة مريم ، ليس من حيث حروف الروى ، ولكن من حيث الجو العام لسورة مريم ، فقد لاحظنا السنوسى برا بالجـزائر ، كما كان عيسى برا بوالدته « **وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا** » (44) ، وقد أحيا السنوسى الشعر بعد أن لم يكن شيئا ، كما خلق الله زكريا بعد أن لم يكن شيئا « **قال كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا** » (45) · ولا نريد تتبع الفاصـلة القرآنية فى القصيدة كلها ، ففيها (حفيا ، مليا ، زكيا -) · واذا كانت هذه اليـاء الممدودة مناسبة لاسلوب القصة المسترسل (46) ، فان العيد لم ينح منحى القرآن فى القصص ، ولكنه استفاد من الفاصلة التى اكسبت القافية رقة وحيوية موسيقى ·

ويظهر اثر الفاصلة المكية واضحا على قافية العيد لكثرة ترديد السجع فى الســور المكية · انظر الى الشاعر ، وهو يخاطب المعمر الفرنسى :

ايـن المفـــر من الآلـ   ـه وحـكمه ايـن المفر ؟
او تبتغى وزرا يصـــو   نك منه، كلا، لا وزر !(47)

هذه الموسيقى الحادة تحكى لنا جو الوعيد فى مشهد من مشاهد يوم القيامة « **يقـول الانسان يومئذ أين المفر ، كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ المستقر** » (48) · فالشـــاعر

لا يتأثر ـ كما تلاحظ ـ بالفاصلة وحدها ، وانما ينقل جوها وروحها · والشواهد كثيرة ، ومن يريد الاستزادة فليراجع الديوان ·

(3) الصـــــورة :

بدءا يمكن القول بأن محمد العيد لم يكن شاعر صور بل هو يفضل التعبير المباشر ، واذا ما لجا الى التصوير ، فأن هذا التصوير يعتمد الأدوات القديمة ، وبذلك فهو تصوير غير مبهم · ويعود ذلك الى أن موهبة العيد نفسها محدودة التخيل ، بالاضافة الى أنه كان يكتب لوسط اجتماعي محدود الثقافة أو معدومها · ولم يكن يريد ان يبتعد عن هذا المجتمع الذى التزم قضيته ، ووجد فى الدعوة الى تحرره هدفا نبيلا · وهذا ما يفسر لنا لجوءه الى الصورة القرآنية ، فقد ادرك الشاعر دلالة هذه الصورة وأثرها على نفسية جمهوره القريب من الجو القرآنى · ولما كان « التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن (48 م) ، ولما كان هذا القرآن دائم الحضور فى ذاكرة الشاعر ، راح يستمد غالبية صوره منه بالنص حينا ، وبالاشارة حينا آخر · وفى الجدير بالذكر أن مفهومنا عن الصورة سيكون اوسع مما اصطلح عليه البلاغيون ، كالتشبيه والاستعاره ، وسنجد نصوصا ليس فيها من هذا شىء ، ولكننا نفهمها على أنها صورة · فمن الصور القرآنية التى يغير الشاعر فيها شيئا قوله مخاطبا المجلس الادارى لجمعية العلماء عام 1933 :

صف الجـــزائر فيما شـــئت من كرم ولذ بها حـــرما ناهيـــك من حـــرم

ألـــم ركبـك ، فاهتـــزت لـــه وربت كالارض غب نـــزول الهاطل العمم (49)

اقرأ قوله تعالى : « **وترى الارض هامدة ، فاذا أنزلنا عليـــها الماء اهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج** » (50) · فالجـــزائر فى حضرة جمعية العلمـاء لا تختلف عن الأرض التى اصابتها هزة الفرح بهطول المطـر ، وهى صـــورة قرآنية كما لاحظت · وعندما يحذر الشاعر مصر من أن تثق بوعود الانجليز :

ولا تثـــقى بوعـــد غير صـــدق تالـق كالسـراب لكل صـاد (51)

تظل الصـــورة القرآنية تلح عليـــه ، فوعود الانجليز السرابيه هى صورة لأعمال الكافرين التى جسدها القرآن : « **والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء** » (52) · ولا يختلف الفرنسيون فى وعودهم عن الانجليز :

ومـــا وعـــدهم الا سراب بقيعـة   وما عهدهم الا مداد بقرطاس (53)

والصورة هنا تبدو مركزة أكثر من ســـابقتها ، ولكنها تبقى محتفظة باصـــولها القرآنية • وفى لحظات الصمت الصوفية التى عاشها العيد بعد الحرب العالمية الثانيـة تتحول الصورة ذات الموقف الثورى الى صورة يائسة ، فيصبح السراب أمل النفس الانسانية الخائب •

وفى الوقت الذى تاتى الصورة لدى العيد انعكاسا لصورة قرانية ، فقد تـــاتى احيانا مكثفة لمشهد قرآنى ملموس ، كقوله مشيرا الى دحض ابن باديس لآراء المستشرق آشيل الذى استهدف الاسلام بسوء :

دفعت أقـــوال آشـــيل كما دفعت   ابطال ابرهة الطير الأبابيل (54)

فى هذه الصورة يختصر العيد مشهدا بل سورة كاملة ، ويوفق فى استثارة جمهوره المتهيء لتلقى ايحاءات الصورة القرآنية •

وقد يلجا الشاعر الى ما يسمى بالصورة الاشارية ، وهى أن نشير الى موقف او مضمون من نص آخر ، حتى ولو لم يكن ذلك النص صورة ؛ « لأن الفنـــان يقابل عن طريقها ، ويقارن بين حالتين ، او موقفين ، او غرضين » (55) ، ومع ذلك يبقى الشاعر بعيـدا عما يسمى بالتضمين البديعى الى الحرية :

عاطنى من خمـــرة الآمال جـــاما   ان فيها نشـــوة تحيى العظـــاما

ان فيـــها لى بـــردا وســـــلاما   من لظى الياس ،ومن نار الحسار (56)

فقوله (ان فيها لى بردا وسلاما) ليس صورة ، وان كان ذا ايحاء شـــعرى ، ولكن اقترانه بموقف ابراهيم فى القرآن يحيله الى صورة معبرة ، ويمنحه حركة وحيوية ، اذ أنه ينقل المتلقى الى ابراهيم (عليه السلام) وهو أمام مجمـــرة النار الكبيرة ، وكيف تحولت الى برد وســـلام بقدرة قادر • وبهذا يكون الشـــاعر ، باعتماده على الموقف القرآنى ، قد عبر بالصورة مع أن تعبيره كان مباشرا ، أضف الى ذلك الدلالة النفسية ، والظلال الموحية للتعبير الجديد • واقرأ معى هذا النموذج الذى يشير فيه الشـــاعر الى وعود الاستعمار الفرنسى ونهايته :

كـــل وعـــد لـــه مضى فهـــو حبـــر على ورق
قـــد تـــولى بركنـــه فترقب لـــه الغـــرق (57)

واذا ما استعدنا الى الذاكرة قوله تعالى : « **وفى موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه ، وقال ساحر مجنون ، فاخذناه وجنــوده ، فنبذناه فى اليم ، وهو مليم** » (58) ، اذا قرأنا هذا النص القرآنى نحس أن الشاعر اســتلهم موقفا آخر فى حديثه عن الاستعمار الفرنسى ، موقف فرعون الذى (تولى بركنه) ، وكانت عاقبتـه الغرق ، وهو ما ارتقبه الشاعر لفرنسا ، وان لم تكن هذه النهاية غرقا ، فهى هزيمة على أية حال · وبعقد هذا التقابل بين الموقفين يمنح الشاعر فنه طاقـــة من الايحاء كبيرة ، ويعطى القارىء فرصة للتأمل تثرى فهمه للنص وتغنيه ·

ومن الحق أن نقول ان الشاعر يعتمد فى بعض هذه الصور على ذاكـرته وذكائه ، ولا يحاول اكتشاف الصورة أو يعطيها بعدا جديدا · وتاتى بعض صوره التى يستوحيها من القرآن غير موفقة أحيانا ، لأنه لا يعنى بظلال اللفظة القـــرآنية فيها ، كقوله ، وهو يرسم صـــورة للبحـــر :

وبـــدا البحـــر ساكنا غير موجا ت علتها طـــير أبابيـــل بهق (59)

ان الألفاظ القرآنية تحمل دلالتـها معها ، وتشير الى ســـياقها بالضرورة · فالطير الأبابيل تذكرنا بمشهد مدمر رهيب فى حين أن الشاعر أراد بها هنا تلك الطيور الوادعة المتراقصة على ســكون الامواج · الا تحس معى أن هناك تناشزا واضحا فى الصـــورة بسبب استعارة الشاعر الفاظا من مشهد قرآنى يختلف ، بل ويتضاد مع مشهده ·

ونجد الشاعر أحيانا يحذف جزءا مهما من الصورة القرآنية بحيث تفقد عمقها :

ما عـــز مجتـــمع يعيش شـــبابه متســـكعا فى الطرق كالانعام (60)

لاحظ التعبير القرآنى : « **اولئك كالانعام ، بل هم اضل سبيلا** » (61) ، فالروعـة فى هذا التصوير ليست فى تشبيههم بالانعام ، ولكن فى هذه الاضافة التى تجعلهم اقل ادراكا من الأنعام ، فى حين ظل تعبير العيد بسيطا وغير مدهش · ننتهى من ذلك كله الى القول بان صور العيد معظمها قرآنى الأصل ، حتى بعض الصور التى قال عنها أبو القاسم

سعد الله أنها جديدة (62) ، تحس أنها مستوحاة من القرآن كقوله واصفا حيرته وضلاله :

حيران كالتائه الضليل ليس له ... هاد بأجرف واد كله زلق (63)

قال تعالى : « **أفمن أسس بنياته على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنياته على شفا جرف هار ، فانهار به** » (64) · ألا تلاحظ أنه صدر عن القرآن فى رسم صورة الضال الموشك على السقوط والانهيار ·

(4) الرمز :

لقد ذاق الشعب الجزائرى شتى ألوان التعذيب والقهر من الاستعمار الفرنسى · ولولا هذه السياسة الرهيبة لما استطاع أن يحتفظ بوجوده فى الجزائر أكثر من قرن وربع · وقد طبعت هذه الظروف الفن والادب بطابع خاص ، فهو مصرح حينا ، ورامز حينا آخر · وعلى الرغم أن العيد كان متمردا ، لا يعبأ بالعواقب ، ولكنه كان يلجأ فى بعض الاحيان الى الرمز استجابة لغريزة المحافظة على الذات · فقد رمز للاستعمار والحرية والاستقلال والحرب ، ولكن هل وقف الشاعر عند هذه الرموز التى ذكرها الدكتور أبو القاسم سعد الله (65) ، وهل صحيح أن الشاعر يحشو الاعلام فى شعره لسبب ولغير ما سبب (66) ؟ لا اظن ذلك ، واذا صدق هذا القول ، فانه ــ فى الأقل ــ لا يصدق على الاعلام القرآنية التى تحمل معها صدق دلالتها الرامزة ·

لقد عثر العيد على كنز من الرموز من خلال تعامله مع القرآن ، واستطاع ان يفجر طاقة هائلة فى نفوس جمهوره ، دونما اثارة للسلطات الحاكمة ؛ ذلك أن هذه الرموز كامنة فى الضمير الجمعى للأمة ، كما يقول علماء النفس · فقد مر بنا فى بحث الصورة (67) ، أن الشاعر ــ فى تصويره للصراع الذى احتدم بين ــ ابن باديس والمستشرقين الفرنسيين ــ قد نقلنا الى ابرهة الحبشى والطير الأبابيل · ان ذكر ابرهة وحده يكفى لأن يعيد تاريخ الغزو والالحاد الى ذاكرة الجمهور ، ومن ثم يعمق فهمه لما يقوم به الاستعمار ، من اغلاق للمساجد ، أو تحويلها الى كنائس · فالموقف واحد : فرنسا هى ابرهة الحبشى ، والظلم واحد ، والتحدى واحد ، والعاقبة أيضا سواء ! ، وبهذا فقد

استطاع الشاعر أن يمنح الصورة بعدا ايحائيا ورمزيا يثير الجمهور أيما اثارة ، ويمر على الاستعمار دونما التفات منه · كما استطاع الشاعر أن ينفس عن الكبت الذى كان يعانيه ، ويشد كلماته للهدف الكبير ، بل ويجد فى ذلك تعويضا عن حمل السلاح ، ان لم يكن أمضى من السلاح المادى ·

ومن الشخصيات القرآنية التى لا تذكر الا ويتجسد معها موقفها وصفاتها ، فرعون ، وهل هناك رمز للجبروت أشهر من فرعون ؟ يقول الشاعر مخاطبا الفرنسيين :

لا يأمنــوا صب العــذاب عليهم فرعــون أعـتى منهـم وثمود (68)

وكفاه بذلك أن يدل على بشاعة الظلم الفرنسى دون حاجة منه الى اى تفصيل · ولكن هل هذا الرمز اعتمده العيد هو الذى يطلبه النقد الادبى الحديث ؟ نستطيع أن نقول ، بكل تاكيد ، ان لغة محمد العيد لغة تقريرية مباشرة ، وليست من الكثافة بحيث نحكم لها بانها لغة رمزية موحية ، ولكننا واجدون لدى العيد ما يسمى بالرمز الموضوعى ، وهو نمط من انماط الرموز الكثيرة التى يلجأ اليها الشعراء ، وهو أن يذكر الشاعر اسماء او مواقع او حكاية تحمل معها دلالتها الرامزة كلما ذكرت منسحبة على أكثر من موقف لاحق ، ومتسمة بسمة الاستمرارية والخلود · ويهمنا الآن ان نلاحظ مدى استفادة الشاعر من الاعلام القرآنية فى ميدان الدلالة الرمزية · يقول :

انمــا تربــة الجـــزائر مهـــد عبــقــرى لثـــورة العظمـــاء
ما شـــككنا ، والشـعب فيـــها كليم أن نار (الأوراس) فى سيناء) (69)

الا تلاحظ معى أن سيناء هنا رمز للوصول الى الحقيقة المضيئة والتبشـــير بها بقوة وانطلاق ، فقد آنس موسى النار ، وكان قبسه منها طـــريق اضاءة للبشرية · ومن هذا الرمز تكتسب الاوراس ايحاءها ، وتتحول هى الأخرى الى رمز للبحث عن الحق من خلال الاصرار والرفض · ويلح العيد على ذكر نار موسى ، فاذا ما رثى محمد بن أبى شنب البحاثة الجزائرى ، قال :

ان ذكـــرى (محمـــد) نـــار موسى سوف ياتى من بعدها الخير يترى (70)

وهو يختلف عن شوقى الذى نظر الى موسى نظرة اقليمية :

مصـــر موسى عنـــد انتـــماء وموسى   مصـــر ان كان نسـبة وانتماء (71)

ولعل هذا الميل الى تقليب النظر فى شخصية موسى ، وما يتصـــل بها ، يرجع الى كثرة ذكر قصــة موسى فى القرآن ، والى موسى الزعيم الثائر الذى لا يعبأ بالعقبات فى سبيل دعـــوته ٠

وتاتى شخصية ابراهيم (عليه السلام) بعد موسى من حيث استفادة الشـــاعر مما ترمز اليه ٠ واحب ان اذكر هنا بيتا من قصيدة خاطب بها الشاعر صديقه العقبى بعد الاعلان عن براءته :

لــك الــف ليس يتـــسى الفـــه   و (خليـــل) لا يحـــب الآفلين (72)

فالبلاغيون ينظرون الى (خليل) هنا على أنها (تورية) وكفى ، ولكننى اشعر أنها مشحونة بدلالة عميقة ٠ فقد صار الخليل رمزا وعلما للايمـــان بالعقيدة والتضحية من أجلها ، خاصة وان اضاءة كافية سلطها الشاعر على هذا الرمز (لا يحب الآفلين) ، هذه الاضاءة قيدت الرمز بدلالة معينة ٠

ويعنى الشاعر عناية خاصة بشخصية (يوسف) ، هذه الشخصية الرامزة للجمال ، والعفة ، وعلم الرؤيا ٠ انظر الى قوله :

وطـــنى الذى همـــوا بـــه ودليله   كدليل يوسف ثوبه المقـــدود (73)

الا ترى أن ثوب يوسف يكفى ذكره ليوحى بالبراءة ، ويعرض بمدنسى هذه البراءة ؟ وذلك ما أراد الشاعر أن يشير به الى فرنسا قاتلة البراءة ٠ وقميص يوسف أكثر غورا فى اعماقنا ، فهو مرتبط بالصبر الجميل ، وجلال الحنان الأبوى :

قـــد ارتددت بصـــيرا   فكيـــف يغـــوى البصير ؟

قميـــص يوســـف القى   بـــه عـــلى (البشـــير) (74)

كتب الشاعر ذلك حينما جاءه كتاب من البشير الابراهيمى يلومه على تشاؤمه ٠ وقد احسن الشاعر حين جعل من قميص يوسف رمزا يتجاوز حادثة بعينها ، وينسحب على كل حادثة مشابهة ٠

اننا لا نريد أن نحصى هذه الشخصيات القرآنية ، ولكننا نريد ان نرسم صورة لمدى استفادة شاعرنا من اتخاذ هذه الشخصيات رمزا للافكار والمواقف ، ونود أن نؤكد هنا أن العيد شديد الميل الى الشخصيات الرامزة للبطولة والثورة والتمرد ، وهو يريد ، وراء ذلك ، رسم مواقف ثورية مماثلة ·

وتأتى روعة هذا التناول فى شعر العيد فى أنه يمنح الرموز القرآنية حياة جديدة من خلال الدلالة الجديدة · فـ (الصور) الذى يرمز فى القرآن الى اعلان البعث والحساب (75) ، يحمله الشاعر معنى الحياة والبعث الأرضى · فاذا كان الناس فى الصور القرآنى يقومون من القبور ليواجهوا الحساب ، ففى صور العيد ينهضون الى العمل ، بعد فترة من الخمول والضياع ، ليستردوا ما سلبهم اياه الاستعمار :

أعلن الصور بالقيامة فى الار　　ض ، وقامت من القبور العباد (76)

ومن الجدير بالذكر أن بعض الرموز القرآنية لدى العيد ليست على قدر كبير من التكثيف والايجاز ، لانه لا يطلق الرمز بمفرده ، ويتركه وتأثيره فى نفسية المتلقى ، وانما يلجأ الى تفسيره احيانا · وبذلك يمطط اللغة ، بل ويفسد على القارىء لذة الاكتشاف والمعايشة · ولكننا نستطيع أن نقرر أن الرمز القرآنى لدى العيد بصورة عامة بقى أقرب الى التركيز قياسا على رموزه الأخرى غير القرآنية التى رمز بها العيد للحرية والاستقلال والاستعمار ·

يمكن القول بأن ثقافة محمد العيد القرآنية قد اعانته كثيرا على تصريف مناحى القول الشعرى ، والتعبير بيسر عن مختلف المضامين والاهداف · ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التواصل بين الشاعر والقرآن بلغته وصوره ورموزه لم يكن وقفا على المناسبات الاسلامية كالمولد النبوى او الحج مثلا ، وانما ظهر على معظم ما قاله الشاعر فى عمره الشعرى الطويل · فلقد أصبحت اللغة القرآنية لغة الشاعر ، ومضامين القرآن والمواقف التى صورها ملكا للشاعر يسحبها على صراع الحياة المعاصرة · وقد لاحظنا الى أى مدى كان العيد موفقا فى الربط بين فنه وثقافة جمهوره وميوله ·

ان العودة الى التراث أصبحت ضرورة فنية وفكرية لاغناء حياتنا الأدبية الحاضرة ، فلم يعد النقد الأدبى الحديث يحاكم الشاعر ، ويعتبره (سارقا) اذا ما اشار الى موقف سبق اليه ، او تاثر بصورة لأثر فنى او فكرى آخر · ان هذا التلاقح بين الماضى والحاضر لا يتعارض مع مفهوم التفرد أبدا ، فهو التفرع من النافورة النابعة من القاعدة ، ورمز التواصل مع النهر الكبير ·

وننتهى من ذلك كله الى التساؤل التالى : هل صحيح ان ماساتنا اللغوية متمثلة « فى كون نموذجنا الثقافى الاول هو دينى قبل ان يكون ادبيا » كما يرى باهى محمد ؟ (76) · واعتقد أن غنى تاريخنا الادبى القديم رغم صدوره عن هــذا النموذج الدينى ، وتطور أدبنا الحديث يرد هذه الدعوى غير العلمية · وما محمد العيد ــ موضوع بحثنا ــ الا نموذج للتاثر المحمود بهذا النموذج الثقافى والدينى ·

المصـــادر والمراجـــع

★ هذا البحث قدم الى معهد الآداب والثقافة العربية بجامعة وهران ـ قسم الدراسات المعمقة لامتحان المنهجية ، وقد حذفت بعض جوانبه تسهيلا للنشر ·

1 ـ الدكتور أبو القاسم سعد الله ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجـزائرى فى العصر الحديث ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ ط 2 ، ص 86 ·

2 ـ المصدر السابق ـ ص 95 ، وهو من شعره غير المنشور فى الديوان ·

3 ـ المصدر السابق ـ ص 93 ·

4 ـ ديوان محمد العيد محمد على خليفة ـ منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر 1967 ، ط 1 ـ ص 173 · وانظـــر قوله تعالى : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** » آل عمران ـ 92 ·

5 ـ الديوان ـ ص 125 ، وانظر سورة الزمر ـ 73

6 ـ الديوان ـ ص 134 ، وراجع سورة فصلت ـ 30

7 ـ الديوان ـ ص 149

8 ـ الديوان ـ ص 152

9 ـ الديوان ـ ص 433

16 ـ الديوان ص 314

11 ـ ســورة المطففــين ـ 14

12 ـ الديوان ص 39

13 ـ الدكتور محمد سلام زغلول ـ أثر القرآن فى النقد العربى ـ دار المعارف بمصر ـ 1968 ، ط 3 ، ص 82

14 ـ الديوان ص 140

15 ـ الديوان ص 444

16 ـ الديوان ص 216

17 ـ د٠ شكرى فيصل : المجاهد الثقافى 12/ ماى 1970 ، ص 68

18 ـ الديوان : ص 240

19 ـ ديوان الرصافى ، دار العودة ـ بيروت ، 1972 ، مج 1 ، ص 462

20 ـ د٠ أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 62

21 ـ الديوان : ص 129 ، وابن دالى مفتى الجزائر الذى اغتالته السلطات الفرنسية عام 1936 ، وأتهمت جمعية العلماء بقتله ٠

22 ـ مقدمة ديوان محمد العيد نقلا عن صحيفة الشهاب ج 1 ، م 13 ، 1356 هـ ـ 1937 م

23 ـ ديوان البهاء زهير ، دار صادر ـ بيروت ، 1963 ، ص 37

24 ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ط 2 ، ص 128

25 ـ الديوان : ص 202

26 ـ الثقافة : 28/ أوت ـ سبتمبر 1975 ، ص 115

27 ـ الديوان : ص 402

28 ـ أبو القاسم سعد الله : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 50

29 ـ الديوان : ص 445

30 ـ الديوان : ص 251

31 ـ سورة الشعراء ـ 34

32 ـ الديوان : ص 68

33 ـ ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، مكتبة الانجلو ـ مصرية ، ط 3 ، القاهرة 1965 ، ص 47

34 ـ الديوان : ص 131

35 ـ سورة آل عمران ، 173

36 ـ الديوان : ص 282

37 ـ الديوان : ص 169

38 ـ الديوان : ص 173

39 ـ سورة آل عمران ، 92

40 ـ ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، ص 309

41 ـ سورة آل عمران ، 173

42 ـ الديوان : ص 68

43 ـ الديوان : ص 24

44 ـ سورة مريم ، 23

45 ـ سورة مريم ، 9

46 ـ سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، دار الشروق ـ بيروت ! ، ص 90

47 ـ الديوان : ص 309

48 ـ سورة القيامة : 10 ، 11 ، 12

48 ـ سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص 33

49 ـ الديوان : ص 102

50 ـ سورة الحج ، 39

51 ـ الديوان : ص 345

52 ـ سورة النور ، 39

53 ـ الديوان : ص 327

54 ـ الديوان : ص 86

55 ـ الدكتور نعيم اليافى : الشعب الاسبوعى 36/20 مارس 1976 ، ص 18

56 ـ الديوان : ص 50

57 ـ الديوان : ص 384

58 ـ سورة الذاريات : 38 ، 39 ، 40

59 ـ الديوان : ص 23

60 ـ الديوان : ص 241

61 ـ سورة الأعراف ، 178

62 ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 240

63 ـ الديوان : ص 377

64 ـ سورة التوبة ، 109 . وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى آيات أخرى ، راجع سورة آل عمران ، 103 ، وسورة الحج ، 11

65 ـ محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى الحديث ، ص 214ـ215

66 ـ المصدر السابق : ص 226

67 ـ راجع ص 12 من هذا البحث

68 ـ الديوان : ص 22

69 ـ الديوان : ص 436

70 ـ الديوان : ص 452

71 ـ الشوقيات ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، 1958 ج 1 ، ص 27

72 ـ الديوان : ص 171

73 ـ الديوان : ص 22

74 ـ الديوان : ص 392

75 ـ انظر الى قوله تعالى : « **ونفخ فى الصور ، فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون** » سورة يس ، 51

76 ـ المجاهد الثقافى : 4/ جانفى 1968 ، ص 9 .